

قصة الحضارة

ول وايرنيل ديورانت

بداية عصر العقل

مراجعة
عالمب أدھم

ترجمة
محمد علي أبودرة

المجلد الأول من المجلد السابع

٢٨



تونس



بيروت

فهرس

الجزء الأول من المجلد السابع

من قصة الحضارة

الكتاب الاول

ابتهاج غامر في انجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الاول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

رقم	بيان
١	(مزايا المحنة ٢
٢	(حكومة اليزابث ٦
٣	(العذراء العاشقة ١
٤	(اليزابث وحاشيتها ١٤
٥	(اليزابث والدين ٢٠
٦	(اليزابث والكاثوليك ٢٦
٧	(اليزابث والبيوريتانيون ٣٢
٨	(اليزابث وايرلنده ٣٩

- ٩ (اليزابث وأسبانيا ٤٣
١٠ (رالى واسكس ٥٤
١١ (السحر يندوى ويلدبل ٦١

الفصل الثانى

انجلترا المرحلة

١٦٢٥ — ٥٥٨

١. (فى العمل ٦٦
٢ (فى المدارس ٧٤
٣ (الفضيلة والرذيلة ١٦
٤ (العدالة والقانون ٧٩
٥ (فى البيت ٨١
٦ (الموسيقى الانجليزية ٨٧
٧ (الفن الانجليزى ٩٠
٨ (الرجل فى عهد اليزابث ٩٤

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٦٠٣ — ١٥٥٨

- ١ (الكتب ٩٧
٢ (حرب الأدباء ١٠١
٣ (فيليب سدنى ١٠٤

- ٤ (ادموند سبنسر ١١٠
٥ (المسرح ١١٥
٦ (كرسنوفر مارلو ١٢١

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

- ١ (أيام الشباب ١٣٠
٢ (تطور الشاعر ١٣٢
٣ (تفوق الشاعر ١٣٦
٤ (براعة شكسبير الفنية ١٤٣
٥ (فلسفة شكسبير ١٥٠
٦ (الرضا والقناعة ١٥٦
٧ (بعد موت الشاعر ١٦٠

الفصل الخامس

ماري ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

- ١ (الملكة الجنية ١٦٥
٢ (اسكتلنده ١٦٧
٣ (ماري ونوركس ١٧٠
٤ (الملكة تقع في شرك الغرام ١٧٧
٥ — التكفير ١٨٦

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ - ١٦٢٥

-
- | | |
|---|---------------------------------------|
| ١ | (جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٩٦ |
| ٢ | (جيمس الأول ملك انجلترا ٢٠٤ |
| ٣ | (مؤامرة البارود ٢٠٩ |
| ٤ | (المسرح في عهد جيمس ٢١٤ |
| ٥ | (بن جونسون ٢١٩ |
| ٦ | (جون دون ٢٢٨ |
| ٧ | (جيمس يثير العاصفة ٢٣٥ |

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ - ١٦٤٩

-
- | | |
|---|--|
| ١ | (الخرافة ٢٤٣ |
| ٢ | (العلوم ٢٤٥ |
| ٣ | (صعود فرانسيس بيكون وسقوطه ٢٥٤ |
| ٤ | (التجديد الكبير ٢٥٧ |
| ٥ | (فلسفة رجل الدولة ٢٦٤ |
| ٦ | (صيحة العقل ٢٦٩ |

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ - ١٦٤٩

- ١ (الاقتصاد المتغير ٢٧٦
- ٢ (مرآة الديانة... .. ٢٧٩
- ٣ (البيوريتانيون والمسرح ٢٨٩
- ٤ (النثر في عهد شارل الأول ٢٩١
- ٥ (الشعر في عهد شارل الأول ٢٩٥
- ٦ (شارل الأول يواجه البرلمان ٣٠٠
- ٧ (شارل حاكم مطلق ٣٠٦
- ٨ (البرلمان الطويل ٣١١
- ٩ (الحرب الأهلية الأولى ٣١٩
- ١٠ (المتطرفون ٣٢٤
- ١١ (وأسدل الستار ! ٣٢٨

الكتاب الأول

ابتهاج غامر في إنجلترا

١٥٥٨ - ١٦٤٨

الفصل الأول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - مزايا المحنة

في السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ، ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكي في هاتفيلد - على مسافة ٣٦ ميلا إلى الشمال من لندن - وأعلن إلى اليزابث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا . ان أختها غير الشقيقة ، الملكة ماري ذات السمعة التي يرثى لها ، قد وافاها الأجل المحتوم في غسق الصباح في ذاك اليوم . وفي لندن عند ما تلقى البرلمان هذا النبأ هتف : « حفظ الله الملكة اليزابث ! فايطل أمد حكمها علينا ! » - ولم يكن يدور بخالده أو يخلم بأن حكمها سوف يمتد إلى خمسة وأربعين عاما . وعلى الرغم من أن الكنائس كانت توجس خيفة من صايل نواقيسها هز أجواز الفضاء . ومد الناس في إنجلترا موائد الأفراح في الشوارع ، كما فعاوا من أجل ماري من قبل ، وصبغوا السماء في ذاك المساء بأضواء المشاعل التي تشف عن الأمل الخالد .

وفي يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر . احتشد كبار اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة في قصر هاتفيلد . ليقسموا يمين الولاء للملكة ، ويلتمسوا في هذه المناسبة غنا ، وفي اليوم العشرين خطبت فيهم اليزابث في أسلوب ملكي حقا ، قائلة :

أيها اللوردات : أن توازن الطبيعة لتثير في نفسى لواعج الأسى والحزن على أخفى ، وإن العب الذي ألقى على كاهلي ليذهاني . ولكني بوصفى من عباد الله ، يتعين

على " الامتثال لاختياره إياى لهذا المنصب . انى فوق ذلك سوف أخضع لمشيتته ، تحذونى الرغبة من أعماق قلبى ، فى أن يهينى العون ، بفضلته وكرمه : على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة التى وكلت اليوم لى ، وما أنا ، من الناحية المادية إلا بشر ، ولكنى بإذنه تعالى بشر سياسى عليه أن يحكم . فهل لى أيها اللوردات ، وخاصة النبلاء منكم ، كل على قدر مرتبته وسلطته - هل لى أن أطمع فى أن تكونوا عوناً لى ، حتى أستطيع أنا بحكمى وأنتم بخدماتكم ، أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملاً مقبولاً ، ونترك لأعقابنا على الأرض شيئاً من الرفاهية والراحة (١) . »

وفى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، اخترقت اليزابث ، مرتدية ثوباً من القטיפفة القرمزية ، شوارع لندن فى موكب عام ، إلى نفس « برج لندن » التى كانت سجنينة فيه منذ أربعة أعوام ؛ تنتظر الموت . وفى طريقها ، أخذ الأهالى اليوم يهللون ويهتفون لها والمشدون يتغنون بمجدها وعظمتها ، والأطفال يتلون عليها . وهم يرتعدون ، ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلال ، ورحبت طلقات المدافع والبنادق التى لم يسمع لها نظير من قبل ، بحكم قدر له أن يكون أزهى وأحفل بالرجال والعقول من أى حكم سبقه فى إنجلترا .

وكانت خمس وعشرون سنة من المحاكمات قد هيأت اليزابث لتسيطر وتتفوق . وفى ١٥٣٣ بدا أن من حسن طالعها أن يكون هنرى الثامن أباً لها ، ولكن كان خطراً عليها أن تكون أمها آن بولين . إن العار الذى لحق بأمها ثم لإعدامها ، وقعا فى وقت لم تكن الطفلة فيه تعى أو تذكر شيئاً (١٥٣٦) ، ولكن مرارة هذا التراث الكورى لازمتها وما انجابت عنها طيلة شبابها ، ولم تبرأ منها إلا بفضل بلسم الملك : ونص قرار أصدره البرلمان فى ١٥٣٦ على أن زواج آن باطل ، ومن ثم صارت اليزابث ابنة غير شرعية ، ولاكت الألسنة موضوع أبوة البنت ، واختلفت الأقوال فيه بشكل قاس ، وكانت فى نظر معظم الإنجليز ، على أية حال ، ابنة زنى . ولم تعد الشرعية إليها قط بحكم القانون ، ولكن قراراً آخر من البرلمان (١٥٤٤) ثبت حقها فى تولى العرش ، بعد ادوارد أخيها من أبيها ، ومارى أختها لأبيها . وفى أثناء حكم ادوارد (١٥٤٧ - ١٥٥٣) تمسكت اليزابث بالبروتستانتية ولكن عندما أعتلت

مارى الكاثوليكية العرش ، آثرت اليزابث الحياة على التمسك بمذهبها ، فتحوّلت إلى الطقوس الرومانية الكاثوليكية . ولما اخفقت ثورة ويات Wyatt (١٥٥٤) في خلع ماري ، اتهمت اليزابث بالاشترار في المؤامرة ، وأرسلت إلى برج لندن (السجن) . ولكن ماري قررت بأن التهمة غير ثابتة على اليزابث . وأفرجت عنها لتعيش في وودستوك Woodstock تحت المراقبة . وأقرت ماري قبل وفاتها أن تخلفها أختها على العرش ، وأرسلت إليها مجوهرات التاج . وإنا لنعزو حكم اليزابث إلى شفقة ماري « السفاحة » .

وكان التعليم الأكثر منهجية لاليزابث واسعا ، وكان معلمها الخاص المشهور - روجر أسكام - يتيه فخرا « بأنها تتحدث بالفرنسية والإيطالية بمثل ما تتحدث بالإنجليزية ، وأنها كثيرا ما تحدثت معي في يسر وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية (٢) » ، وكانت تتلقى في كل يوم لمحة من اللاهوت ، وتصلحت في العقيدة البروتستانتية ، ولكن يبدو أن معلمها الإيطاليين نقلوا إليها شيئا من مذهب الشك الذي رضعوه وتأثروا به من بومبوناتي ومكيافلي ورومه في عصر النهضة .

ولم تكن اليزابث مطمئنة على تاجها وعرشها قط . وأكد البرلمان من جديد في ١٥٥٣ عدم شرعية زواج أمها من أبيها ، واتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة زنى ، واستبعد القانون الإنجليزي - متجاهلا وليم الفاتح - كل أولاد الزنى ، من ولاية العرش ؛ واعتقد العالم الكاثوليكي - وكانت إنجلترا لا تزال كاثوليكية إلى حد كبير - أن الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزي هي ماري استيوارت ، ابنة حفيدة هنري السابع ، وقد أشير على اليزابث بأنها لو سالت الكنيسة ، لحدا عنها البابا وصمة بنوة الزنى واعترف بحقها في الحكم . ولم يكن بها ميل شديد إلى هذا . فإن آلافا من الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة في عهد هنري الثامن وادوارد السادس . وكان هؤلاء الملاك ذوو النفوذ يفتشون العودة إلى الكاثوليكية . ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها . ولذلك كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية ، كما أن الكاثوليك في إنجلترا آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية . وفي ١٥ يناير ١٥٥٩ ، وسط هتافات لندن

البروتستانتية ، توجت إليزابيث في كنيسة وستمنستر « ملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلنده ، وحامية للعقيدة » . ذلك أن ملوك إنجلترا منذ عهد ادوارد الثامن طالبوا ، بانتظام ، بحقهم في عرش فرنسا ، لأنهم لم يقصروا في شيء يثقل كاهل الملكة بالمتاعب .

إن إليزابيث الآن في سن الخامسة والعشرين ، وفيها كل الفطنة التي تقتدر بنضج الأنوثة . وكانت متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسمات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وعينين وضاعتين ، وشعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، ويدين جميلتين عرفت كيف تظهرهما للعيان^(٣) . ويدا ضربا من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من أن تواجه بنجاح الفوضى التي تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة أوصال البلاد ، جريا وراء السلطة ، مستخدمة السلاح ، وكان الفقر المدقع داء متوطنا ، وكان التشرذم قد بقى على حاله بعد العقوبات الرهيبة التي فرضها عليه هنري الثامن . وعوقت العملة الزائفة سير التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهذا أثره في هبوط رصيد الخزنة ، مما جعل الحكومة تدفع ١٤٪ فائدة على القروض ، واستغرقت العقيدة الدينية كل تفكير ماري تيودور . إلى حد أنها لم تول شئون الدفاع الوطني أية عناية ، وقبضت يديها عنه ، فأهملت الحصون وبقيت الشواطئ دون حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ، وساءت رواتب الجيش وطعامه ، وشغرت الوظائف فيه . وباتت إنجلترا - التي كانت أيام ولزي تحتفظ بميزان القوى في أوروبا - باتت الآن كسيح سياسي مشلول يتقاذفه كل من أسبانيا وفرنسا . ودخلت الجيوش الفرنسية إلى اسكتلندة ، وكانت إيرلنده توجه الدعوة إلى أسبانيا . وكان الحرمان من الكنيسة - حرمانا مطلقا أو جزئيا - سيفا مصلتا على رأس الملكة يهددها به البابا ، كما كان يهددها بغزو الدول الكاثوليكية لبلادها . وبدأ الغزو وشيكا قطعا في ١٥٥٩ . وكان الخوف من القتل يساورها دوما ، ولم ينقذها إلا ديبب الشقاق بين أعدائها ، وحكمة مستشاريها ، وشجاعة روحها . ولقد صعد السفير الأسباني^٢ بروح المرأة أن بين جنبيها شيطانا يتملكها ، ويقودها حيث يريد^(٤) . ولم تكن أوروبا تحسب أنها ستجد روح إمبراطور وراء ابتسامات فتاة .

٢ - حكومة اليزابث

برزت قدرة إيزابث على التمييز وحسدة ذهنها ، على الفور ، فى اختيار معاونيها . انها مثل أبها الذى كان يستعد دوما للمعركة . وعلى الرغم من خطابها السياسى فى هاتفيلد ، اختارت رجالا ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم ، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك ، وحسب بعضهم أنهم أصلح منها لتولى العرش . فعينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أولا لها ، وهو الذى أصبحت عبقريته فى انتهاج سياسة حكيمة وفى الملاطفة وتدبر الأمور عاملا بارزا فى نجاحها ، إلى حد خيل معه إلى الذين لا يعرفون الملكة ، أنه هو الملك . وكان جده من صغار الأعيان الميسورين ، ثم أصبح سيدا من سادة الريف ، وكان أبوه موظفا فى خزان الملبس فى قصر هنرى الثامن وهيا صديق أمه للأسرة ضيعة مناسبة . وترك وليم جامعة كمبرج دون الحصول على درجة جامعية ، ودرس القانون فى Oray's Inn (أحد أجهزة العدل التى تمنح أجازة الاشتغال بالقانون فى لندن) . وقضى شبابه الداعر يعيش فسادا فى مواخير لندن^(٥) . ودخل مجلس العموم فى سن الثالثة والعشرين (١٥٤٣) . وتزوج زوجته الثانية ملدرد كوك Mildred Cooke . وقد ساعدته بيوريتانيته القاسية على التزامه المذهب البروتستانى والتمسك به . وخادم الوصى « سومرست » ثم غريمه نورثمبرلند . وأيدليدى جين جراى لتخلف ادوارد السابع ، ثم تحول فى اللحظة الحاسمة إلى مارى تيودور ، وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ، وندبته للترحيب بتقديم الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان رجل عمل ومصلحة ، لا يسمح لتقلباته الانحزبية أن تخل بتوازنه السياسى . وعند ما عينته اليزابث سكرتيرا لها تحدثت : بنظنهم المألوفة . إليه قائلة : -

« لقد عهدت إليك بهذه المسهة . وهى أن تكون من بين أعضاء مجلس شورى الملكة . وترضى أن تبذل أقصى الجهد من أجل ومن أجل مملكتى . وانى لآنس فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ، وأنت ستكون مخلصا للدولة ، وأنت ستمحضنى ما ترى أنه خير الرأى والنصيحة ، دون اعتبار لإرادتى الخاصة ،

وأنتك إذا رأيت أن ثمة شيئا ضروريا يجب إبلاغى إياه سرا فستفضى به إلى وحدى ، وتأكد أنى لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن ثم فانى أعهد إليك بهذه المهمة (٦) .

واحتفظت به سكرتيرا لمدة أربعة عشر عاما ، كانت بمثابة امتحان لأمانته وكفايته ، عينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى ، حتى وفاته . ولقد رأس مجلس شورى الملكة ، وأدار دفة العلاقات الخارجية ، والشئون المالية العامة والدفاع الوطنى ، وقاد خطى الزابث فى تدعيم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا . انه ، مثل ريشيليو ، اعتبر أن سلامة بلاده واستقرارها يتطلبان الحكم الملكى المطلق الذى يعمل على التوحيد ، فى مواجهة النبلاء المتناحرين والتجار الجشعين ، والعقائد التى يحاول بعضها القضاء على بعض ، وكل أولئك يعمل على التفريق والتمزيق . واتبع بعض أساليب مكيافلى ، وقليل ما كان قاسيا ، ولكنه أخذ المعارضة بلا رحمة وبلا هوادة (٧) ، وفكر مرة فى قتل ارل وستمورلند (٨) ، وكان ذلك فى لحظة نفذ فيها الصبر ، حانت فى نصف قرن من التشبث الصابر والاستقامة الشخصية . وكان له عيون وجواسيس على كل شىء ولكن اليقظة الباطنية هى ثمن السلطة والقوة . وكان حذرا متصديدا مولعا بالكسب ، ولكن الزابث غفرت له ثراه لقاء حكمته ، وأجبت فيه لتقدير الذى أعد الوسائل لقهر الأرمادا ، ولولاه لكان من المحتمل أن تضللها المظاهر البراقة والمغرورون المبذرون مثل ليستر وهاتون واسكس . وقال السفير الأسباني فى تقرير له : « إن ذكاء سيسل يفوق كل ذكاء سائر أعضاء المجلس مجتمعين ، ومن ثم فهو موضع حسد الجميع وكراهيتهم » (٩) . وأصغت الزابث أحيانا إلى ما يقوله عنه أعداؤه ، فعاملته من حين لآخر فى خشونة وجفوة إلى حد أنه كان يخرج من حضرتها محطما باكيا ، حتى إذا هدأت سورة غضبها أدركت أنه أثبت دعامة للملكها . وفى ١٥٧١ عينته « لورد برجلى » Burghley ، أى زعيم الارستقراطية الجديدة التى وقفت فى وجه النبلاء المعادين . فدعمت عرشها ورفعت من شأن مملكته .

ويستحق صغار معاونيها أن نلم بهم فى بضعة سطور فى هذه العجالة التاريخية . لأنهم خدموها بكفاية وشجاعة ، ولم يجزوا الجزاء الأوفى ، حتى أفنوا حياتهم فى

خدمتها . منهم سير نيقولا بيكون — والد فرنسيس بيكون — وكان حامل الخاتم الملكي منذ بداية حكم اليزابث حتى وفاته ١٥٧٩ . وسير فرانسيس نوليس Knollys الذى كان عضوا فى مجلس شورى الملكة منذ ١٥٥٨ ، ورئيسا للخاصة الملكية حتى وفاته (١٥٩٦) ، كما كان سير نيقولا ثروكمورتون Throckmorton سفيرها البارز فى فرنسا ، وتوماس رندولف سفيرها فى اسكتلنده وروسيا وألمانيا ، وكان فى المرتبة الثانية ، بعد سيسل ، من حيث الاخلاص والدهاء ، وسير فرنسيس ولسنبام الذى تولى منصب الوزارة من ١٥٧٣ حتى وافته المنية (١٥٩٠) ، وكان رجلا دمثا مرهف الحس ، قال عنه سبنسر « إنه ماسيناس(*) العظيم فى عصره » ، روعته المؤامرات المتكررة على حياة الملكة حتى أنه أقام لحمايتها شبكة من الجاسوسية ، امتدت من ادنبره إلى القسطنطينية ، وأوقعت فى شراكها ملكة اسكتلنده المنكوبة الحظ . وقلما حظى حاكم بمعاونين على مثل هذا القدر من الكفاية والقدره والولاء ، مع هذا القدر من الرواتب الضئيلة التى كانوا يتقاضونها .

وكانت الحكومة الإنجليزية نفسها فقيرة . وزادت الثروات الخاصة على الاعتمادات العامة . وبلغ مجموع الدخل ٥٠٠.٠٠٠ (١٠) جنيه فى ١٦٠٠ ، وهو ما يعادل المبلغ النافه ٢٥ مليون دولار . وقلما فرضت اليزابث ضرائب مباشرة ، ولم تحصل من الرسوم الجمركية إلا على ٣٦.٠٠٠ جنيه ، واعتمدت عادة على دخل ممتلكات التاج ، وعلى منح من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى قروض من الأغنياء ، كانت من الوجهة العملية إجبارية ، ولكنها كانت تسدد بانتظام (١١) . وأقرت الديون التى خلفها أبوها وأخوها وأختها ، وتمتعت بسمعة طيبة فى الوفاء بالدين إلى حد أنها استطاعت أن تحصل على القروض من أنتورب بفائدة قدرها ٥٪ على حين أن فيليب الثانى ملك أسبانيا لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقترض قط ، وكانت الملكة مسرفة ، على أية حال ، فى الانفاق على ملابسها وحليها ، وفى المزايا الاقتصادية التى تغدقها على ذوى الخطوة لديها .

(*) Moeceuas أحد رجال الدولة الرومان ، فى القرن الأول ق . م . كان صديقا لهوراس ولرجيل ، وكان كريما راعيا للأدب .

وقل أن دعت اليزابث البرلمان ، وعلى مضض منها ، لمساعدتها من الناحية المالية ، لأنها لم تكن تطبق المعارضة أو النقد أو المراقبة ، ولم تؤمن قط بنظريات سيادة الشعب أو البرلمان . وآمنت مع هومبروس وشكسبير بأن رأسا واحدا هو الذى يجب أن يتولى الحكم - ولم لا يكون رأسها هى ، الذى جرى فيه دم هنرى الثامن وتألقت كبرياؤه ؟ وتمسكت بحقوق الملوك والملكات الآلهية . وأودعت بعض الأفراد السجن بمحض إرادتها هى دون محاكمة ، أو سبب واضح ، وكان مجلس الشورى الذى ينعقد على هيئة محكمة عليا لمحاكمة المجرمين السياسيين ، يعطل ، دون استثناء ، حقوقهم فى المعارضة وفى قانونية حبسهم ، أوفى محاكمتهم أمام المحلفين^(١٢) . وعاقبت أعضاء البرلمان الذين اعترضوا سبيلها فى تحقيق أهدافها . وأوحت إلى الأقطاب المحليين الذين يديرون شئون الانتخابات النيابية ويؤثرون فيها ، أنه مما ييسر الأمور أن يختاروا مرشحين ليس لديهم نزعات صهيانية فى حرية الكلام ، لأنها طمعت فى الحصول على المال دون أن يناقشها أحد الحساب ! واستسلمت برلماناتها الأولى إلى هذا الوضع بلباقة ، وخضعت البرلمانات غاضبة فى أواسط عهدها ، أما بعد ذلك فقد قاربت البرلمانات أن تثور .

وتغابت إرادتها لأن الأمة آثرت حكمها المطلق الحكيم على عنف الأحزاب التى تتنافس على السلطة ، ولم يفكر أحد فى أن يدع الشعب يحكم ، وكانت السياسة - وهى كذلك دائما - صراعا بين الأقليات ، على أيها يحكم الأغلبية . واستاء نصف إنجلترا من سياسة اليزابث الدينية ، واغتازت كل إنجلترا تقريبا من عزوبتها ، ولكن الناس فى جملتهم ، وهم يحمدون الضرائب المنخفضة والتجارة المزدهرة ، والنظام فى الداخل ، والسلام الذى طال أمده ، بادلوا الملكة حبا بحب . لقد أقامت لهم المهرجانات ، وقامت بجولات ملكية بينهم ، واستمعت إليهم دون أن يظهر عليها أى امتعاض ، وشاركتهم ألعابهم العامة ، وبمائة أسلوب آخر تصيدت قلوب الناس^(١٣) . « وكتب السفير الأسباني ، وهو يذوب حسرة على اعتناقها البروتستانتية ، إلى الملك فيليب يقول : « أنها أشد التصاقا بالأهالى ، وهى على ثقة من أنهم جميعا إلى جانبها ، وهذا هو الحق بعينه^(١٤) » . وزادت المحاولات

التي بذلت للقضاء على حياتها من شعبيتها وسلطانها ، حتى أن البيوريتانيين الذين اضطهدتهم دعوا لها بالسلامة ، وأصبحت الذكرى السنوية لارتقاها العرش عيداً قومياً للشكر وإقامة الاحتفالات .

وهل كانت اليزابث هي الحاكم الفعلي ، أو مجرد واجهة محبوبة للطبقة الدنيا من النبلاء في إنجلترا ، والأقلية التجارية في لندن ؟ وكثيراً ما صحح معاونوها أخطاء سياستها ، على الرغم من خوفهم من انفعالها ، ولكنها بدورها ، كثيراً ما صححت أخطاءهم كذلك . لقد أبلغوها حقائق مرة ، وزودوها بنصائحهم المعارضة لرأيها ، وامثلوا لقراراتها ، انهم حكموا ولكنها ملكت . وقال السفير الأسباني : « إنها تصدر الأوامر ، وتفعل ما تريد ، تماماً كما كان يفعل أبوها (١٥) » . وقبلما أدرك سيسل نفسه ماذا اعتزمت أن تفعل ، واضطرب واغتاز من رفضها المتكرر لمشورته التي وصل إليها بعد جهد شاق وتمحيص دقيق . وعندما حثها على عدم التفاوض مع فرنسا ، والاعتماد فقط على تأييد البروتستانت ، انتهرته في قسوة وحدة « أيها السكرتير ، أفهم أني انتهيت من هذا الموضوع ، ولسوف استمع إلى مقترحات ملك فرنسا ، ولن أكون بعد اليوم مربوطة إليك وإلى اخوتك في المسيحية (١٦) » .

ودفعت تصرفاتها في شؤون الدولة الأصدقاء والأعداء إلى البسكاء ، على حد سواء . فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير ، في البت في الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة في أحوال كثيرة ، لقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذي يحل من المشاكل أكثر مما يحل الرجال ، وكم هيأ تسويقها في البت ، للعوامل المعقدة في موقف ما ، أن تستقر وتركز وتتضح . لقد أعجبت بالفيلسوف الأسطوري الذي ألحوا عليه في طلب الجواب ، فتلا حروف الهجاء في صمت قبل الادلاء به . واتخذت شعاراً لها : « اني أرى وأنا صامت » . واكتشفت أنه في السياسة كما في الحب ، من لم يتردد يضيع نفسه . وإذا تذبذبت سياستها في غالب الأحيان ، فهذا هو شأن الحقائق والقوى التي يعمل حسابها . ولما كانت محاطة بالأخطار والدسائس ، فإنها تحسست طريقها في حذر موسوم بالتسامح والصفح ، محاولة آناً سبيلاً آخر ، فهي لا تدعى الثبات في عالم مائع . وتعرض ترددها في بعض أخطاء جسيمة ، ولكنها

احتفظت بانجلترا في سلام حتى بلغت من القوة ما تستطيع معه أن تحارب . ولما كانت قد ورثت أمة تشيع فيها القوضى من الناحية السياسية ، مناهرة من الناحية العسكرية ، فقد كانت السياسة الوحيدة التي يمكن انتهاجها هي الحيلولة دون اتحاد أعدائها ضدها ، وتشجيع ثورة الهيجونوت ضد ملك فرنسا ، وثورة الأراضي الوطنية ضد أسبانيا ، وثورة البروتستانت ضد ملكة اسكتلنده الوثيقة الصلة بفرنسا . لقد كانت هذه سياسة مجردة من المبادئ الأخلاقية ، ولكن اليزابث آمنت مع مكيافللي بأن الوسوس لا تلتئم مع الحكام المسؤولين عن الدول . ومهما يكن من أمر فإن ضعفها الموسوم بالحدق والدهاء يشير إلى أنها حافظت على بلادها من السيطرة الأجنبية ، وحافظت على السلام لمدة ثلاثين عاما - باستثناء فترات قصيرة ، وتركت لإنجلترا أغنى مما كانت عليه في أي وقت مضى ، ماديا وفكريا .

واستطاعت اليزابث الدبلوماسية ، أن تلقن وزراء الخارجية في زمانها ، دروسا في الإعلام النشط السريع والوسائل اللبقة الماكرة والخطوات الكثيرة التي لا يمكن التنبؤ بها . وكانت أقدر أهل زمانها على الكذب . ومن بين النساء الأربع - ماري تيو دور ، ماري ستيوارت ، كاترين دي مديتشي واليزابث - اللاتي ضربهن نوكس Knox مثلا على « حكم النساء الرهيب » في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، تفوقت اليزابث عليهن بلا منازع في الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وذهب سيسل إلى أنها « أعقل امرأة وجدت ، لأنها فهمت ميول كل أمير في زمانها وما يولع به وما يستهويه . وكانت على علم تام بمملكتهما إلى حد أن أيا من مستشاريها لم يكن لينبئها بشيء لم تكن تعرفه من قبل (١٧) . وهذا بطبيعة الحال يتطلب الرقية من الحسد ببعض حصوات من الملح ، وتمتعت الملكة بميزة التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، ومن ثم كانت في غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء . ويقول السفير الأسباني : « ان هذه المرأة يملكها مائة ألف شيطان ، ولكنها مع ذلك تزعم لي أنها تحب أن تكون راهبة ، تعيش في صومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل (١٨) » ، لقد أدانتها كل حكومة في قارة أوروبا ، وفي نفس الوقت أعجبت بها وقال عنها البابا سكستس السادس : « لو لم تكن زنديقة لكانت تساوي عالما بأسره (١٩) » .

٣ — العذراء العاشقة

كانت عذرية اليزابث هي السلاح الخفي في دبلوماسيتها . وهذا بطبيعة الحال تفصيل ثانوى عويص يجدر بالمؤرخين ألا يزعموا التيقن منه ، أو لنكن نزاعين إلى الثقة ، مثل سير والترالى حين يطلق الاسم على مستعمرة ويعينها بلداتها . ولقد ساورت سيسل بعض شكوك عابرة عندما لاحظ عبث اليزابث الطويل الأمد مع لستر ومغازلتها . ولكن سفيرين أسبانيين لا يتورعان ولا يجدان حرجا في تشويه سمعة الملكة ، انتهيا إلى أنها شريفة (٢٠) . وذكرت الاشاعات التى انتشرت في البلاط — كما رواها بن جونسون لدروموند هوثورندن — « أن فيها غشاء يجعلها غير أهل لمعاشرة الرجال ، ولو أنها حاولت مع كثير منهم لمجرد اللهو والمرح . . . » وأخذ جراح فرنسى على عاتقه أن يستأصلة ، ولكن الخوف منعها من ذلك (٢١) . وكتب كاندن في حويلياته ١٦١٥ : « صب الناس اللعنات على هويك Huic طبيب الملكة لأنه ثبت همتها في الزواج بسبب عائق وعاهة فيها (٢٢) » . غير أن البرلمان الذى توسل إليها مرارا لتتزوج ، افترض قدرتها على الحمل ، ولقد منى معظم ملوك آل تيودور بالانخفاق في هذه الناحية : فيحتمل أن تكون مصائب كاترين أوف أراجون في الولادة ترجع إلى داء الزهرى الذى أصيب به هنرى الثامن ، ومات ابنه ادوارد في سن الشباب نتيجة علة كريهة الوصف . وحاولت ابنته ماري محاولة شديدة أن يكون لها طفل ، وكل ما حدث أنها ظنت خطأ أن داء الاستسقاء حمل ، وعبثت اليزابث ماشاءت ، ولكنها لم تجرؤ على الزواج ، وقالت : « لقد كنت أنفر منه دائما » . وأعلنت منذ ١٥٥٩ عزمها على أن تبقى عذراء (٢٣) . وفي ١٥٦٦ وعدت البرلمان : « سوف أتزوج حالما أرى الوقت مناسبا . . . وآمل أن يكون لي أطفال (٢٤) » . ولكن في نفس العام ، عندما أنبأها سيسل أن ماري ستيوارت أنجبت طفلا ، كادت اليزابث تذرف الدمع وقالت : « ان ملكة الاسكتلنديين أم لابن جميل ، أما أنا فلست إلا أرضا مجربة (٢٥) » . وهنا ولفترة وجيزة ، كشفت عن حزنها المقيم — لأنها لم تستطع أن تحقق أنوثتها .

وزادت التورطات السياسية في عمق المأساة . وأعتقد كثير من رعاياها الكاثوليك أن عقمها ليس إلا عقابا وفاقا على خطايا والدها ، ووعد بأن ماري الكاثوليكية سوف ترث العرش . ولكن البرلمان وسائر إنجلترا البروتستانتية كانوا يوجسون خيفة من هذه التوقعات ، وألحوا عليها في أن تجد لها زوجا . ولقد حاولت ، ولكنها بدأت بأن شغفت حبا برجل متزوج ، هو لورد روبرت ددلي وهو رجل مديد القامة وسيم كيس مصقول شجاع ، وهو ابن دوق نورثمبرلند الذي كان قد لقي حتفه على جبل المشنقة لمحاولة ابعاد ماري تيودور عن وراثة العرش لتجلس عليه جين جراي . وتزوج ددلي من آمي روبسار Amy Robsart ولكنه لم يكن يقيم معها . وراجت الإشاعات بأنه عابث خليع لاخلاق له . وكان جمعية اليزابث في وندسور ، عند ما سقطت زوجته من على درج السلم في Cumnor Hall فدق عنقها وقضت نجها (١٥٦٠) . وحامت الشبهات عند السفير الأسباني وآخرين غيره بأن ددلي والمملكة دبرا هذه الميته الشنيعة . وكانت الريب ظالمة (٢٦) . ولكنها قضت ، لبعض الوقت ، على آمال ددلي في أن يصبح زوجا لاليزابث . ولما ذهب بها الظن إلى أنها ستقضى نجها (١٥٦٢) توسلت أن يعين ددلي وصيا على المملكة ، واعترفت بأنها أحبه منذ زمن طويل ، ولكنها أشهدت الله : على أنهما لم يرتكبا عملا غير لائق (٢٧) . وبعد عامين قدمته إلى ملكة اسكتلنده ، وخلعت عليه لقب « ارل لستر » ، لتزيد من مفاته ، ولكن ماري كرهت أن يشاركها عشيق غريمها فراشها فواسته اليزابث وهدأت من روعه بما أغدقت عليه من احتكارات ، وكان موضع عطفها ورعايتها حتى مات (١٥٨٨) .

واحتمل سيسل هذه الإشاعة في اشمزاز وقور ، وفكر لبعض الوقت في الاستقالة من منصبه احتجاجا ، فقد اتجه تفكيره الخاص إلى زواج يعسل على تقوية إنجلترا ، بعقد أواصر الصداقة مع دولة قوية . ولمدة ربع قرن من الزمان حوم حول الملكة نفر عديد من الأجانب يطلبون يدها . وكتب أحد السفراء : « هناك اثني عشر سفيرا ينافس بعضهم بعضا في طلب يد جلالها ، ولسوف يأتي بعد ذلك دوق هولشتين ليطلب يدها الملك الدنمرك . وهنا دوق فنلنده الذي جاء رسولا عن أخيه ملك السويد ،

وهو يهدد بتتل مبعوث الإمبراطور ، ولشد ما تخشى الملكة أن يقطع كل منهم رقبة الآخر في حضرته^(٢٨) . ولا بد أنها أحست بشيء من الرضا حين قدم لها فيليب الثاني ، وهو أعظم عاهل في العالم المسيحي يده المكنكة (١٥٥٩) ، ولكنها رفضت هذه الحيلة لتحويل لإنجلترا إلى ولاية كاثوليكية تابعة لأسبانيا . وتمهلت طويلا في الرد على اقتراح من شارل التاسع ملك فرنسا ،

كانت آنذاك تسلك سلوكا محمودا . وشكا السفير الفرنسي « من أن الدنيا خلقت في ستة أيام ، وأن الملكة قضت حتى الآن ثمانين يوما ، ولا تزال مترددة » . فأجابت هي جوابا بارعا ما كرا بأن الدنيا « خلقتها من هو أعظم منها^(٢٩) » . وبعد عامين أوعزت لوكلاء إنجلترا أن يقترحوا زواجها من شارل أرشيدوق النمسا ، ولكنها بتحريض من ليستر تخلت عن هذه الفكرة . ولما كان الموقف الدولي يقتضى مسaire فرنسا (١٥٧٠) ، فقد تشجع دوق ألسون (ابن هنرى الثانى من كترين دى مديتشى) على التفكير فى أن يصبح زوجا فى السادسة والعشرين للملكة فى السابعة والثلاثين ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب ثلاث عقبات — مذهبه الكاثوليكي ، وشبابه غير الناضج وندوب فى أنفه . وانقضت خمس سنوات ذلت فيها إحدى هذه العقبات ، واتجه التفكير مرة أخرى إلى ألسون الذى أصبح الآن دوق أنجو ، ودعى إلى لندن ، ولمدة خمس سنوات أخرى غررت اليزابث به وبفرنسا ، وعقب فترة أخيرة (١٥٨١) تلاشت هذه المغازلة المرحية ، وانسحب دوق أنجو من الميدان ، وهو يلوح برباط لجورب الملكة تذكارا لهذه الواقعة ، وكانت الملكة فى نفس الوقت قد منعت من الزواج من ابنة ملك أسبانيا ، ومن ثم حالت دون تحالف عدوتها فرنسا وأسبانيا . وقل أن غنمت امرأة مثل هذا الغنم من عقمها ، أو نعمت بمثل هذا اللهو والسرور من عذريتها .

٤ - اليزابث وحاشيتها

وجدت الملكة فى تودد هذه الزمرة من رجال عصرها النشيطين المكنمين رجولة وقوة إليها وملاطفهم إياها — نقول وجدت ارتياحا ورضا أكثر مما هو فى

مضاجعة شاب مريض بالزهرى مثلا . وان المغازلة لتبقى ما لم يقض عليها الزواج ، ومن ثم تلذذت اليزابث بالزلفى والملق والتودد طوال الوقت واستطابت ذلك كله فى نهم لا يشبع . وجر اللوردات الخراب على أنفسهم فى سبيل الاحتفاء بها وتسليتها ، وعبروا بالموكب والمهرجانات ومظاهر الآهة والمسرحيات التنكرية عن عظمة الملكة ومجدها ، وأغرقها الشعراء بقصائدهم واهداءاتهم ، وداعب الموسيقيون أوتار آلاتهم شدوا بمدحها . ولقد تغنت قصيدة غزلية بعينها على أنهما كرتان ملكيتان تأسران الناظر إليهما وتقهرانه ، وصدرها على أنه « أكمة جميلة تكمن فيها الفضيلة والبراعة القدسية »^(٣٠) وقال لها رالى إنها تحكى فى مشيتها فينوس ، وفى صيدها ديانا ، وفى ركوبها الخيل الأسكندر ، وفى غنائها ملاكا ، وفى لعبها أورفيوس^(٣١) . وكادت اليزابث تصدق هذا . وكانت مزهوة ، وكأن كل مزايا إنجلترا وفضائلها لم تكن إلا الثمار المباركة لأومتها ، وهذا حق إلى درجة ما . ولما كانت ترتاب فى مفاتن جسمها ، فقد لجأت إلى ارتداء أثمن الثياب التى تغيرها كل يوم تقريبا ، حتى لقد تركت عند موتها ألفى ثوب . وقد تحلت بالمجوهرات فى شعرها وذراعيها ومعصمها وأذنيها وأثوابها ، وإذا ما استنكر أحد الأساقفة حبها للمجوهرات ، بعثت إليه بمن ينذره بالأى طرق هذا الموضوع ثانية ، وإلا لقي ربه قبل الأوان^(٣٢) .

وقد يكون سلوكها وعاداتها مفرعة . فقد صفت رجال حاشيتها أو لاطفتهم وداعبتهم ، بل حتى المبعوثين الأجانب . ولقد وخزت رقبة ددلى من الخلف حين انحنى ليتسلم براءة لقب ارل^(*) ، وبصقت أنى شئت - وذات مرة على معطف ثمين . وكانت عادة أليفة يسهل الوصول إليها . ولكنها تحدثت بلسان ذرب ، وربما غدت سليطة لا يمكن الرد عليها ، وأقسمت كما يقسم القرصان (وكانت كذلك بالوكالة) وكان من أخف الأيمان التى تقسم بها « بحق وفاة الرب » . وكان فى مقدورها أن تكون قاسية ، كما هو الحال فى لعبة القبط والفار ، التى لعبتها مع مارى ستيوارت ،

(*) يروى أدري قصة سمجة : « ان ادوارد دى فر de Vere ارل أكسفورد ، وهو ينحى اجلالا للملكة اليزابث خرجت منه ربيع ففعل وشعر بالمار . وغادر البلاد لمدة سبع سنين دأبا ، فلما عاد رجبت الملكة بمودته إلى الوطن وقالت سيدى اللورد ، لقد نسيت الربيع^(٣٣) .

أو في ترك ليدي كاترين جرای تدبل وتهن حتى الموت في « برج لندن » . ولكنها كانت أساسا عطوفة رحيمة ، وخالطت بين رقها وضرباتها . وكثيرا ما ثارت وفقدت صوابها ، ولكن سرعان ما استعادت ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب . وكانت تنفجر ضاحكة إذا تسلت ، وكثيرا ما حدث ذلك . وأولعت بالرقص فرقصت على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين وكانت تثب وتغامر وتضطاد . كما أحببت المسرحيات والحفلات التنكرية ، واحتفظت بروح معنوية عالية حتى حين هبطت مواردها .

وكانت غاية في الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر . وكانت معتدلة في طعامها وشرابها ، شرة في المال والمجوهرات ، وكانت تجد لذة كبيرة في مصادرة ممتلكات العصابة الأثرياء ، ودبرت أن تحصل على مجوهرات التاج في اسكتلنده وبرجندي والبرتغال وتقتنيها ، بالإضافة إلى ذخيرة من الحواهر والأحجار الكريمة أهدها إليها اللوردات المرتقبون نفعا أو المرشحون للمناصب ، ولم تشتهر بعرفان الجميل ولا بالسخاء ، وحاولت في بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلا من النقود ، وقد كان ثمة شيء من حب الوطن في تقديرها وكبريائها على السواء . وعند ما تولت العرش ، لم تكذب توجد أمة بلغت من الفقر حدا تنظر معه إلى إنجلترا بعين الاجلال والتقدير ، أما عند مماتها فقد كانت لإنجلترا السيادة على البحار . كما كانت تتحدى سيطرة إيطاليا وفرنسا في مجال الفكر والعقل .

وأى نوع من العقل كان لهذه المرأة ؟ لقد حصلت من التعليم على القادر الذى يمكن أن تحصل عليه ملكة دون عناء ، وقد استمرت أثناء حكمها في دراسة اللغات . وتبادلت الرسائل بالفرنسية مع ماري ستوارت ، وتحدثت بالإيطالية مع أحد سفراء البندقية ، ووبخت مبعوثا بولنديا بلغة لاتينية قوية . وترجمت سالوست Sallust وبوئوس Boethius ، وألمت بقدر من اليونانية يكفى لقراءة سوفوكليس وترجمة إحدى مسرحيات يوريبديدس . وزعمت أنها قرأت من الكتب عدد ما قرأ أى أمير في العالم المسيحى ، والأرجح أن يكون الأمر كذلك . ودرست التاريخ كل يوم تقريبا ، ونظمت الشعر وألفت الموسيقى ، وعزفت ، مع شيء من التسامح ، على العود والعذراوية (آلة موسيقية تشبه البيان الصغير بدون قوائم) ، ولكن كاد

عندها من الادراك ما تسخر به من منجزاتها ، وتميز به بين التعليم والذكاء . وإذا ما أطرى سفير معرفتها باللغات ردت عليه قائلة : « ليس غريبا أن تعلم امرأة أن تتكلم ، بل الأصعب منه كثيرا أن تعلمها كيف تكف عن الكلام » (٣٤) . وكان ذهنها حادا قدر حدة كلامها وكان ذكاؤها يجارى الزمن ولا يتخلف عنه . وقال فرنسيس بيكون : « لأنه كان من عاداتها أن تقول عن توجيهاتها لكبار موظفيها لأنها مثل الثياب ، تكون محكمة محبوكة لأول مرة يلبسها الإنسان ، ولكنها تصبح يوما بعد يوم فضفاضة » (٣٥) وكانت رسائلها وخطبها بلغة إنجليزية من إنشائها وحدها : معقدة ملتوية متكلفة ، ولكنها زاخرة بالصيغ الغريبة ، ساحرة في فصاحتها وأسلوبها .

وتحلت الزباث بالذكاء أكثر منها يسداد الرأى . قال عنها ولسنهام : « انها غير صالحة لمعالجة أى موضوع له وزنه » (٣٦) . ولكنه ربما تحدث في مرارة التفانى الذى لم يلق جزاءه . لقد كمنت براعتها فى الرقة الأنثوية ودقة الادراك الحسى ، لا فى المنطق المرهر . وفى بعض الأحيان كشفت نتيجة هذا كله عن حكمة أكبر فى تصرفاتها الماكرة منها فى تحليلها لها ، انها روحها التى يتعذر تحديدها أو تعريفها هى التى يعتد بها ، وهى التى حيرت أوربا وسحرت إنجلترا ، وأمدت بلادها بالقوة والقدرة على الازدهار والنمو . وأعادت الزباث بناء الاصلاح الدينى من جديد ، ولكنها مثلت عصر النهضة - التلهف على أن يحيا الإنسان هذه الحياة الدنيا إلى أبعد مدى ، ينعم بها ويزينها كل يوم . ولم تكن نموذجا للفضيلة ، ولكن كانت مثالا للحبوية والنشاط . ان سيرجون هايوارد الذى كانت قد زجت به فى السجن لتزويده اسكس الأصغر ببعض الأفكار الثورية ، غفر لها ذلك فكتب عنها ، بعد تسع سنوات من مكافأتها إياه (بالادراج عنه) - كتب يقول : -

إذا كان ثمة إنسان أوتى من الموهبة أو الأسلوب ما يستطيع أن يكسب به قلوب الناس ، فهو هذه الملكة . وإذا أظهرت شيئا مثل هذا يوما ، فقد ظهر فى أنها تجمع بين اللطيف والحلال كما كانت تفعل : وفى تواضعها الموسوم بالفخامة حتى مع أقل الناس شأنًا . وكانت كل قدراتها فى حركة دائبة ، وبدت وكأن كل حركة بمثابة

عمل موجه أحسن توجيه . فقد تكون عيناها عالقتين بشخص ما ، على حين أرهفت أذنيها لآخر وأصدرت أمرا لشخص ثالث ، ووجهت حديثها لرابع ، وكأنما روحها تحوم في كل مكان ، ومع ذلك تبدو منطوية على نفسها وكأنها غير موجودة في أى مكان آخر . وكانت ترى لبعض الناس ، وتطرى آخرين ، وتقدم الشكر لغيرهم ، وتداعب فريقا آخر في سرور وبخرية ، دون أن تزدري أحدا ، أو تغفل واجبا ، وكانت توزع ابتساماتها ونظراتها ولفتها بقدر من الدهاء والفطنة يضاعف معه الناس من مظاهر اغتباطهم وابتهاجهم (٢٧) .

وتطبعت حاشيتها بطباعها - يحبون ما تحب ، ويقوون من ميلها إلى الموسيقى والروايات والعبارات المشرقة ، ويرقون به إلى نشوة القصيد والغزليات والتمثيلات وحفلات الرقص ، والنثر الذى لم تشهد لإنجلترا مثيلا له فيما بعد . وفي قصورها - هويتها ، وند سور ، جرينتش ، رتشموند ، هامبتون كورت ، تنقل اللوردات والسيدات والفرسان والسفراء والمغنون والخدم والحشم بين ألوان عدة من المراسم الملكية والمرح الأنيق . وكان ثمة دائرة خاصة تعد ألوان التسلية لإبتداء بالاحاجى والثرى إلى حلقات الرقص الصاخبة وروايات شكسبير ، وأقيمت الاحتفالات بانتظام في عيد الصعود وعيد الميلاد وعيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة ، وكاندلماس (عند العذراء) ، وشروفتيد (عيد قبل الصوم الكبير) ، وزخرت بألوان الملاهى والتسلية ، والمباريات الرياضية ، والمقارعة بالسيوف ، والتمثيل التنكرى والمسرحيات وحفلات الرقص . وكانت الحفلات التنكرية شيئا من الأشياء الكثيرة التى استوردت من إيطاليا إلى إنجلترا في عهد الزابث ، وكانت خليطا براقا من المهرجانات والشعر ، والموسيقى والقصص الرمزية والتهريج والباله ، ضمها بعضها إلى بعض الروائيون والفنانون ، وكانت تقدم في البلاط أوفى ضياع الأثرياء ، بأجهزة ووسائل وحركات معقدة ، تؤديها سيدات ورجال متنكرون يرتدون أغلى الثياب في تصميم بسيط ، وكانت الزابث مولعة بالتمثيلات ، وبخاصة الهزلية منها . ومن يدرى كم من روايات شكسبير كان يصل إلى المسرح أو إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، لو لم تقف الملكة وليستر إلى جانب

المسرح وتدعمانه ضد كل الهجمات التي شنّها عليه البيوريتانز .

ولم تقنع الزباث بقصورها الخمسة ، فانطلقت كل صيف تقريبا في جولات تجوب البلاد ، لترى الناس ويروها وتراقب اللوردات التابعين وتستمتع بما يبذلون لها من اجلال وتكريم كاردين . وكان يتبعها بعض رجال البلاط ، فرحين بالتغيير ، متذمرين لعدم توفر وسائل الراحة والبيرة . وارتدى أدا الى المدن ثيابا من القطيفة والحريير ليرحبوا بها بالخطب والهدايا ، وكم أفلس النبلاء في سبيل الاحفاء بها ، وابتهل اللوردات المعسرون إلى الله ألا تعرج عليهم . وامتطت الملكة في جولاتها صهوة جواد أو تنقلت في محفة مكشوفة ، تحي في فرح وسرور الجموع التي احتشدت على الطريق . وابتهج الناس لرؤية مليكتهم التي لا تقهر ، وافتنوا بتحياتها الكريمة وسعادتها التي انتقلت إليهم فغمرتهم ودفعتهم إلى تجديد الولاء لها .

وانتهجت الحاشية نهجها في مرحها وحريتها في السلوك ، وترفها في الثياب . وولعها بالمراسم ، ومثلها الأعلى في الكياسة ، فقد أحبت أن تسمع خشخشة المجوهرات ونافس الرجال المحيطون بها النساء في تشكيل ما يحصاون عليه من منتجات الشرق على طرز إيطالية . وكان السرور واللهو يشكلان البرنامج المعتاد وامكن على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد في أية لحظة لأية مغامرات عسكرية أينما وراء البحار . وينبغي على من يقدم على اغواء الفتيات أن يكون على أشد الحذر ، لأن الزباث كانت تحس بأنها مسئولة أمام آباء وصيقات الشرف اللأني يعملن لديها عن شرفهن . ومن ثم أبعدت ازل بمبروك عن البلاط لأن ماري فتون حملت منه سفاحا (٢٨) . وفي بلاطها - مثل أي بلاط آخر ، حيكت الدسائس مثل نسيج العنكبوت ، وتنافس النساء على الرجال ، وتنافس الرجال على النساء ، دون وازع من ضمير أو خلق ، وكل ذلك ارضاء للملكة وكسبا لعطفها ، وللمنح التي تغدقها نتيجة لذلك . ان هؤلاء السادة الذين رفعوا ، شعرا ، من شأن نقاوة الحب والأخلاق ، تلهفوا نثرا على المناصب الكبيرة التي تدر ربحا بلاعمل ، وقدهوا الرشاوى أو أخذوها ، وعضوا بالنواجذ على الاحتكارات ، وشاركوا في أسلاب القرصنة ، ونظرت الملكة الشرهة بعين التسامح إلى الرشوة التي تزيد من الأجر

الضئيل الذى يحصل عليه خدمها . وبفضل هباتها أو باذن منها أصبح ليسستر أغنى لوردات إنجلترا ، واستولى سير فيليب سدنى على أراض شاسعة فى أمريكا ، وأخذ رالى أربعين ألف فدان فى إيرلنده ، ونعم ارل اسكس الثانى باحتكار استيراد النسيج الخلو ، وارتفع سيركرستوفر هاتون من مجرد « كلب مدلل » لدى الملكة إلى أكبر منصب فى الدولة وحامل خاتم الملكة . ولم تعد اليزابث تحس بالعقول الجبارة قدر احساسها بالسيقان الرشيقه — لأن عمد المجتمع هؤلاء لم يكونوا قد شطوا سيقانهم بالبطلونات بعد ، وعلى الرغم من كل أخطاء الملكة ، فانها اتخذت خطوة وشقت الطريق بغية ابراز الطاقات المحتزنة فى رجال إنجلترا الأفاض ، واستثارت همهم وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة ، وعقولهم إلى التفكير الجرى ، وسلوكهم نحو الكياسة والفطنة ، وإلى نظم الشعر والدراما والفن . وحول هذه الحاشية ، وهذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية إنجلترا فى أزهى عصورها .

٥ — اليزابث والدين

احتدمت معركة الاصلاح الدينى المريعة داخل البلاط الملكى والأمة ، وأثارت مشكلة اتجه تفكير كثير من الناس إلى أنها ستربك المملكة وتدمرها ، فقد كان ثلثا إنجلترا : وربما ثلاثة أرباعها من الكاثوليك^(٢١) . وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك . وكان البروتستانت محصورين فى الثغور الجنوبية والمدن الصناعية ، وكانت لهم الغلبة فى لندن حيث تضخم عددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم فى القارة . أما فى المقاطعات الشمالية والغربية — وكلها زراعية تقريبا — فكان عددهم لا يكاد يذكر^(٢٢) . وكانت روح البروتستانت على أية حال ، أشد حماسا وغيره من الكاثوليك بشكل لا يقاس . وفى ١٥٥٩ نشر جون فوكس كتابا يصف فيه ، فى غضب شديد ، معاناة البروتستانت فى العهد السابق ، وترجمت مجلدات الكتاب فى ١٥٦٣ تحت اسم *Aclesand Monuments* (الأعمال والآثار) ، وكانت معروفة بين الناس باسم « كتاب الشهداء » . وكان لها أثر مشير فى نفوس البروتستانت الإنجليز لأكثر من قرن من الزمان . وكان لبروتستانية

فى القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ،
عل حين كان للكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصلة فى
أعماق الماضى .

وفى الأقلية الآخذة فى الانتشار زاد الاضطراب الدينى من نزعة الشك ، بل حتى
الاحاد ، هنا وهناك . وباتت العقول العملية الواقعية شكافة فى كل النظريات
اللاهوتية ، بسبب الصراع بين المذاهب ، والنقد المتبادل بينها ، وتعصبها الدامى
والتناقض بين الإيمان الذى يجهر به المسيحيون وبين سلوكهم . وإليك ما قال روجر
أسكام فى « المعلم » ١٥٦٣ :

ان الإيطالى الذى ابتدع لأول مرة المثل الإيطالى ضد رجالنا الإنجليز الذين
تشبهوا بالإيطاليين ، لم يعد يقصد زهوم وخيلاءهم فى حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم
القبيح فى الدين . وإنهم لأشد اعتدادا بعظات شيشرون منهم برسائل القديس
بولس ، وبقصة من بوكاشيو منهم بقصص الكتاب المقدس ، وأنهم ليعتبرون
أسرار انديانة المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية ، ويجعلون المسيح وأنجيله
فى خدمة السياسة المدنية ، ثم إن المذهبين كليهما (البروتستانتية والكاثوليكية)
لا يأتیان خطأ إليهم . وفى الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية ، وبين الجدران
يسخرون منهما سرا وانى استطاعوا سبيلا ، ومع رفاقهم ، يضحكون
أو يزدرون البروتستانتية واليابوية . ولا يلقون بالا إلى الكتب المقدسة ، وأنهم
لهزأون بالبابا ، ويشكون مر الشكوى ، وبألفاظ جارحة ، لوثر ان
المعبود الذى يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص . ومن ثم فإنهم
يعلنون فى وضوح أنهم يتبعون فى حياتهم مدرسة الأبيقوريين ، وأنهم من الناحية
النظرية ملحدون (١) .

وشكا سيسل (١٥٦٩) من « أن الساخرين من الدين والأبيقوريين والملحدين
موجودون فى كل مكان (٢) » . وفى ١٥٧١ صرح جون ستريب Strype « هناك
كثيرون تخلوا عن الكنيسة تماما ، ولم يعودوا يحضرون لآداء واجباتهم الدينية (٣) »
وذهب جون لىلى Lyly (١٥٧٩) إلى أنه « لم يكن بين الوثنيين الهمجيين مثل هذه

الفرق الدينية ، ولا مثل هذه المعتقدات الخاطئة بين الكفار ، مثل ما هو حادث الآن بين العلماء^(٤٤) . وألف علماء اللاهوت وغيرهم كتباً كثيرة ضد « الاتحاد » وهو يعنى على أية حال الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بألوهية المسيح . وفى ١٥٧٩ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٩ أحرقت بعض الأفراد لانكارهم ألوهية المسيح^(٤٥) : واشتهر عدد من الروائيين — جرّين ، كد Kyd — ومارلو — بأنهم ملحدون . إن الدراما فى عصر اليزابث — وهى فيما عدا ذلك تصور الحياة تصويراً شاملاً — تتضمن أقل القليل عن صراع المعتقدات ، ولكنها تعرض الأساطير الوثنية أكبر عوض .

وفى رواية شكسبير Love's Labour's Lost هناك بيتان غامضان :

أى تناقض هذا ؟ السواد شارة الجحيم ،

ولون السجن ومدرسة الليل .

وفسر كثيرون^(٤٦) العبارة الأخيرة على أنها تشير إلى الاجتماعات التى كان يعقدها والتر رالى ، والعالم الفلكى توماس هاريوت ، والعالم لورنس كيمس ، وربما الشاعران مارلو وتشابمان ، وغيرهم ، فى دار رالى الريفية فى شربورن ، لدراسة الفلك والجغرافيا والكيمياء والفلسفة واللاهوت . وقال أنتونى رود عالم الآثار عن هاريوت — ومن الواضح أنه الزعيم الفخرى لهذه الجماعة — « إنه كانت لديه أفكار غريبة عن الكتب المقدسة . وكان دائماً يحط من قدر القصة القديمة عن الخلق (التكوين) وألف لاهوتا نبذ فيه التوراة » . لقد آمن بالله ، ولكنه أنكر الوحي وألوهية المسيح^(٤٧) » وكتب زوبرت بارسونز — وهو من الجزويت — فى ١٥٠٢ عن « مدرسة والتر رالى للاتحاد حيث كانت السخرية من موسى وعيسى الخالص ، والتوراة والإنجيل على حد سواء ، ولقن التلاميذ أن يطرحوا الرب وراء ظهورهم^(٤٨) » واتهم رالى بأنه استمع إلى بحث قرأه مارلو عن « الاتحاد » . وفى مارس ١٥٩٤ اجتمعت لجنة حكومية فى Cerne Abbas فى دورست ، للتحقيق فى شائعات راجت عن مجموعة من الملحدون فى الأماكن المجاورة ، ومن بينها موطن رالى . ولم يؤد التحقيق إلى إجراء معروف لدينا اليوم . ولكن تهمة الاتحاد وجهت إلى رالى أثناء محاكمته (١٦٠٣) ^(٤٩) . وفى

مقدمة كتابه « تاريخ العالم » أشار إلى إيمانه بالرب ، على أنه نقطة يتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وحامت الشبهات في حرية الفكر حول الزباث نفسها . ويقول جون ريتشارد جرين « لم توجد قط امرأة مثلها مجردة تجردا تاما من أية عاطفة نحو الدين (٥٠) » .
ويقرر المؤرخ الإنجليزي فروود « أن الزباث لم يكن لديها اقتناع عاطفى واضح . .
وأنها ، وهى التى كان إيمانها بصدق المذهب البروتستانتي والمذهب الكاثوليكي ضعيفا على حد سواء ، كانت تنظر باحتقار موسوم بالتسامح إلى كل الأفكار والنظريات اللاهوتية (٥١) » . لقد دعت الله بأعظ الأيمان التى أزعجت وزراءها .
أن يدمرها إذا هى نقضت عهدها بالزواج من ألسون ، على حين أنها فيما بينها وبين نفسها سخرت من مزاعمه بطلب يدها (٥٢) . وصرحت الملكة لمبعوث أسباني بأن الفرق بين المذاهب المسيحية المتناحرة لم يكن سوى « شئء تافه » ، ومن ثم استخلص أنها ملحدة (٥٣) .

وعلى الرغم من كل شئء ، فإنها ، مثل كل الحكومات تقريبا قبل ١٧٨٩ ، اعتبرت كقضية مسلم بها ، أن شيئا من الدين وشيئا من مصدر القوة الخارقة وشيئا من الوازع الأخلاقى ، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعى والاستقرار فى الدولة . ولفترة من الوقت ، حتى دعمت مركزها ، بدا أنها تردد ، وتلاعبت على آمال زعماء الكاثوليك فى احتمال أن يكسبوها فى مذهبهم العام ، لقد أحبت الطقوس الكاثوليكية وعزوبة رجال الدين الكاثوليك . ، ودrama القداس ، ولربما كان من المحتمل أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة ، لولا أن هذا كان يحمل فى طياته الخضوع للبابا . وارتابت فى الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدى بالإنجليز إلى وضع اخلاصهم للكنيسة فوق ولائهم للملكة .
ولقد ترعرعت فى أحضان بروتستانتية والدها ، وهى تعنى الكاثوليكية بغير البابوية ، وهذا ، أساسا ، هو ما عقدت العزم على إقراره من جديد فى إنجلترا .
وراودها الأمل فى أن تهدى الطقوس شبه الكاثوليكية فى كنيسها الإنجليزية من روع الكاثوليك فى الريف . على حين يرضى نبذ البابوية البروتستانت فى المدن ، وتشكل

الرقابة الحكومية على التعليم الجليل وفق هذه التسوية التي دبرتها اليزابث ، فهذا الصراع الدينى الذى يمزق البلاد ، ويستتب السلام . انها اتخذت من ترددها فى موضوع الدين ، مثل ترددها فى أمر الزواج ، وسيلة للخدمة أغراضها السياسية ، وأبقت على أعدائها الأقوياء مدهولين ممزقين حتى أصبح فى مقدورها أن تواجههم بحقيقة بارعة كاملة .

وحرصتها قوى كثيرة على استكمال الاصلاح الدينى . وكتب لايها المصلحون الدينيون فى أنحاء القارة شاكرين لها سلفا إعادة العبادة الجديدة . وأثرت فيها رسائلهم . وكان الذين استولوا على الأراضى التي كانت ملكا للكنيسة من قبل ، يرجون تسوية بروتستانتية . وأغرى سيسل اليزابث بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوروبا البروتستانتية . وأبدى البروتستانت فى لندن مشاعرهم بتحطيم تمثال للقديس توماس والقائه فى عرض الطريق . وكان أول برلمان فى عهدها — ٢٣ يناير — ٨ مايو ١٥٥٩) بروتستانتيا بأغلبية ساحقة ، وتمت الموافقة على الاعتمادات التي طلبتها دون تحفظ أو ابطاء . ومن أجل توفيرها فرضت ضريبة على كل الأفراد ، دينيين أو علمانيين . وصدر قانون التنسيق الجديد Act of Uniformity (١٨ أبريل ١٥٥٩) وبمقتضاه أصبح « كتاب كرامر للصلوات العامة » ، بعد مراجعته ، هو قانون الطقوس الانجليزية ، وحرم كل ما عداه من الطقوس الدينية ، وألغى القداس ، وطلب إلى كل الانجليز حضور صلوات يوم الأحد فى الكنيسة الانجليكانية ، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء . وفى ٢٩ أبريل صدر « قانون السيادة » الجديد الذى نص على أن تكون اليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية على السواء . ووضع « قسم السيادة » يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، وكان من المحتم أن يؤدي هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين ، والمتخرجين فى الجامعات والحكام والقضاة وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا ، تختار الحكومة أعضائها ، باجراء التعيينات الكبرى فى الكنيسة واتخاذ القرارات الكنسية . وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن مدى الحياة لأول مخالفة والموت للثانية (١٥٦٣) . ولم تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت

كل الكنائس الانجليزىة بروتستانتية .

وزعمت اليزابث أنها لم تضطهد حرية الرأى . فقالت ان لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء . شريطة أن يطيع القانون ؛ وان كل ما تتطلبه هو الانسجام الخارجى : حرصا على وحدة الأمة . وأكد لها سيسل : « أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ، ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين^(٥٤) » — ولو أن هذا لم يمنعها من طلب التسامح مع البروتستانت الفرنسيين في فرنسا الكاثوليكية^(٥٥) . ولم يكن لديها اعتراض على الرياء المسالم ، على ألا تكون حرية الرأى هى حرية الكلام . ومن ثم فإن الوعاظ الذين لم يشاركوها وجهات نظرها في أى موضوع هام كان مصيرهم أن تخرس ألسنتهم أو يطردوا^(٥٦) . وحددت من جديد قوانين الهرطقة وطبقت . وحرم من حماية القانون طائفة الموحدين (الذين يقولون بالتوحيد لا التثليث) والقائلين باعادة تعميد البالغين^(٥٧) . وأعدم أثناء حكم الملكة خمسة من المهرطقين ، وهذا رقم متواضع في ذاك الزمان .

وحدد مجمع من رجال اللاهوت في ١٥٦٣ المذهب الجديد . واتفق رأى الجميع على « القضاء والقدر » . فان الله بمحض مشيئته ، قبل خلق الدنيا . ودون اعتبار لمزايا الإنسان أو مثالبه . كان قد اصطفى أفرادا ليكونوا من الصفوة التى كتب لها الخلاص ، على حين ترك بقية البشر من الطالسين الملعونين . وتقبلوا فكرة لوثر عن الخلاص بالإيمان بنعمة الله ، ودم المسيح المخلص ، على أنهم فسروا « القربان المقدس » بالمعنى الذى ذهب إليه كلفن ، أى أنه اتصال روحى أكثر منه مادى بالمسيح . وبمقتضى قرار من البرلمان (١٥٦٦) انتظمت المواد التسع ، والثلاثون العقيدة الجديدة . وأصبحت اجبارية على كل رجال الدين في إنجلترا ، ولا تزال تعبر عن المذهب الانجليكانى الرسمى .

وكذلك كانت الطقوس الجديدة حلا وسطا . فالغى القداس ، ولكن مما أزعج البيوريتانز أن صدرت التعليمات إلى رجال الدين بارتداء الملابس الكهنوتية البيضاء عند تلاوة الصلوات وعند تقديم القربان المقدس . وكان يجب تناول القربان ركوعا — في شكلى الحبز والزبد . واستبدل بالتوسل بالقدسين الاحتفال سنويا بذكرى أبطال

البروتستانتية ، واستبقى تثبيت العماد ورسامة الكهنة على أنهما طقوس مقدسة ، ولكن لا يعتبران من الأسرار المقدسة التي عينها السيد المسيح ، وشجع الاعتراف للكهنة في حالة دنو الأجل فقط . واحتفظ كثير من الصلوات بصيغته الكاثوليكية الرومانية ، ولكنها اكتست بالرداء الانجليزى ، وأصبحت جزءا بارزا عظيمًا من آداب الأمة . ولمدة أربعمئة سنة ، نفخت هذه الصلوات والتراتيل التي تتلوها الفرق أو الكهنة في الكاتدرائيات الفسيحة الفخمة ، أو في كنيسة الأبرشية البسيطة — نقول نفخت في روح الاسرار الانجليزية وحياتها ، وزودتها بالسلوى والتهديب الخلقى والهدوء العقلى .

٦ — الزابث والكاثوليك

والآن جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الاضطهاد . فقد كان محرما عليهم — ولو أنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية — أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية ، أو يكون لهم أدب كاثوليكي . وحطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح . وأرسل ستة من طلبة اكسفورد إلى « البرج » لمقاومتهم لإزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم^(٥٨) ، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى ، ولكن عددا كبيرا منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية . وجمع المجلس الملكى نحو خمسين ألفا من هؤلاء « العصاة المتمردين » في إنجلترا (١٥٨٠)^(٥٩) . وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر في بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانثيا^(٦٠) . ووبخت الزابث رئيس الأساقفة باركر على تراخيه (١٥٦٥) ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة . وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير أسبانيا ، وفتشت البيوت في لندن — وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالادلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الرومانى الكاثوليكي (١٥٦٧)^(٦١) .

ويجدر بنا ألا نحكم على هذا التشريع على أساس التسامح الديني النسبي الذي أكسبنا إياه الفلاسفة والثورات في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فإن المعتقدات آنذاك كانت تحارب بعضها بعضا ، وكانت تشابكة بالسياسة ، وفي هذا المجال كان التسامح محدودا . فقد اتفقت كل الأحزاب والحكومات في القرن السادس عشر على أن الانشقاق الديني كان شكلا من التمرد السياسي . وأصبح الصراع الديني — عندما أصدر البابا بيوس الخامس — بعد احساسه بأنه تأخر تأخيرا طويلا مملا — مرسوما (١٥٧٠) ، لم يحرم اليزابث من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها كذلك ، وحرم عليهم الامتثال لتبنياتها وأوامرها وقوانينها . ومتع انتشار المرسوم في أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطيان ود إنجلترا آنذاك ، ولكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتي في لندن وسرعان ما كشف المحرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا الإعلان للحرب ، طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك ، وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التي يعاقب مرتكبوها بالاعدام : قذف الملكة بأنها هرطقة أو منشقة أو مغنصبة . أو طاغية : أو ادخال مرسوم بابوي إلى إنجلترا ، أو تحويل بروتستانتي إلى الكنيسة الرومانية (٦٢) . وفوضت المحكمة العليا في اختبار آراء أي فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقبه على أية مخالفة لأي قانون ، لم يعاقب عليها من قبل ، بما في ذلك الفسق أو الزنى (٦٣) .

ولم يجد ماوك أوربا الكاثوليك لديهم من الجرأة ما يحتاجون به على هذه الاجراءات الظالمة التي شابهت إجراءاتهم إلى حد كبير ، واستمر معظم كاثوليك إنجلترا على الخضوع في سلام ، وأملت حكومة اليزابث في أن تؤدي العادة إلى القبول والرضا ، ثم الإيمان في الوقت المناسب ، ولكن حال دون هذا أن وليم ألن Allen المهاجر الانجليزى أسس في دوى Douai (مدينة في شمال فرنسا) ثم في الأراضي الوطيدة الأسبانية ، كلية ومعهدا لاهوتيا لتدريب المبعوثين الانجليز الكاثوليك لارسالهم إلى إنجلترا . وأفصح عن غرضه في حماسة قائلا :

إن دراستنا في المقام الأول . . . تقوم على أن نثير في عقول الكاثوليك الحماسة

والازدراء المبني على الحق بالهرطقة . وإنا لنفعل هذا بأن نضع أمام أعين الطلاب الجلال الفريد الذي تتميز به طقوس الكنيسة الكاثوليكية في المكان الذي نعيش فيه . . . وفي نفس الوقت نعيد إلى الذاكرة النقيض الحزن الذي يحدث في وطننا ، ألا وهو الدمار الشامل الذي حل بكل الأشياء المقدسة هناك . . . وأصدقائنا وأقربائنا ، وأعزائنا ، إلى جانب الأرواح التي لا تحصى ، ممن هلكوا في الانشقاق والكفر ، وفي الأبراج المحصنة والسجون المكتظة عن آخرها ، لا باللصوص والأشرار ، بل بكهنة المسيح وخدامه ، بل كذلك بآبائنا وأنسابنا وعشيرتنا . ومن ثم فليس هناك شيء يجدر بنا ألا نكابده ، أكثر من أن نتعهد بعلاج ما تعانيه أمتنا من علل (٦٤) .

وعملت الكلية في دوى حتى ١٥٧٨ ، حين استولى الكلفنيون على المدينة ، ثم في ريمس ؛ ثم في دوى ثانية (١٥٩٣) . وأخرج لإنجيل دوى - وهو ترجمة إنجليزية عن الأصل اللاتيني الذي وضعه جيروم - في ريمس ودوى (١٥٨٢ - ١٦١٠) وكان موددا للنشر قبل طبعة الملك جيمس بسنة واحدة . وفيما بين عامي ١٥٧٤ و ١٥٨٥ رسمت الكلية ٢٧٥ كاهنا من المتخرجين فيها ، وأرسلت ٢٦٨ منهم للعمل في إنجلترا . واستدعى ألن إلى رومه وعين كاردينالا . ولكن العمل في الكلية استمر ، وأرسلت ١٧٠ كاهنا آخر إلى إنجلترا قبل وفاة اليزابث (١٦٠٣) . ومن مجموع هؤلاء المبعوثين (٤٣٨) عوقب ٩٨ بالاعدام .

وانتقلت رئاسة هذه الارساليات إلى رجل من الجزويت . هو روبرت بارسونز Parsons ، وهو رجل يتقد حماسه وجرأة وشجاعة ، قوى الحجة شديد المراس في المناظرة والجدل ، بارع في النثر الانجليزي . وأعلن بصراحة أن مرسوم خلع اليزابث يبرر قتلها . وصبق كثير من الكاثوليك الانجليز لدى سماع هذا التصريح ، ولكن تولوميو جالي ، أحد مستشاري البابا جريجوري الثالث عشر السياسيين أبدى موافقته على هذه الفكرة (٦٦) (*) . وحرص بارسونز الدول الكاثوليكية على غزو

(*) يضيق مؤرخ كاثوليكي إلى ذلك قوله . « إذا كان مستشار البابا أمر قتل اليزابث فان هذا يتفق مع القانون الذي كان نافذا آنذاك . كما أن جريجوري ، أيضا - ولا بد أن مستشاره كان قد عرض عليه الأمر قبل ارسال كتابه . وافق على هذه الفكرة (٦٦) »

إنجلترا . ولكن السفير الأسباني في إنجلترا استنكر هذه الخطة على أنها « حماقة إجرامية » ، وحرّم افرار مركوريان Everard Mercurian رئيس طائفة الجزوبث — على بارسونز التدخل في السياسة (٦٧) . ولم يرتدع ، وعقد العزم على أن يغزو إنجلترا شخصيا . وتنكر في زى ضابط إنجليزي عائد من الخدمة في الأراضي الوطية . وهيات له عصاه العسكرية وسترته الموشاة بالحيوط الذهبية وقبعته ذات الريش ، الوصول إلى موظفى الحدود (١٥٨٠) ، بل انه كذلك مهد الطريق لرجل آخر من الجزوبث ، ادموند كامبيون ، ليتبعه في زى تاجر مجوهرات ، وأقاما سرا في قلب لندن .

وزار الرجلان الكاثوليك المسجونين ، ووجدا أنهم يعاملون معاملة حسنة . وقد جندا معاونين علمانيين وروحانيين ، وشرعا في العمل ، يحشان ويشجعان الكاثوليك على أن يبقوا مخلصين للكنيسة ، ويردان البروتستانت الحديثين إلى مذهبهم الأول . ولكن القساوسة المدنيين المختفين في إنجلترا ، الذين روعتهم جرأة الرجلين ، أنذروهما بأنهما لا بد أن يكشف أمرهما ويقبض عليهما سريعا ، وان اكتشافهما سوف يسىء أكثر إلى الكاثوليك ، وتوسلوا إليهما أن يعودا إلى القارة . ولكن بارسونز وكامبيون تمسكا بموقفهما . وانتقلا من بلد إلى بلد ، يعقدان الاجتماعات سرا ويسمعان الاعترافات ، ويقيان القداس ، ويمنحان البركات للمصلين الهامسين الذين نظرا إليهما على أنهما رسولان من عند الله . وقيل إنهما في بحر سنة من قدومهما حولا عشرين ألف مرتد (٦٨) ، وانشأ مطبعة ونشرا الدعاية ، ولقد وجدت في شوارع لندن نشرات جاء فيها أنه ما دامت الزبائث قد حرمت من الكنيسة ، فإنها لم تعد المملكة الشرعية لإنجلترا (٦٩) . وأرسل رجل جزويقي ثالث إلى ادنبره ليحرض الاسكتلنديين الكاثوليك على غزو إنجلترا من الشمال . ولبي ارل وستمورلاند نداء من الفاتيكان ، وأحضر معه من رومه إلى الفلاندرز مجموعة من السبائك الذهبية لتمويل الغزو من الأراضي الوطية . وفي صيف ١٥٨١ اعتقد كثير من الكاثوليك أن قوات دوق ألفا الأسبانية سوف تعبر البحر إلى إنجلترا (٧٠) .

وتلقت الحكومة الإنجليزية تحذيرات من جواسيسها ، فضاعفت جهودها للقبض

على الجزويت . أما بارسونز فقد شق طريقه عبر القنال الإنجليزي ، ولكن قبض على كامبيون في يولية ١٥٨١ . ونقل إلى « برج لندن » عبر القرى المتعاطفة ولندن المعادية . وارسلت اليزابث في طلبه وحاولت انقاذه . وسألته : هل يعتبرها عاهله الشرعى ؟ فرد بالإيجاب . وكان سؤالها الثانى هل يستطيع البابا قانونا أن يحرمها من الكنيسة ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبت فى مسألة اختلف عليها أولو العلم . فأعادته إلى البرج ، مع توجيهات بحسن معاملته ، ولكن سيسل أصدر أوامره بتعذيبه حتى يعترف بأسماء رفاقه المتآمرين . وبعد يومين من الكرب والألم المبرح استسلم وأدلى ببضعة أسماء ، فألقى القبض على عدد آخر من الأفراد . فلما استعاد جرأته تحدى رجال الدين البروتستانت أن يشهدوا معه حوارا عاما . وعقد الحوار فى كنيسة برج لندن ، باذن من مجلس شورى الملكة ، وسمح لرجال البلاط والمسجونين والجمهور بحضوره ، ووقف الجزويتى على ساقيه الواهنتين عدة ساعات يدافع عن المذهب الكاثوليكي . ولم يقنع أحد الطرفين الآخر . ولكن عند ما قدم كامبيون إلى المحاكمة لم يتم بالنزدة ، بل وجهت إليه تهمة التآمر على قلب الحكومة عن طريق التخريب الداخلى والغزو الخارجى . وأدين كامبيون وأربعة عشر شخصا معه ، وشنقوا فى أول ديسمبر ١٥٨١ .

إن أولئك الكاثوليك الذين تنبأوا بأن بعثة الجزويت سوف تغضب الحكومة وتؤدى بها إلى مزيد من الاضطهاد ، اثبتوا أنهم كانوا على حق . وأصدرت اليزابث نداء إلى رعاياها ، ليفصلوا بينها وبين أولئك الذين ابتغوا سبيلا إلى عرشها أو حياتها واصدر البرلمان (٥٨١) قانونا ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداسا يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيا فى الشهر (٧١) ، وهذا يكفى لافلاس الناس اللهم إلا أثرياء الكاثوليك . وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك . وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت بمناوبة سجون (٧٢) . وساد التوتر كل الجوانب ، وزاد من حدته ما كان مرتقبا من إعدام مارى ستيوارت ،

والصراع المتزايد مع أسبانيا ورومه . وفي يونية ١٥٨٣ قدم أحد سفراء البابا إلى جريجورى الثالث عشر خطة تفصيلية لغزو إنجلترا بثلاثة جيوش فى وقت واحد ، من إيرلنده وفرنسا وأسبانيا وأبدى البابا تقديره وتأييده لمشروع غزو إنجلترا ، واتخذت الإجراءات اللازمة له (٧٣) . ولكن الجوايسيس الإنجليز تنسموا أخبار هذه التدابير ، واتخذت إنجلترا ترتيبات مضادة ، وأجل الغزو .

وثار البرلمان بمزيد من تشريعات القمع . فكل القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ وظلوا على امتناعهم عن أداء « قسم السيادة » ، طلب إليهم أن يغادروا البلاد فى بحر أربعين يوما ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشق كل من آوهم أو أخفهم (٧٠) . وبمقتضى هذا القانون وغيره من القوانين أعدم فى عهد اليزابث ١٢٣ قسيسا و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان آخرون نحبهم فى السجن (٧٥) . واحتج بعض البروتستانت على قساوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية . وفر وليم ، حفيد سيسل إلى رومه (١٥٨٥) واقسم يمين الطاعة للبابا (٧٦) .

وكان معظم الكاثوليك الإنجليز يعارضون أى إجراء عنيف ضد الحكومة . وفى ١٥٨٥ وجهت زمرة منهم إلى الملكة اليزابث نداء أكدوا فيه ولاءهم ، والتمسوا « النظر بعين العطف والرحمة إلى ما يعانون من شقاء » . ولكن — وكأما كان يؤيد مازعمتة الحكومة من أن إجراءاتها إنما تبررها الحرب — أصدر الكاردينال ألن (١٥٨٨) منشورا قصدا به شحذ همم الإنجليز الكاثوليك لمساندة هجوم أسبانيا الوشيك على إنجلترا . ودمغ الملكة بأنها « ابنة زنى حمل بها وولدت فى الخطيئة لأُم سيئة السمعة من محظيات البلاط » وأتهمها « بأنها باعت جسدها ولوثته مع ليستر وكثيرين غيره ، ... مما يندى الجبن لذكره ، وبما لا يصدق من ألوان الشهوة والفسق » ، وأهاب بالكاثوليك فى إنجلترا أن يهبوا فى وجه هذه المهرطقة الفاسقة اللعينة المحرومة من الكنيسة » ، « ووعد بأكبر التسامح والغفران كل من يعاون فى خلع » رأس الخطيئة والمقت فى هذا العصر (٧٧) ، فما كان جواب الكاثوليك فى إنجلترا إلا أن قاتلوا بمثل البسالة التى قاتل بها البروتستانت ضد الأسطول الأسبانى « الأره ادا » .

واستمر الاضطهاد بعد هذا لانتصار، كجزء من الحرب المستمرة ، وشق ٦١ قسيسا و ٤٩ علمانيا فيما بين عامى ١٥٨٨ - ١٦٠٣ . واقتلع كثير من هؤلاء من المشقة وسحبوا ونزعت أحشاؤهم وقطعوا أربا - وهم أحياء (٧٨) . وفى خطاب شهير قدام إلى الملكة فى عام وفاتها ، التمس ١٣ قسيسا الترخيص خم بالبقاء فى إنجلترا . وتبرأوا من كل عدوان على حقها ، وانكروا أى سلطان للبابا فى خلعهما ، ولكنهم لم يستطيعوا ، فى ضمائرهم ، أن يعترفوا بغير البابا على رأس الكنيسة لمسيحية (٧٩) . ووصلت هذه الوثيقة إلى الملكة قبل وفاتها بأيام قلائل ، ولم يرد ذكر شىء عن نتيجتها ، ولكنها ، عن غير عمد ، ولمدة قرنين من الزمان ، رسمت المبادئ التى يمكن على أساسها حل المشكلة . ووافى الملكة أجملها منتصرة فى أعظم صراع شهده عهد لم يلطخ بشىء أسوأ من هذا الانتصار .

٧ - الزابث والبيوريتانيون (المتطهرون)

لم تلتصر الزابث على اندرايدى كان من الواضح أنه أشد ضعفاً ، وهم حفنة من البيوريتان . وكانوا رجالا أحسوا تأثير كفس . وكان بهم قد زار جنيف فى أيامه بوصفهم لاجئين مريميين ، وقرأ كثيرون الانجيل الذى ترجمه وزوده بالملاحظات والتعليقات جماعة من أتباع كلفن بجنيف ، وكان بعضهم قد سمع أو قرأ عن نفخات بوق جون نوكس (واعظ ومصاح دينى بروتستانتى اسكتلندى فى القرن / ١٦) ، وربما كان بعضهم قد سمع أصداء حركة ويكلف وأتباعه « القساوسة القراء » . وقد اتخذوا من الانجيل دليلا لا يخطئ ، فلم يجدوا فيه شيئا عن الملائكة الأسقفية والملابس الكهنوتية التى نقلتها الزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الأنجليكانية ، بل إنهم على النقيض من ذلك وجدوا كثيرا عن المشايخ (الكهنة) الذين لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح وأقروا بأن الزابث رأس الكنيسة فى إنجلترا ، لا شىء إلا لغل يد البابا ، ولستهم فى أعماق قلوبهم ، رفضوا أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة . وبدئ حوالى ١٥٦٤ بتسميتهم « البيوريتانز » (المتطهرون) وهو لفظ أسئ استخدامهم ، لأنهم ضالوا بتطهير المذهب البروتستانتى الإنجليزى من كل الطقوس والعبادات غير الواردة

في العهد الجديد - الانجيل . واستمسكوا كل الاستمسك بنظريات الفناء والقدر ،
والاصطاء ، واجنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا بالخضاع كل ناحية
من نواحي الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الانجيل في أيام الأحد المقدسة المهية
في بيوتهم ، كاد أن يتوارى شكل المسيح أمام الرب الحقود المحب للانعام « يهوه »
الوارد ذكره في التوراة (اشارة إلى تشدهم وقسوتهم) .

وبدأت حملة البيوريتانز على اليزابث في الظهور (١٥٦٩) عندما ألحت محاضرات
توماس كارتريت أستاذ اللاهوت في كمبرج ، على أوجه التناقض بين نظام المشيخية
في الكنيسة المسيحية القديمة والكيان الأسقي في الكنيسة الرسمية الانجليكانية . وأيد
كثيرون في الكلية كارتريت ، ولكن جون وتجنفت Whitgift رئيس كلية ترنتي ،
أبلغ الملكة بما كان من أمر كارتريت ووشى به لديها ، وحصل على موافقتها ، على
فصله من هيئه التدريس (١٥٧٠) . وهاجر كارتريت إلى جنيف حيث نهل
— تحت رئاسة تودور دي بيز de Bèze — أصول التيوقراطية الكلفنية في أقوى
صورها . وادى عودته إلى إنجلترا ، أسهم مع والتر ترانرس وآخرين في صياغة
فكرة البيوريتانز عن الكنيسة . ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد
بالسلطة الكنسية إلى الكهنة وكبار السن من العباين . كل أولئك تنتخبهم كل
أبرشية ومديرية ودولة . وتقرر الهيئه المشكلة على هذا النحو ، المذهب والطقوس
والقانون الأخلاقي ، بما يتسق مع ما جاء في الكتاب المقدس . وكان ينبغي أن يكون
لهم حق الدخول إلى كل بيت ، والسلطة التي يفرضون بها الالتزام « بالحياة الربانية
أو بأوامر الرب ونواهي » ، من حيث المظهر الخارجى على الأقل ، كما يكون لهم
الحق في حرمان المتمردين من الكنيسة ، ولحكم بإعدام الهرطقة . وكان على القضاة
المدنيين أن ينفذوا هذه المراسيم التنظيمية ، على ألا يكون للدولة أى سلطان قضائى
روحى بأى شكل من الأشكال (٨٠) .

وأسست أول أبرشية إنجليزية على هذه المبادئ في واند زورث Wandsworth
في ١٥٧٢ ، وقامت كنائس (مشيخيات) مماثلة في المقاطعات الشرقية والوسطى . وفي
هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت في لندن وفي مجلس العموم من البيوريتانز

واستحسن الحرفيون في لندن ، الذين تسربت إليهم بقوة مبادئ كلفن ، عن طريق اللاجئين الكلفنيين من فرنسا والأراضي الوطيدة — نقول استحسّن هؤلاء الحرفيون ، هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس : ونظر رجال الأعمال في العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية التي لا تنظر بعين الرضا بصفة تقليدية إلى « الربا » وإلى الطبقة المتوسطة . وكان كلفن « صارما » بعض الشيء في نظرهم ولكنه كان قد أقر « الفائدة » واعترف بمزايا الصناعة والادخار ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير لهم في البيوريتانية ، بل أن سيسل ولستر ، وولسنجهام ونولليس راودهم الأمل في أن يستخدموها سيفيا يشهرونه في وجه الكاثوليكية إذا وصلت ماري ستيوارت إلى عرش إنجلترا (٨١) .

ولكن اليزابث أحست بأن الحركة البيوريتانية تهدد كل التسوية التي دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، وارتأت أن الكلفنية شبيهة بنظرية جون نوكس الذى لم تغفر له الملكة قط احتقاره لحكم النساء . واحتقرت النظريات البيوريتانية المتشددة من كل قلبها ، وربما إلى حد أكبر من كراهيتها للكاثوليكية ، وكان لها ولع قديم بصورة المسيح المصلوب ، وغيرها من الصور الدينية ، وعندما دمرت الثورة ضد الصور المقدسة اللوحات والتماثيل والزجاج الملون في أوائل حكمها (٨٢) ، قدمت التعويضات إلى ضحايا الثورة ، وحظرت اقتراف مثل هذا العمل في المستقبل (٨٣) . ولم تكن تهتم بالتفاصيل الدقيقة في كلامها ، ولكنها استاءت من الوصف الذى نعت به أحد البيوريتانيين « كتاب الصلوات بأنه نفاية مأخوذة من الاقدار البابوية : كتابه القداس » ، وما نعت به محكمة اللجنة العليا من أنها « خندق بغيض صغير » (٨٤) . كما رأت الملكة في الانتخاب العام للكهنة وفي حكومة الكنيسة عن طريق المشايخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة ، شيئا من النظام الجمهورى الذى يهدد الملكية . ورأت أن سلطتها الملكية فحسب هى التي يمكن أن تبقى على البروتستانتية في إنجلترا ، أما الاقتراع الشعبى فيؤدى إلى عودة الكاثوليكية .

وشجعت الأساقفة على التنكيل بميرى الفتنة ، فأوقف رئيس الأساقفة باركر (مطبوعاتهم ، وأخرس ألسنتهم في الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان رجال الدين

البيوريتانز ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة في نصوص الكتب المقدسة ، فأصدرت اليزابث أمرا إلى باركر بوضع حد لهذه « المواظ » ففعل . وحاول خلفه ادموند جرنډال أن يحمي البيوريتانز ، ولكن اليزابث أوقفته عن العمل . ولما مات (١٥٨٣) عينت في منصب رئيس أساقفة كنتربرى ، قسيسا الجديدا ، جون وتجت Whitgift الذى نذر نفسه لاختراس السنة البيوريتانز . وطلب إلى جميع رجال الدين الانجليز أن يؤدوا قسما بقبول « المواد التسع والثلاثين » ، وكتاب الصلوات ، والسيادة الدينية للملكة ، واستدعى كل المعارضين للمثول أمام محكمة اللجنة العليا ، وهنا تعرضوا لتحقيق تفصيلي ملح عن سلوكهم ومعتقداتهم ، إلى حد أن سيسل وازن بين هذا الاجراء وبين محاكم التفتيش (٨٥) .

وازدادت حدة الثورة البيوريتانية ، وانشقت أقية ذات عزم أكيد عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية ، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها ، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية . وفي ١٥٨١ أقلع إلى هولنده روبرت براون - وكان تلميذ كارتريت (ثم أصبح عدوا له فيما بعد) ، وأول لسان ناطق باسم هؤلاء « المستقلين » أو « الانفصاليين » أو « الأبرشانيين » (الذين يقولون بالاستقلال الذاتى لكل أبرشية) ، وهناك نشر كراستين صاغ فيهما دستورا ديموقراطيا للمسيحية نص فيه على أنه يجب أن يكون لأية جماعة مسيحية الحق فى أن تنظم عبادتها ، وتشكل عقيدتها على أساس الكتاب المقدس ، وتختار رؤساءها وقادتها وتحيا حياتها الدينية متحررة من أى تدخل أجنبى ، ولا تعترف إلا بحكم الكتاب المقدس ، وسلطان المسيح ، وقبض فى إنجلترا على اثنين من أتباع براون وأتهما بالظعن فى السيادة الدينية للملكة ، وشنقا (١٥٨٣) .

وفى الحملات الانتخابية لبرلمان ١٥٨٦ شن البيوريتانز حربا خطابية على كل مرشح غير متعاطف مع مبادئهم . ودمغ مثل هذا الشخص بأنه « مقامر ، مدمن على الخمر ، كما وصم آخر بأنه « أقرب إلى البابوية أو الكاثوليكية ، قلما يأتى إلى كنيسه وانه داعر خليل للبغايا » وتلك كانت أيام الكلام القوى الحاسم . وعندما اجتمع البرلمان قدم جون بنرى التماسا لاصلاح الكنيسة ، واتهم الأساقفة بالمسئولية عن مفاسد رجال

الدين وعن الوثنية الشائعة . وأمر وتجفت باعتقاله ، ولكن سرعان ما أفرج عنه .
وتقدم أنطوني كوب Cobe بمشروع قانون بإلغاء الكنيسة الرسمية الأسقفية برمتها
واعادة تنظيم المسيحية الانجليزية على أساس الخطة المشيخية (على أساس الانتخاب) .
وأصدرت اليزابث أمرها إلى البرلمان بعدم عرض مشروع القانون هذا للمناقشة .
وأثار بيتر ونتورث موضوع الحرية البرلمانية ، وأيده أربعة آخرون من الأعضاء .
فما كان من اليزابث إلا أن زجت بالخمسة جميعا في السجن في برج لندن .

ولما خاب فال البيوريتانز في البرلمان ، انصرف بنرى وآخرون إلى المنشورات ،
وتخلصا من رقابة وتجفت الشديدة على المطبوعات ، وأغرقوا لإنجلترا (١٥٨٨
- ١٥٨٩) ، بوابل من الكراسات المطبوعة سرا ، وكلها موهورة بتوقيع
« Martin Marprelate Gentleman » هاجوا فيها سلطة الأساقفة وخلقهم الشخصي
في نقد لاذع بذئ ممتلئ بالسباب . وبث وتجفت واللجنة العليا كل أجهزة التجسس
للكشف عن المؤلفين والطابعين . ولكن هؤلاء كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر ،
وساعدتهم تعاطف الجمهور معهم على الإفلات من أيدي الجواسيس حتى أبريل
١٥٨٩ . واستخدم الكتاب المحترقون - مثل جون ليلي ، وتوماس ناش - في الرد
على مارتن (صاحب التوقيع) ونافسوه فيما منافسة في البذاءة . وأخيرا ، وعندما
نفدت لغة السوق ، خفت حدة الشتائم والتراشق ، ورثى الرجال المعتدلون لامتهان
المسيحية على هذا النحو والانحدار بها إلى فن للمهارة والقدح .

وألقت هذه النشرات الملكة أشد الايلام فأطلقت يد وتجفت في كبج جمساح
البيوريتانز . ونقد عثر على من تولوا طبع Marprelate ، وزاد عدد المقبوض
عليهم ، وتلا ذلك تنفيذ الاعدام ، وصدر الحكم بإعدام كرتريت ، ولكن الملكة
أصدرت عفوا عنه . وفي ١٥٩٣ شق أثنان من زعماء « حركة براون » ، هما جون
جرينلند وهنري بارو ، وسرعان ما لحق بهما جون بنرى . وأصدر البرلمان (١٥٩٣)
قانونا ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمدا عن
الصلوات في الكنيسة الأنجليكانية ، أو يشهد « اجتماعات أو صلوات سرية غير
مشروعة أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء للمارستها » يعاقب بالسجن

- فإذا لم يتعهد بالانزام بالعقيدة الرسمية ، عليه أن يغادر إنجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت^{٨٦٦} .

وعند هذا الحد . وسط هذا العنف البالغ والاضطراب الشديد ، ارتفع قس متواضع بموضوع النزاع إلى مستوى الفلسفة والتقوى والنثر الرائع . وكان ريتشارد أحد اثنين من رجال الدين عهد إليهما بإقامة الصلوات في معبد لندن ، أما الثاني فهو والتر ترافرس : صديق كارتريت . وفي موعظة الصباح دافع هوكر عن سيادة اليزابث الدينية ، وفي المساء انتقد ترافرس حكومة الكنيسة من وجهة نظر البيوريتانز ، ووسع كل منهما عظته حتى صارت كتاباً : ولما كان هوكر يكتب أدباً كما يكتب اللاهوت ، فقد توسل إلى أسقفه أن ينقله إلى بيت ريفي هادئ . ومن ثم فإنه في بسكوم Boscombe في ولتشير أكمل الأجزاء الأربعة الأولى من مؤلفه « قوانين الدولة الكنسية » (١٥٩٤) ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، في Bishopsbourne أرسل الكتاب الخامس إلى المطبعة ، وهناك في سنة ١٦٠٠ قضى نفيه ، وهو في سن السابعة والأربعين .

ولقد أدهشت إنجلترا « قوانينه » بالوقار الهادئ غير المتحيز الذي اتسمت به مناقشته وحججه ، والعظمة الرنانة التي تميز بها أسلوب كتبه الذي كاد أن يكون لاتينيا . وامتدحه الأسقف ألن بأنه خير كتاب أخرجته إنجلترا . وأثنى عليه البابا كليمنت الثامن لفصاحته وغازاة علمه . وقرأته اليزابث شاكراً ممتنة على أنه دفاع مجيد عن حكومتها الدينية . وسكن روع البيوريتانز لما رأوا من الوضوح المذهب في لهجته . وتلقته الأجيال بوصفه مجاملة نبيلة للتوفيق بين الدين والعقل ، وأدهش هوكر معاصريه بتسليده بأن البابا نفسه يمكن تخايصه . وأذهل هوكر رجال اللاهوت بتصريحه بأن « توكيد ما نؤمن به بكلمة الرب ليس مقنا لنا قدر الاقتناع بما ندركه بالعقل^(٨٧) » وأن موهبة التعليل والتعقل ، ان هي إلهية وإلهام من عند الله .

بنى هوكر نظريته في « القانون » على فلسفة العصور الوسطى التي صاغها توماس الأكويني ، وسبق نظرية « العقد الاجتماعي » التي جاء بها هوبز ولوك . وبعد أن أبرز ضرورة التنظيم الاجتماعي ونعمته ، جادل في أن الاشتراك الاختياري

في مجتمع يتضمن قبول الحكم بقوانينه ، ولكن المنبع الأساسي للقوانين هو الجماعة نفسها . وقد يصدر الملك أو البرلمان القوانين بوصفه مفوضا أو ممثلا للجماعة فحسب . « ان القانون يصنع الملك : وان أية منحة أو مئة من الملك تتعارض مع القانون عقبة لا قيمة لها ومن أجل الرضا السلمي من جانب الطرفين ، تبدو موافقة المحكومين ضرورية . . . وليست القوانين هي تلك التي لم يعمل منها الاستحسان للأوامر قوانين (٨٨) » . وأضاف هوكر نبذة ربما أزعجت شارل الأول :

ان برلمان إنجلترا ، مع التجمع الكنسي الذي انضم إليه : هو الأساس الذي تعتمد عليه كل حكومة في هذه المملكة . بل انه جسم المملكة بأسرها ، انه ينظم الملك وكل رعاياه على هذه الأرض ، لأنهم موجودون جميعا هناك بأشخاصهم . أو انهم فوضوه مختارين (٨٩) .

وبدا الدين في نظر هوكر جزءا لا يتجزأ من الدولة ، لأن النظام الاجتماعي ، ومن ثم الازدهار المادي نفسه ، يعتمدان على التنظيم الاخلاقي الذي ينهار إذا لم يغرسه الدين ويدعمه . ولذلك ينبغي على كل دولة أن توفر التعليم الديني لشعبها . وقد يشوب الكنيسة الأنجليكانية بعض الشوائب . ولكن هذا هو ما ينتظر من أية نظم يقيمها بنو آدم أو يعلمونها . « ان هذا الذي يجوب الآفاق ليقنع الناس بأنهم ليسوا كما ينبغي أن يكونوا عليه ، من أوضاع مرضية ، لن يعوزه من ينصتون إليه ويتعاطفون معه ، لأنهم يعرفون النقائص البشرية التي تتعرض لها أية حكومة أيا كان نوعها . أما العوائق والصعاب الخفية التي لا تحصى والتي لا يمكن تفاديها في مجريات الأمور العامة ، فليس من المألوف أن يكون لأحد الناس من التمييز والعقل ما يمكنهم من النظر إليها وتقديرها (٩٠) » .

وكان منطلق هوكر غير مباشر بدرجة كان معها غير مقنع كما كان علمه تقليديا قديما بحيث لم يواجه قضايا عصره ، كما كان يلتزم الحذر والتحفظ إلى حد شكر معه النظام وامتدحه فلم يدرك اللهفة على الحرية . وأقر البيوريتانز بفصاحته ، ولكنهم ساروا في طريقهم واضطروا إلى الخيار بين وطنهم وعقيدتهم ، فهاجر كثير منهم ، مؤيدين الحركة البروتستانتية في القارة على إنجلترا ، ورحبت هولنده بهم وقامت

المجامع الإنجليزية في مدلبرج وليدن وامستردام ، وهناك عمل المنفيون وذرياتهم
بمجد وعلوموا ووعظوا وكتبوا ، وبذلك مهدوا الطريق في شغف هادئ لانتصاراتهم
في إنجلترا وتوفيقهم في أمريكا .

٨ - اليزابث وأيرلنده

غزا الإنجليز أيرلنده بين عامي ١١٦٩-١١٧١ ، ووضعوا أيديهم عليها منذ
ذلك الوقت ، على أساس أنها ، بغير ذلك ، سوف تستخدمها فرنسا وأسبانيا كقاعدة
لشن الهجمات على إنجلترا . وعند اعتلاء اليزابث العرش كان الحكم الإنجليزى
المباشر في أيرلنده مقصورا على الساحل الشرقى ، حول دبلن وفي جنوبها «The Pale» .
أما باقى الجزيرة فكان يحكمه شيوخ القبائل الأيرلنديون الذين اعترفوا لإنجلترا
بالسيادة الاسمية فقط . وعوق الصراع الدائم مع الانجليز الادارة القبلية التى كانت
قد جلبت لأيرلنده الفوضى والعنف ، ولكنها كذلك هيأت لها الشعراء والعلماء
والقديسين ، وكانت الغابات والمستنقعات تغطى معظم الأرض ، وكان النقل
والمواصلات بمثابة مغامرات بطولية ، وعاش السكان الأصليون الكلتيون وعددهم
نحو ٨٠٠٠٠٠ نسمة ، فى بؤس على حافة الهمجية لا يكاد يسود فيهم قانون . وكاد
الانجليز فى إقليم « البال » أن يكونوا على مثل هذه الحال من الفقر ، وازدادت مشكلة
اليزابث سوءا بفسوقهم واختلاساتهم وجرائمهم ، ودأبوا على اغتصاب أموال
حكومة لندن ، مثل دأبهم على سلب الفلاحين الأيرلنديين . وأثناء حكم اليزابث
أخرج المستوطنون الانجليز ملاك الأراضى والمستأجرين عن أراضيهم عن طريق
« بيع التصفية » ، وناضل من انتزعت أملاكهم إلى حد ارتكاب جريمة القتل ،
وأصبحت حياة الغالبين والمغلوبين ، على حد سواء ، جحима لا يطاق من العنف
والكراهية . وذهب سيسل نفسه إلى حد القول بأن « الفلمنكيين لم يكن لديهم ما
يحملهم على الثورة على ظلم الأسبان ، مثل ما كان لدى الأيرلنديين للثورة ضد
الحكم الانجليزى (٩١) » .

وقامت سياسة اليزابث فى أيرلنده على اقتناعها بأن أيرلنده الكاثوليكية سوف

تكون خطرا يهدد لإنجلترا البروتستانتية ، فأمرت بفرض البروتستانتية فرضا كاملا في أنحاء الجزيرة . وحرم القداس ، وأغلقت الأديرة وتوقفت الصلوات العامة خارج اقليم « البال » الضيق . وظل القساوسة محتفين عن الأنظار ، وأدوا الأسرار المقدسة لقليل من الناس خفية . وكادت الأخلاق أن تختفى بعد الحرمان من الدين والسلام ، وانتشر القتل والسرقة والزنى والاغتصاب والسلب ، وغير الرجال زوجاتهم دون تدمير أو وخز من الضمير ، واستصرخ الزعماء الايرلنديون البابا وملك أسبانيا لحمايتهم أو نجاتهم . وخشى فيليب الثانى أن يغزو أيرلنده حتى لا يغزو الانجليز الأراضي الوطیئة ويساعدوا ثوارها ، ولكنه أسس مراكز وكليات للاجئين الايرلنديين في أسبانيا . وبعث بيوس الرابع إلى أيرلنده بجزويتى أيرلندى (١٥٦٠) هو دافيد ولف الذى جمع بين الشجاعة والاخلاص اللذين تميز بهما النظام الجزويتى . وأسس ولف بعثات سرية ، واستقدم أفرادا آخرين من الجزويت متنكرين واستعاد للسكاثوليكية تقواها وآمالها ، وتحمس شيوخ القبائل وثاروا ، الواحد بعد الآخر ، ضد الحكم الانجليزى .

وكان أقوى الشيوخ هو شين (أى جون) أونل أوف تيرون . وكان رجلا يمكن أن تتغنى به الأساطير ويقا تل الأيرلنديون من أجله . ولقد دافع بضراوة عن لقبه (أونل) ضد أخ مغتصب . وتجاهل كل « الوصايا » وعبد الكنيسة ، وأحبط كل جهود الانجليز لإخضاعه . وغامر برأسه ليزور لندن ويكسب التحالف مع اليزابث وتأييدها له ، وعاد ظافرا ليحكم ألستر كما كان يحكم نيرون ، واشتبك في حرب ضروس مع عشيرة « أودونل » المنافسة ، وأخيرا هزم أمامها (١٥٦٧) ، عندما التجأ إلى آل مكدونل ، وهم المهاجرون الاسكتلنديون الذين سبق له أن هاجم مستوطنتهم في أنتريم .

وكان تاريخ أيرلنده بعد موته عرضا من الثورات والمذابح والمندوبين السامين (ممثلى الملكة) . وخدم سير هنرى سدنى (والد فيليب) اليزابث في هذا المنصب الجحود تسع سنين . واشترك في هزيمة أونل ، وتعقب رورى أو مور حتى الموت ، واستدعى في ١٥٧٨ لأن انتصاراته كانت باهظة التكاليف . وفى عامين من تولى

والتر دفرية - وكان ارل اسكس من قبل - هذا المنصب ، اشتهر اسمه بمذبحة في جزيرة راتلين بعيدا عن شاطئ انتريم . وكان الثوار هناك - وهم آل مكدونل السابق ذكرهم ، قد أبعثوا زوجاتهم وأطفالهم وشيوخهم ومرضاهم ، حرصا على سلامتهم ، مع حرس يحميهم . وأرسل اسكس قوة للاستيلاء على الجزيرة . وعرضت الحامية الاستسلام إذا سمح لها بالابحار إلى اسكتلنده . ورفض هذا العرض ، واستسلمت الحامية . فأعمل السيف فيهم وفي النساء والأطفال والشيوخ والمرضى . وكان عددهم نحو ستمائة شخص (١٥٧٥) (٩٢)

أما الثورة العظمى التي قامت في أثناء حكم الملكة في أيرلنده فهي ثورة عشيرة جيرالدين في مونستر Munsier فان جيمس فيتزجيرالد وقع في الأسر وهرب مرات كثيرة ، استطاع بعدها أن يعبر إلى القارة ، حيث شكل فرقة من الأسبان والايطاليين والبرتغاليين والفلمنكيين والانجليز الكاثوليك المهاجرين ، ونزل بهم على ساحل كرى Kerry (١٥٧٩) ، وكل الذي حدث أنه لقي حتفه في قتال طارئ نشب بينه وبين عشيرة أخرى . وقاد الثورة من بعده ابن عمه جيرالد فيتزجيرالد - الارل الخامس عشر لدموند Desmond ، ولكن عشيرة بتلر المجاورة بزعامه ارل أورمند البروتستانتى انحازت إلى إنجلترا . ونظم الكاثوليك في اقليم البال جيشا وهزموا قوات نائب الملكة الجديد ، آرثر لورد جراى (١٥٨٠) . ولكنه بعد أن وصلته الامدادات حاصر قوات دسموند الرئيسية برا وبحرا من نتوء جبى في خليج سمروك Smerwick . ولما وجد الثوار الباقون على قيد الحياة وعددهم نحو ٦٠٠ ، أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مدفعية جراى ، استسلموا واثمسوا العطف والرحمة ، ولكن كان مصيرهم القتل ، رجالا ونساء ، اللهم إلا بعض الضباط الذين يمكن أن يعدوا بدفع فدية كبيرة (٩٣) . وخربت مونستر الحرب بين الانجليز والاييرلنديين . وبين العشائر بعضها البعض ، إلى درجة قال عنها كاتب حوليات أيرلندى : « لم يسمع خوار بقررة أو صوت رجل يحرق الأرض طوال هذه السنة من دنجل إلى صخرة كاشل » . وكتب أحد الانجليز (١٥٨٢) : « أودت المجاعة بحياة ٣٠ ألفا في مونستر في أقل من نصف عام . غير

الذين شنقوا وقتلوا (٩٤) ، وكتب مؤرخ إنجليزي كبير « إن قتل أيرلندي من أهالي هذه المنطقة لم يكن ينظر إليه إلا على أنه قتل كلب مسعور (٩٥) » . وكادت مونستر أن تخلى من الأيرلنديين وقسمت إلى مستعمرات ومزارع للمستوطنين الانجليز (١٥٨٦) ، ومنهم ادموند سبنسر الذي أكمل هناك رواية *The Faerie Queen* .

وثار الأيرلنديون اليائسون مرة أخرى في ١٥٩٣ ، وانضمت قوات هيو أودونل إلى قوات هيو أونل أول تيرون الثاني . ووعدت أسبانيا بالمساعدة ، حيث كانت آنذاك في حرب مكشوفة مع إنجلترا . وفي فترة خلا فيها منصب نائب الملكة هزم أونل جيشا إنجليزيا هزيمة منكرة في أرماغ ، واستولى على بلاكووتر ، وهو معقل إنجليزي في الشمال (١٥٩٨) ، وأرسل قوة تعمل على اشعال نار الثورة من جديد في مونستر ، ولذا المستعمرون الانجليز بالفرار تاركين مزارعهم ، وعم الأمل والفرح أيرلنده ، بل إن الانجليز أنفسهم توقعوا أن تسقط دبلن نفسها .

تلك هي الأزمة التي عينت فيها اليزابث الشاب روبرت ديفريه ارل اسكس الثاني نائبا للملكة في أيرلنده (مارس ١٥٩٩) . وزودته بجيش قوامه ١٧٥٠٠ رجل ، وهو أكبر جيش أرسلته إنجلترا إلى الجزيرة . وأمرته بمهاجمة أونل في تيرون ، وألا يعتد صلحا إلا بعد استشارتها ، والا يعود إلا بترخيص منها . وضيع ديفريه الوقت سدى أثناء الربيع ، وقام بمناوشات قليلة ، وفنى جيشه بسبب الأمراض ، ووقع مع أونل هدنة لم يكن لديه السلطة لإبرامها ، وعاد إلى إنجلترا في سبتمبر ١٥٩٩ ، ليفسر للملكة أسباب اخفاقه . وسرعان ما خلفه في منصبه شارل بلونت ، لورد مونتجوى الذي واجه في بسالة وبراعة تقتل أونل الداهية مع أود ونل غير الهيا ب ، وأسطولا راسيا في كينسال Kinsale يحمل جنوداً وأسلحة من أسبانيا . وغفرانا من البابا كليمنت الثامن لكل من يدافع عن أيرلنده وعن العقيدة . وأسرع مونتجوى إلى الجنوب ليقابل الأسبان ، فهزمهم في معركة فاصلة إلى حد أن أونل استسلم ، وانهارت الثورة وصدر عفو عام أدى إلى سلام مزعزع (١٦٠٣) وفي تلك الأثناء كانت اليزابث قد ماتت .

وانتقص سجل تاريخ اليزابث في أيرلنده من مجدها وعظمتها . لقد أساءت تقدير صعوبة الغزو في بلد تكاد تنعدم فيه الطرق ، وسط شعب لا يربطه بالحياة

وبالوقار لإحبه لبلده ولعقيدته . وأنحت باللائمة على نوابها لاختلافهم الذى كان من أسبابه تفتيرها هى ، حيث عجزوا عن دفع رواتب الجند الذين وجدوا أنه من الأرجح لهم أن يسلبوا الإيرلنديين من أن يحاربوهم . وتذبذبت بين المهادنة والإرهاب ، ولم تلتزم قط سياسة واحدة إلى نقطة حاسمة . وأسست كلية ترنتى وجامعة دبلن (١٥٩١) ولكنها تركت الإيرلنديين أميين كما كانوا من قبل . وبعد اتفاق عشرة ملايين من الجنيهات ، تمخض السلام الذى أمكن الوصول إليه عن بידاء قاحلة غطت نصف الجزيرة الجميلة ، وعن روح كراهية لا توصف سادت الجزيرة بأسرها ، تنتظر الفرصة الملائمة لتستأنف القتل والتخريب من جديد .

٩ - الزباث وأسبانيا

كانت الملكة فى خير حال لدى تدبير الأمر مع أسبانيا ، لقد مدت للملك فيليب حبل الأمل فى أن تكون زوجا له أو لابنه ، وحبل الأمل فى الظفر بالإنجلترا مقابل خاتم العرس . وتذرع فيليب بالصبر حتى نفر منه أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، وقويت الزباث ، فلربما رجاء البابا والإمبراطور وملكة اسكتلندة المنكودة الطالع أن يغزو إنجلترا ، ولكنه كان شديد الارتياح فى فرنسا ، وكان يلاقى أشد المتاعب فى الأراضى الوطيفة ، إلى حد لا يجرؤ معه على أن يوجه ضربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها فى لعبة السياسة . ولم يكن يضمن ألا تنقض فرنسا على الأراضى الوطيفة الأسبانية فى اللحظة التى يتورط فيها مع إنجلترا . وكان يتردد فى تشجيع الثورة فى أى بلد ، أو على طريقته فى التباطؤ الثقيل ، وثق بأن الزباث قد تجد فى الوقت المناسب مخرجاً أو آخر من المخرج التى وهبتها إيانا الطبيعة الحاذقة فى حياتنا ، ومع ذلك لم يتعجل تسليم عرش إنجلترا إلى فتاة اسكتلندية وقعت فى غرام فرنسا . ومنع لعدة سنوات ، البابا من إعلان قرار حرمان الزباث من الكنيسة . وحتمل فى صمت كئيب معاملتها للكاثوليك فى إنجلترا ، واحتجاجاتها على معاملة الانجليز البروتستانت فى أسبانيا ، وحافظ ، قرابة ثلاثين عاما ، على السلام ، بينما شن القراصنة الإنجليز ، بأمر من الحكومة ، الحرب على مستعمرات أسبانيا وتجارها .

إن طبيعة الإنسان لتكشف عن نفسها في سلوك الدول ، لأن هذه الدول ليست إلا أشخاصاً في جملتها ، وهي تتصرف على نفس النسق الذي يحتمل أن الإنسان كان يتصرف عليه قبل أن يفرض الدين والقوة أخلاقاً وقوانين . وإن الضمير ليسير وراء رجل الشرطة ، ولكن لم يكن ثمة رجال شرطة من أجل الدول . ولم يكن ثمة « وصايا عشر » على البحار ، وإنما قامت التجارة بإذن من القراصنة ، واستخدمت مراكب القرصنة الصغيرة مداخل الشاطئ الإنجليزي مخائياً لها ، ومنها انطلقت لتستولى على كل ما يمكن أن تستولى عليه - وإذا كان الضحايا من الأسبان كان للإنجليز أن ينعموا بالحماسة الدينية التي يجدونها في سلب ونهب رجل ينمى إلى البابا . ودرب رجال جسورون من أمثال جون هوكنز وفرانسيس دريك عدداً كبيراً من القراصنة وكأن البحار ملك لهم . وتبرأت اليزابث منهم وأنكرتهم ، ولكنها لم تعكر صفوهم أو ترعجهم ، لأنها رأت في القراصنة نواة أسطول لها ، وفي هؤلاء المغامرين أمراء البحر لها في المستقبل : وصار ثغر الهيجونوت « لاروشيل » مكاناً أثيراً للقاء بين قوارب الإنجليز والهولنديين والهيجونوت ، « تنقض منه على تجارة الكاثوليك أياً كان العلم الذي ترفعه » (٩٦) ، وعلى تجارة البروتسناننت أيضاً ، عند الحاجة

ومن هذه القرصنة عبر هؤلاء المغامرون إلى تجارة الرقيق الرائجة التي كانت قد بدأها البرتغاليون قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المواطنون في المستعمرات الأسبانية في أمريكا يموتون تحت تأثير الكدح المضنى الذي لا يتناسب مع بيئتهم أو مع المناخ الذي يعيشون فيه . واقتضى الأمر المطالبة بسلالة من العمال أشد وأقوى . واقترح المدافع عن المواطنين : لاس كاساس ، نفسه ، على شارل الأول ملك أسبانيا أن زنوج أفريقية أقوى من هنود البحر الكاريبي ، ويجب نقلهم إلى أمريكا لينهضوا بالعمل الشاق من أجل الأسبانيين هناك (٩٧) . ووافق شارل ، ولكن فيليب استنكر هذه التجارة ، وأمر الحكام الأسبان في أمريكا أن يمنعوا استيراد العبيد إلا بترخيص من الإدارة المحلية في أسبانيا (٩٨) - وهذا أمر عسير وباهظ التكاليف . وقاد هوكنز وهم يعلم أن بعض الحكام الأسبان براوغون في هذه القيود - ثلاث سفن إلى أفريقية (١٥٦٢) وقبض على ٣٠٠ من الزنوج . وأخذهم إلى جزر الهند الغربية ، وباعهم

إلى المستوطنين الأسبان ، مقابل السكر والتوابل والعقاقير . ولما عاد إلى إنجلترا أغرى لورد بمبروك وآخرين غيره ، بأن يسهموا بأموالهم في مغامرة ثانية ، وحرص اليزابث على أن تضع سفينة من أحسن سفنها تحت تصرفه ، وفي ١٥٩٤ انطلق جنوباً بأربع سفن ، وأمسك بأربعمائة من زنوج أفريقية ، وأبحر إلى جزر الهند الغربية ، وباع العبيد إلى الأسبان ، تحت التهديد بضربهم بمدافعه إذا هم رفضوا الشراء . وعاد إلى إنجلترا حيث رحبوا به بوصفه بطلا ، واقتسم الغنائم بينه وبين أنصاره وبين الملكة التي حصلت على ٦٠ ٪ نظير استثماراتها (٩١) . وفي ١٥٦٧ أعارته سفينتها « يسوع » . وأبحر بها مع أربع سفن أخرى إلى أفريقية ، ووضع يده على كل ما أمكنه من العبيد ، وباعهم في أمريكا الإسبانية بمائة وستين جنيناً للواحد ، وفي طريق عودته ، ومعه غنمة تقدر قيمتها بنحو مائة ألف جنيه ، اعترضه أسطول أسباني بعيداً عن شاطئ المكسيك ، عند سان جوان دي ألوا ، ودمر أسطوله فيما عدا مركبتين صغيرين عاد فيهما هوكنز إلى إنجلترا صفر اليدين (١٥٦٩) ، بعد أن لاقى آلاف الأهوال والأخطار .

وكان ممن بقوا على قيد الحياة بعد هذه الرحلة ، أحد أقرباء هوكنز الصغار ، وهو فرنسيس دريك . ولما كان قد تربى على نفقة هوكنز ، فقد قيل عنه إنه من سكان البحر . وفي سن الثانية والعشرين تولى إمرة سفينة في رحلة هوكنز الفاشلة . وفي سن الثالثة والعشرين ، بعد أن فقد كل شيء إلا اشتهاره بالبسالة ، أقسم أن ينتقم من الأسبان ، وفي سن الخامسة والعشرين حصل من اليزابث على براءة بالقرصنة . وفي ١٥٧١ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، أسر قافلة من السفن الإسبانية محملة بسبائك الفضة قرب شاطئ بنما . وعاد إلى إنجلترا ثرياً منتقماً من أسبانيا ، وأخفاه مستشارو اليزابث عن الأنظار لمدة ثلاث سنوات . عل حين كانت أسبانيا تطالب برأسه . ثم جهز له لستر وولسهايم وهاتون أربع سفن صغيرة يبلغ مجموع حمولتها ٣٧٥ طناً ، أبحر بها من بليموث في ١٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، فيما صار فيما بعد ثانياً طواف حول انكرة الأرضية . ولما خرج أسطوله من مضائق ماجلان إلى المحيط الهادى واجهته عاصفة هوجاء . أطاحت بالسفن بعيداً بعضها عن بعض : ولم يلبث شملها ثانية قط ، وسار

دريك وحده بالسفينة « بليكان » على الساحل الغربى للأمريكتين إلى سان فرانسيسكو مهاجماً كل السفن الأسبانية فى طريقه ، ثم انعطف غرباً فى جراً وبسالة ، إلى الفلبين وأبحر من جزر ملقا إلى جاوه ، وعبر المحيط الهندى إلى أفريقية ، وحول رأس الرجاء الصالح صعداً فى المحيط الأطلسى ، ليصل بليموث فى ١٦ سبتمبر ١٥٨٠ ، أى بعد مغادرتها بأربعة وثلاثين شهراً . ومعه من الأرباح ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سلم الملكة منها ٢٧٥,٠٠٠ (١٠٠) ، وحيثه إنجلترا على أنه أعظم ملاح وقرصان فى عصره وتناولت اليزابث العشاء على ظهر سفينته ، ومنحته لقب فارس .

ومن الوجهة الفنية ، كانت إنجلترا طوال هذا الوقت فى سلام مع أسبانيا . وكم قدم فيليب إلى الملكة من احتجاجات ، فقدمت هى الاعتذارات ، وتشبثت بغنائمها ، وأشارت إلى أن الملك نفسه كان هو أيضاً يخرق « القانون » الدولى بإرساله المساعدات إلى الثوار فى أيرلنده . ولما هدد السفير الأسبانى بالحرب ، هددت هى بالزواج من ألنسون وبالتحالف مع فرنسا . ولما كان فيليب مشغولاً بغزو البرتغال ، فقد أصدر أمره إلى سفيره بالإبقاء على السلام . وكما هى العادة ، انضم حسن حظ الملكة إلى عبقيتها الموسومة بالتردد ، فإذا كان عساه يحدث لها لولم تشطر الحرب الأهلية فرنسا الكاثوليكية إلى شطرين ، ولولم يرهق الأتراك بغاراتهم المتكررة الإمبراطور النمسا الكاثوليكية ، ولولم تكن أسبانيا متورطة مع البرتغال وفرنسا والبابا ورعاياها الثائرين فى الأراضي الوطنية ؟

ولعدة سنوات كانت اليزابث تناور وتداور فى مكر وخداع فى الأراضي الوطنية ، وتغير سياستها وفق الظروف المائعة . ولم تكن أية اتهامات بالتردد أو الخيانة تجعلها تسبر فى طريق مستقيم واحد لا تحيد عنه . ولم تكن تحب الكلفنية فى الأراضي الوطنية أكثر من حبها للبيوريتانية فى إنجلترا ، كما لم تكن تحب التحريض على الثورة أكثر من حب فيليب له . وأدركت أهمية التجارة المنتظمة مع الأراضي الوطنية للاقتصاد الإنجليزى ، فعملت على تأمين الثورة ومساعدتها هناك بشكل يحفظها من الاستسلام لأسبانيا أو الارتقاء فى أحضان فرنسا ، وما دامت الثورة قائمة ، انشغلت أسبانيا بها بعيداً عن إنجلترا .

وحانت لحظة مباركة ابتسم فيها الحظ السعيد للملكة ، فهيأ لها الفرصة لمساعدة الثوار بمقابل كسب مغر يدخل إلى خزائنها . ذلك أن القراصنة الإنجليز ساقوا في ديسمبر ١٥٨٨ إلى موانئ القنال الإنجليزي عدة سفن أسبانية كانت تحمل ١٥٠,٠٠٠ جنيه لدفع رواتب جنود دوق ألفا في الأراضي الوطيفة ، ورأت الزابث - وكانت قد ترامت إليها لتوها أنباء الكارثة التي وقعت لهوكنز في سان جوان دي ألوا - رأت أن العناية الإلهية هيأت لها هذه الفرصة لتعويض إنجلترا عما فقدته بسبب تلك الهزيمة . وسألت الأسقف جول Jewel : هل لها حق في الأموال الأسبانية ؟ فحكم بأن الرب ، وهو بروتستانتي قطعاً ، يسره أن يرى البابويين يسلبون . وفوق ذلك ، علمت الملكة أن فيليب كان قد اقترض هذا المبلغ من مصارف جنوه ، ورفض الاعتراف بملكيته حتى يصل سالماً إلى أنتورب . ونقل المال إلى خزائن الملكة ، وجأ فيليب بالشكوى وقبض دوق ألفا على كل ما وصلت إليه يده من رعايا إنجلترا وبضائع إنجليزية في الأراضي الوطيفة ، واعتقلت الزابث كل الأسبان في إنجلترا . ولكن مقتضيات التجارة أعادت بالتدريج العلاقات الطبيعية بين الطرفين . وأبى دوق ألفا أن يستحث الزابث على التحالف مع الثوار ، والتزم فيليب الهدوء والصبر ، واحتفظت الزابث بالمال .

واستمر السلم المزعزع يجرر أذياله ، إلى أن ورطت الحملات الإنجليزية المتكررة على السفن الأسبانية وصرخات أصدقاء ماري ستيوارت المسجونين ، نقول ورطت هذه وتلك فيليب في مؤامرة لقتل الملكة (١٠١) ، وكانت الزابث مقتنعة باشتراكها فيها ، فطردت السفير الأسباني (١٥٨٤) وساعدت الثوار علانية . ودخلت الجيوش الإنجليزية فلشنج ، بريل ، أوستند ، سليس Sluis ، وأرسل لستر ليتولى قيادتها . ولكن الأسبان هزمهم في زوتفين Zuifphen (١٥٨٦) . ولكن الآن ، على الأقل بلغ السيل الزبي ، وحانت ساعة الفصل . فقد استعد فيليب والزابث بكل ما أوتيا من قوة للرب التي قد تحدد لأيهما تكون السيادة على البحار ، كما تحدد ديانة إنجلترا ، وربما ديانة أوروبا ، وربما ديانة الدنيا الجديدة .

وأثرت أسبانيا ثراء واسعاً بفضل كولمبس والبابا اسكندر السادس وقرارات للتحكيم التي أصدرها (١٤٩٣) والتي منحت وطنه أسبانيا كل الأمريكتين تقريباً :

وبهذه الرحلات والمراسيم لم يعد البحر المتوسط مركز حضارة الرجل الأبيض وقوته ، وبدأ عصر الأطلنطي . ومن بين دول أوربا العظمى الثلاث المطلة على المحيط ، كانت فرنسا مغولة اليدين بسبب الحرب الأهلية فلم تشارك في الصراع الدائر حول السيادة على المحيطات . أما إنجلترا وأسبانيا فقد استمر الصراع بينهما ، وصارت كل منهما تمتد نحو الأرض الموعودة مثل الصخرة الناتئة في البحر . وبدأ من العسير زحزحة أسبانيا عن مكان الصدارة والغلبة في أمريكا ، فما وافت ١٥٨٠ حتى كان لها فيها مئات المستعمرات ، على حين لم يكن لإنجلترا شيء قط . وتدفقت الثروات الهائلة من مناجم المكسيك وبيرو إلى أسبانيا ، وبدأ قدراً محتوماً أن تحكم أسبانيا نصف الكرة الغربي ، وتدخل الأمريكيتين في نطاق كيائها السياسي والديني .

ولم يكن دريك راضياً عن هذا المشهد الذي توقعه ، أو قانعاً به . وكانت الحرب من أجل السيطرة على العالم ، لفترة من الوقت ، محصورة بينه وبين أسبانيا . وفي ١٥٨٥ أمده أصدقاءه والملسكة بالمال اللازم ، فجهز ثلاثين سفينة انقض بها على الإمبراطورية الأسبانية . ودخل مصب نهر فيجوف في شمال غرب أسبانيا ، وأعمل السلب والنهب في ثغرفيجو ، وعرى تمثالاً للعدراء ، وحمل معه المعادن النفيسة والملابس الثمينة من الكنائس . وأبحر إلى جزر الكناري والرأس الأخضر واجتاح أكبرها ، وعبر إلى الأطلنطي ، وأغار على سان دومنجو ، وقبض ثلاثين ألفاً من الجنهات ، منحة أو رشوة ، لثلا يدمر مدينة قرطاجنه في كولمبيا . وسلب وأحرق مدينة سانت أوجستين في فلوريدا ، وعاد إلى إنجلترا (١٥٨٦) ، لا لشيء إلا أن الحمى الصفراء أودت بثلاث بحارته .

تلك كانت حرباً دون أن تحمل اسم الحرب وفي ٨ فبراير ١٥٨٧ ، أعدمت الحكومة الإنجليزية ملكة اسكتلنده ، وهنا أبلغ فيليب البابا سكستس الخامس أنه على استعداد لغزو إنجلترا وخلع الزباث . وطلب إليه الإسهام بمليون كراون ذهباً . وعرض سكستس ستمائة ألف لا تدفع لأسبانيا إلا إذا وقع الغزو فعلاً . وأصدر فيليب أمره إلى خير قواده ، أمير البحر مركيز سانتا كروز . بإعداد أكبر أسطول عرف في التاريخ حتى ذلك الوقت ، وتجمعت السفن أو بنيت في لشبونه وأعدت المخازن والمستودعات في قادس .

وألح دريك على الزباث لتزوده بأسطول يدمر الأرمادا قبل أن يتخذ وضعاً تتعذر معه مقاومته ، فوافقت ، وفى الثانى من أبريل ١٥٨٧ انطلق مسرعاً من بليموث ومعه ثلاثون سفينة ، قبل أن تغير الملكة رأيها . وهذا ما حدث فعلاً ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلم تدركه . وفى ١٦ أبريل أسرع بأسطوله إلى ميناء قادس ، وأجرى مناورة بعيداً عن سرى مدفعية الشاطئ ، وأغرق بارجة أسبانية ، وهاجم سفن النقل والتموين ، واستولى على حمولتها ، وأشعل النار فى كل سفن العدو ، وارتحل دون أن يمسه أذى . وألقى مراسيه بالقرب من لشبونة وتحدى سانتا كروز أن يخرج لملاقاته . فأبى المركز أن يفعل ، لأن سفنه لم تكن قد زودت بالسلاح بعد ، فسار دريك شمالاً إلى لاكورونا واستولى على سؤن وذخائر كثيرة كدست هناك ، ثم إلى جزر الآزور حيث استولى على سفينة أسبانية ضخمة (غليون) ، وعاد بها إلى إنجلترا بين سفنه . وعجب الأسبان أنفسهم لجراته ومهارته البحرية وقالوا « لو لم يكن لوثرىا ، بروتستانيا ، لما كان له نظير فى العالم (١٠٢) » .

وأعاد فيليب بناء أسطوله ، فى صبر ، ومات المركز سانتا كروز فى يناير ١٥٨٨ ، فعين مكانه دوق مدينا — سيدونيا ، وهو نبيل يتميز بكرم المحند أكثر منه بالكفاية والقدرة . ولما اكتمل الأرمادا آخر الأمر ، كانت عدة سفنه ١٥٠ سفينة حمولة كل منها فى المتوسط ٤٤٥ طناً ، وكان نصفها من سفن البضائع ، ونصفها الآخر من البوارج الحربية ، مزودة بثمانية آلاف وخمسين بحاراً ، وأبحر عليها تسعة عشر ألف جندى . وفكر فيليب وقواده فى اتباع الطريقة القديمة فى الحروب البحرية — وهى القفز فوق ظهر سفن العدو . ومصارعة الرجل للرجل ، على حين كانت خطة الإنجليز أن يغرقوا سفن العدو بمن احتشد عليها من بحارة ، وإطلاق النيران عليها دفعة واحدة من الجوانب ، وأصدر فيليب تعليماته إلى الأسطول ألا يجد فى طلب السفن الإنجليزية ويهاجمها ، بل لا بد من الاستيلاء على رأس جسر ساحلى فى إنجلترا ، والعبور إلى الفلاندرز ، لينقل إلى المراكب الثلاثون ألف جندى الذين كانوا قد أعدهم هناك دوق بارما ، والسير إلى لندن بعد الحصول على هذا المدد . وفى نفس الوقت هرب إلى إنجلترا (أبريل ١٥٨٨) رسالة ديجها كاردينال ألن

يأمر فيها الكاثوليك بالانضمام إلى الأسباب لخلع ملكتهم « المغتصبة الهزطية البغي (١٠٣) ». ورافق الأرمادا للمعاونة في إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا مئات من الرهبان تحت رئاسة النائب الأسقفى العام لحاكم التفتيش (١٠٤). وهزت روح دينية مخلصه مشاعر البحارة الأسباب وسادتهم ، وآمنوا إيمانا عميقا مخلصا بأنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة ، فأبعدوا البغايا ، وانقطع التجديف والدنس ، وامتنع القمار ، وفي صباح اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٥٨٨ ، حين أفلح الأسطول من لشبونة ، تناول القربان المقدس كل من كان على ظهر السفن ، وأقامت كل أسبانيا الصلوات .

وواتت الريح اليزابث ، على حين واجه الأرمادا عاصفة مدسرة ، فالتجأ إلى ميناء لاكورونا ، حيث ضمد جراحه ، وأقلع ثانية (١٢ يولييه) . وانتظرتة إنجلترا في مزيج محموم من الآراء المنقسمة والاستعدادات المتعجلة والعزيمة اليائسة ، والآن حانت الساعة لتنفق اليزابث الأموال التي كانت قد كترتها في ثلاثين عاما من التقدير والتهور والشرور ، وهب شعبها في شجاعة وتصميم ، كاثوليك وبروتستانت على السواء ، لتجديتها ، وتدريب الحرس الوطنى المتطوع في المدن ، وأمد تجار لندن الفرق بالمال اللازم ، وطلب إليهم أن يجهزوا خمس عشرة سفينة ، فأمدوها بثلاثين . وكان قد مضى على هوكنز عشر سنوات وهو يبني السفن لبحرية الملكة . وأصبح دريك الآن نائبا لأمير البحر ، وأتى قراصنة البحر بسفنهم في انتظار اللقاء الحاسم . وفي أوائل يولية ١٨٨ احتشد في بليموث للقاء العدو القادم ، اثنتان وثمانون سفينة كاملة العدة ، تحت امرة شارل ، لورد هوارد افنجهام ، أمير البحر العام في إنجلترا .

وفي ١٩ يولية (*) شوهدت طلائع الأرمادا عند مدخل القنال الإنجليزي . وأقلع الأسطول المدافع من بليموث ، وفي اليوم الحادى والعشرين بدأ العمل . وانتظر الأسباب حتى يقترب الإنجليز منهم إلى حد يكفى ليتناوش الواحد منهم الآخر ، ولكن

(*) التوفيم القديم ، وهو أسبق بهرة أيام من الجريجورى الذى اقبس في أسبانيا ١٥٨٢ . ولكن لم يؤخذ به في إنجلترا إلا في ١٧٥١ .

على العكس من ذلك ، فإن السفن الإنجليزية الخفيفة المبنية خصيصا للمياه الضحلة والمسالك الضيقة ، انطلقت بسرعة حول البوارج الأسبانية الثقيلة ، تمطرها بوابل من النيران من كل جانب ، وكانت سطوح المراكب الأسبانية عالية ، وكانت مدافعها تطلق قذائفها على بعد مرتفع فوق السفن الإنجليزية محدثة بها أقل الأضرار ، وجرت السفن الإنجليزية تحت النيران ، وتركت قدرتها على المناورة وسرعتها ، الأسبان عاجزين حيارى مضطربين . وعندما جن الليل هرب الأسبان في اتجاه الرياح ، تاركين احدى سفنهم ليأخذها دريك ، وأخرى نسفها أحد رجال المدفعية الألمان المتمردين ، ووقع حطامها في أيدي الإنجليز . ولحسن الحظ كانت كلتاها تحمل مؤنا وذخائر سرعان ما نقلت إلى أسطول الملكة . وجاء مزيد من المؤن والذخائر . ولكن الإنجليز لم يكن لديهم منها حتى الآن إلا ما يكفي لقتال يوم واحد فقط . وفي الخامس والعشرين ، وبالقرب من جزيرة وايت ، قاد هوارد هجوما ، وسارت سفينة قيادته إلى قلب الأرمادا ، وتبادلت النار مع كل بارجة مرت بها ، وحطم تفوق النار الإنجليزية الروح المعنوية لدى الأسبان . وكتب مدينا سيدونيا في تلك الليلة إلى دوق بارما : « ان العدو يطاردني . إنهم يرمونني بالنيران من الصباح إلى المساء ، ولكن السفن لن تلقى مراسيها . . . وليس ثمة من علاج ، فهم سريعو الحركة ونحن بطيئون (١٠٥) » . وتوسل إلى بارما أن يرسل إليه ذخيرة ومددا ، ولكن ثغور دوق بارما كانت تحاصرها وتعرض سبيلها السفن الهولندية .

وفي اليوم السابع والعشرين ألقى الأرمادا مراسيه في مداخل كاليه . وفي الثامن والعشرين أشعل دريك النار في ثمان سفن صغيرة غير ضرورية يمكن الاستغناء عنها ، ووضعها في مهب الرياح لتسير وسط الأسطول الأسباني . وتوجس مدينا سيدونيا شرا ، فأمر سفنه بالخروج إلى عرض البحر . وفي اليوم التاسع والعشرين هاجمها دريك في جرافلين ، بعيدا عن الشاطئ الفرنسي ، في حرب حقيقية . وقاتل الأسبان في بسالة ، ولكن كان يعوزهم المدفعية والبراعة في فن الملاحة . وظهر أسطول هوارد وصب الأسطول الإنجليزي بكامل عدده من النيران على الأرمادا ما أعجز بعض سفنه عن العمل وأغرق بعضها الآخر . واخترقت طلقات الإنجليز أبدان سفن

الأرمادا على الرغم من أن سمكها يبلغ ثلاثة أقدام ، وقتل آلاف من الأسبان ، وشوهت الدماء تسيل من ظهور السفن إلى البحر . وما أن غربت شمس ذلك النهار حتى كان قد فقد من الأسبان أربعة آلاف رجل وجرح أربعة آلاف آخرون ، وأمكن بصعوبة الاحتفاظ بالسفن الأسبانية الباقية عائمة على سطح الماء . ولما رأى مدينا سيدونيا أن بحارته لا يستطيعون احتمال شيء بعد ما حدث ، أصدر أوامره بالانسحاب . وفي اليوم الثلاثين من يولية حملت الريح حطام الأرمادا إلى بحر الشمال . وتبعه الإنجليز شمالا إلى مصب نهر فورت ، وكانت تعوزهم الأغذية والذخيرة فعادوا إلى مراسيهم ، وكانوا قد فقدوا ستين رجلا ، ولم يفقدوا سفينة واحدة .

أما بالنسبة لبقايا الأرمادا ، فلم يكن ملاذ أقرب من أسبانيا نفسها . فقد كانت اسكتلندة معادية ، وثغور أيرلندة في أيدي القوات الإنجليزية . واستأثرت السفن المصابة والرجال الذين يتضورون جوعا في شق طريقهم حول الجزر البريطانية ، وكانت المياه هائجة والريح عاصفة ، فتحطمت الصواري وتمزقت الأشرعة ، وما كان يمر يوم حتى يغرق مركب أو يغادره ملاحوه ، وألقيت جثث ألوف في البحر . وتحطمت سبع عشرة سفينة على شواطئ أيرلندة الوعرة . وفي سليجو Sligo وحدها ظهر على شاطئها الرمل جثث ١١٠٠ من الغرقى الأسبان . ونزل بعض البحارة إلى أير في أيرلندة يلتمسون بعض الطعام والشراب ، فلم يصيبوا شيئا ، وبلغ المئات منهم من الهزال حدا لم يستطيعوا معه القتال ، فكان مصيرهم الذبح بأيدي أشباه المتوحشين من سكان السواحل من كل جنس . ومن المائة والثلاثين سفينة التي كانت قد غادرت أسبانيا أول الأمر ، عاد ٤٥ فقط ، ومن السبعة والعشرين ألفا من الرجال عاد عشرة آلاف معظمهم جريح أو مريض . ولما كان فيليب يحاط غلما بأنباء هذه الكارثة الطويلة الأمد يوما بيوم ، فقد حبس نفسه في صومعة في الاسكوريال ، ولم يكن أحد يجروء على التحدث إليه . أما البابا سكستس الخامس فقد دفع بأنه ما دام لم يحدث غزو على إنجلترا قط ، فإنه لن يرسل إلى أسبانيا الفلسفة بدوكات واحد .

وكانت اليزابث حريصة على المال قدر حرص البابا عليه . وكانت يقظة إلى أية اختلاسات في البحرية ، وطالبت بحساب عن كل شلن انفقته البحرية والجيش . قبل المعركة وفي اثنائها وبعدها . وعوض كل من هوارد وهوكنز من جيبه الخاص عن أى تناقض أو تضارب لم يستطيعا له تفسيراً (١٠٦) . وكانت اليزابث تتوقع حرباً طويلة الأمد ، ومن ثم كانت تصرف للملاحين والجنود مؤناً قليلة ورواتب ضئيلة ، وانتشر الآن مرض فتاك ، أشبه بالتيفود ، بين الرجال العائدين ، قضى في بعض المراكب على نصف من فيها من الملاحين أو أقعدهم عن العمل ، حتى تعجب هوكنز قائلاً : ماذا كان عساه أن يكون مصير إنجلترا لو أن الوباء سبق العدو ؟

واستمرت الحرب البحرية حتى موت فيليب ١٥٩٨ . وسار دريك بأسطول وخمسة عشر ألفاً من الرجال لمساعدة البرتغاليين في ثورتهم ضد الأسبان (١٥٨٩) ولكن البرتغاليين أحسوا بغيض أكثر للبرتغاليين منه للأسبان . وأفرط الإنجليز في احتساء التبيذ الذى استولوا عليه إلى حد الثمل ، وباعت الحملة بالفشل والعار . وقاد لورد توماس هوارد أسطولاً إلى جزر الآزور ليغترض طريق الأسطول الأسباني الذى يحمل الفضة والذهب إلى أسبانيا ، ولكن أسطول فيليب الجديد أرغم السفن الإنجليزية على الفرار ، فيما عدا السفينة « ريفنج » *Revenge* التى أمسكوا بها تنسكع خلف سائر السفن ، فقاتلت قتالاً بطولياً حتى تغلب عليها الأسبان (١٥٩١) . وقام دريك وهوكنز بحملة أخرى على جزر الهند الغربية (١٥٩٥) ولكنهما تنازعا وماتا في الطريق . وفي ١٥٩٦ أرسلت اليزابث أسطولاً آخر لتدمير السفن فى الثغور الأسبانية مثل قادس ، فوجد هناك ١٩ بارجة حربية و ٣٦ سفينة تجارية . ولكنها جميعاً هربت إلى عرض البحر ، على حين أعمل اسكس السلب والنهب فى المدينة . وأخفقت هذه الحملة كذلك ولكنها أظهرت من جديد سيادة إنجلترا على الأطلنطى .

وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شىء تقريباً فى مدينة أوروبا الحديثة . فكانت بداية تغيير حاسم فى تكتيك البحرية ، وأُخلى القفز إلى سفن العدو ومصارعة الرجل الرجل مكانهما للترشق بالمدافع من جوانب السفينة وظهرها . وساعد

إضعاف أسبانيا الهولنديين على نيل استقلالهم ، وارتقى بهنرى الرابع إلى عرش فرنسا ، وفتح أمريكا الشمالية أمام المستعمرات الإنجليزية . وبقيت البروتستانتية وقوية . وتضاءل شأن الكاثوليكية . وكف جيمس السادس ملك اسكتلنده عن مصادقة البابوات ومجاملتهم . ولو أن الأرماذا بنى بطريقة أحكم ، وسارت قيادته على وجه أكمل ، فلربما كانت الكاثوليكية قد استعادت إنجلترا ، وسادت أسرة جيزي في فرنسا . وخضعت هولنده ، ولم يظهر قط شكسبير ويكون وهما رمزان لإنجلترا الظافرة وثمرتان من نتاجها ، ولربما كان على النشوة الغامرة في عهد اليزابث أن تواجه محكمة التفتيش الأسبانية . وهكذا تحدد الحروب مصير اللاهوت والفلسفة ، كما أن القدرة على القتل والتدمير شرط أساسى للحصول على الترخيص بالحياة والبناء .

١٠ — رالى واسكس

على الرغم من أن سيسل وولسنبام ودريك وهوكنز كانوا الأدوات المباشرة للمجد والنصر ، إلا أن اليزابث هى التى تجسدت فيها لإنجلترا الظافرة المنتصرة ، وكانت وهى فى سن الستين فى ذروة الشهرة والقوة والسلطان ، وتجمد وجهها قليلا ، وتساقط شعرها ، وفقدت بعض أسنانها ، وأسود البعض الآخر ، ولكنها فى مجوهراتها التى تبعث الرهبة فى النفوس ، من غطاء الرأس المحرم وطوق الرقبة المكشكش المهفوف ، والأكمام المحشوة ، والتنورة المطوقة وكلها تتألق بالجواهر والآلئ ، وقفت مزهوة رافعة الرأس ، ملكة بلا منازع . وتدمر البرلمان من أساليبها الملكية ولكنه خضع واستسلم ، وقدم المستشارون القدامى نصائحهم فى رعدة الشباب الغض الذى يطلب يد المرأة ، ولكن الطلاب الشبان الذين انطلقت ألسنتهم بالتمجيد والتسبيح أحاطوا بالعرش . وقضى لستر وولسنبام نجبهما ، وسرعان ما يبتلع البحر دريك وهوكنز ، وقد ظنا أنهما سيحكمانه . أما سيسل الذى أطلق عليه بيبكون (١٠٧) « نصف الإله الذى يحمل السماء على كتفيه Atlas فى هذه الدولة » ، فقد كبرت الآن سنه ، وكان يثن ويدبل بداء النقرس ، وكان على اليزابث الآن أن تتولى تمرينه فى مرضه الأخير وتطعمه لقياته الأخيرة بيديها (١٠٨) واعتراها الحزن لفقدان

هؤلاء الرجال ، ولكنها لم تدع هذا كله يشوه فخامة جلالها أو يقلل من حيوية بلاطها ومرحه ونشاطه .

وتألفت حولها وجوه جديدة ، جلبوا إليها شبابا بديلا . وكان كرسطوفر هاتون رشيقا للدرجة أنها عينته مستشارا (١٥٨٧) . وظلت مترددة تسع سنوات في قبول نصيحة برجلي في تعيين ابنه الحبيب الأحذب روبرت سيسل وزيرا لها . وكانت أكثر استساعة لقسمات والتر رالي الجميلة وقعقة سيفه ، ولم تعبأ بشكوكه الدينية الخاصة ، فقد كانت لها هي الأخرى شكوكها الخاصة كذلك .

ويكاد رالي أن يكون رجل عصر اليزابث الكامل : سيد مهذب ، جندي ، ملاح ، مغامر ، شاعر ، فيلسوف ، خطيب ، مؤرخ ، شهيد ، فكان « الرجل العالمى » الذى صورته أحلام النهضة الأوربية ، والذى جمع العبقريّة من أطرافها ، ولكنه لم يدع الجزء قط ليكون كلا . ولد رالي في ديفونشير في ١٥٥٢ ، وانتمى بجامعة اكسفورد في ١٥٦٨ ، ولكنه فر من الكتب إلى الحياة ، وانضم إلى مجموعة شهمة من المتطوعين ذوى الأصل الكريم ، عبروا البحر إلى فرنسا ليناضلوا في صفوف الهيجونوت . وربما كانت الأعوام الستة التى قضّاها فى تلك الحروب قد علمته شيئا من العنف المجرد من المبادئ الخلقية فى العمل والجرأة غير المكترثة فى الحديث مما شكل مصيره فى مستقبل أيامه ، وعاد إلى إنجلترا ١٥٧٥ وألزم نفسه بدراسة القانون ، ولكنه غادر البلاد ثانية فى ١٥٧٨ متطوعا لمساعدة الهولنديين ضد الأسبان . وبعد ذلك بعامين كان فى أيرلنده رئيسا فى الجيش الذى أخذ ثورة دسموند ، ولعب دورا فعّالا فى مذبحة سمروك Smerwick . وكافأته اليزابث باثني عشر ألف فدان فى أيرلنده ، وبضمه إلى بلاطها . ولابتهاجها بقوامه ومدينه لها وتملقه إياها (*) وذكائه . أصغت إليه فى شك أقل ما اعتادت أن تنظر أو تسمع به إلى الناس ، عندما اقترح عليها إنشاء مستعمرات إنجليزية فى أمريكا ، ومنحته امتيازاً بذلك ، وفى ١٥٨٤ أرسل - ولكنه لم يصحب - أول حملة من عدة حملات ، حاولت

(*) أن قصة سجوده تحت قدميها ومطعمه مرغى فى الوحل ، قصة خيالية .

تأسيس مستعمرة في فرجينيا ، ولكنها أخفقت ، وبقي الاسم تذكارا خالدا لعدم وصول الملكة إلى مبتها ، وأثبتت اليزابث تركورتون Throckmorton — وهي وصيفة شرف في البلاط — أنها أقرب منالا ، وارتضت رالى عشيقا لها ، وتزوجت منه سرا (١٥٩٣) . ولما كان محظورا على أى عضو في البلاط أن يتزوج دون موافقة الملكة ، فان العروسين المتيمين قضيا شهر عسل غير متوقع في برج لندن (السجن) . وظفر رالى باطلاق سراحه — مع اقصائه عن البلاط — بارساله كتابا إلى برجلي يصف فيه الملكة بأنها مزيج من كل ألوان الكمال والقداسة في التاريخ .

وأوى رالى إلى ضيعته في شربورن ، ونظم رحلات واكتشافات ، وتلاعب بالإلحاد ، ونظم شعرا كان لكل بيت فيه رنين متميز ولذع خاص . ولكن عامين من الهدوء والدعة استنفدا ثباته واستقراره ، ويفضل مساعدة أمير البحر هوارد وروبرت سيسل جهاز خمس سفن وأقلع بها إلى أمريكا الجنوبية بحثا عن ألدرادو — وهي أرض أسطورية فيها قصور من ذهب ، وأنهار يجري فيها الذهب ، ونساء محاربات (أمازونات) لا تدبل مفاتهن . وسار مائة ميل صعدا في نهر أورينوكو ، ولكنه لم يعثر على نساء محاربات ولا على ذهب ، ولقد حيرته وعوقته مساقط المياه وسرعة جريانها فعاد إلى إنجلترا صفر اليدين ، ولكنه روى كيف أن السكان الأمريكيين دهشوا وأعجبوا بجمال الملكة حين أراهم صورتها . وسرعان ما أعيد إلى البلاط . وأكد بيانه الفصيح عن « امبراطورية جويانا الشاسعة الغنية الجميلة » نقول أكد من جديد إيمانه بأن الشمس لا تشرق على أية ثروات في أى جزء في العالم . « أكثر منها في إقليم الأورينوكو » . وألح دون كلل أو ملل في إثارة الرغبة في انتزاع ثروات أمريكا من أيدي الأسبان إلى أيدي الإنجليز ، وشرح نظرية سيادة البحار أكمل شرح ، « أن من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم يسيطر على ثرواته ، ومن ثم يسيطر على العالم نفسه (١٥٩٦) » .

وفي ١٥٩٦ انضم إلى الحملة على قادس . وقاتل ببسالة — كما قال ، وأصيب بجرح في رجله . وعاملته الملكة يومئذ « معاملة كريمة » وعينته قائدا للحرس . وفي ١٥٩٧ قاد قسما من الأسطول الذى كان تحت امره استكس إلى جزر الآزور ، وفصلت

الماصفة بينهما . ولكن أسطول رالى التحم مع العدو وهزمه ، ولكن اسكس لم يغفر له قط انتزاع قصب السبق منه .

وفاق روبرت دفرية ارل اسكس الثانى ، حتى رالى نفسه ، فتنة وسحرا . وكان له طموح رالى وحيويته وزهوه ، ويزيد عنه حدة فى الطبع ، ويقل عنه ذكاء ، ويفوقه كثيرا فى الكرم والنبيل . وكان رجل عمل مفتونا بالذكاء والفطنة ، يخالفه النصر فى المقارعة بالسيف وفى ميدان الألعاب الرياضية ، يتميز بالبسالة والجرأة فى الحرب ، إلى جانب أنه كان مع ذلك صديقا نافعا للشعراء والفلاسفة مقلرا لهم . ولما أصبحت أمه الزوجة الثانية لارل لستر ، رفع مكانته فى البلاط ليتكافأ مع ما تميز به رالى من فتنة سارة مدهنة . ووقعت الملكة ، وهى فى سن الثالثة والخمسين ، فى حب الأمومة مع ابن العشرين الوسيم الشديد الحساسية (١٥٨٧) ، فهنا ولد بعزها عن عدم انجابها أولادا ، وتجاذبا أطراف الحديث واستمعا إلى الموسيقى ، ولعبا الورق معا ، وانتشر القيل والقال : « إن سيدى اللورد لا يعود إلى مسكنه قل صباح الديكة عند الفجر » (١١٠) . وتزوج قلبها المهرم حين تزوج سرا من أرملة فبليب سدنى ، ولكن سرعان ما اغتفرت له هذا . وفى ١٥٩٣ صار عضوا فى مجلس شورى الملكة ، ومهما يكن من أمر فانه كان قليل الصلاحية لحياة البلاط وعمل رجل الدولة . وقال عنه خادمه كوف : « ان وجهه نيم دوما بوضوح عما يكنه من حب وبغض ، ولم يعرف قط كيف يخفى هذا أو ذاك » (١١١) . وجلب عداوة رالى ، ووليم سيسل وروبرت سيسل ، وأخيرا عداوة سيكون العاق والمملكة المستاءة الكارهة .

أما فرانسيس سيكون الذى قدر له أن يكون أكبر أثرا على الفكر الأوربى من أى شخص عداه من رجال عصر اليزابث . فقد ولد فى ١٥٦١ فى قلب البلاط الملكى ، فى يورك هاوس ، المقر الرسمى للورد حامل خاتم الملكة ، وهو أبوه ، سير نيقولا ، وأطلقت اليزابث على الابن « حامل خاتم الملكة الصغير » وقد صرفه نسعف بنيته عن الألعاب الرياضية إلى الدراسة . وساعده ذكاؤه المتقد على التقاط العلم والمعرفة فى نهم . وسرعان ما باتت سعة اطلاعه إحدى عجائب تلك « الأزمنة

المترفة » . وبعد سنوات ثلاث قضاهما في كمبردج أرسل إلى فرنسا مع السفير الإنجليزي ليتيح له الفرصة ليتعلم فنون السياسة والحكم . وفي أثناء وجوده هناك مات أبوه فجأة (١٥٧٩) قبل أن يشتري الضيعة التي كان قد قصد شراءها لابنه فرانسيس ، وكان من أصغر أولاده . وفجأة ضعفت موارد فرانسيس فعاد إلى إنجلترا ليدرس القانون في Gray's Inn . ولما كان ابنا لأخت ولیم سيسل ، فقد توسل إليه أن يعينه في منصب سياسي ، وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه كتابا غريبا يذكره فيه بموضوعه جاء فيه « أن الاعتراض على سني سوف يزول مع طول سترتي (١١٢) » . وبطريقة ما انتخب في تلك السنة (١٥٨٤) عضوا في البرلمان ، ولو أنه كان في سن الثالثة والعشرين . واشتهر بتأييده لمزيد من التسامح مع البيوريتانز (وكانت أمه منهم) وتجاهلت الملكة حججه ، ولكنه أعاد اثباتها في شعاعة ، في منشور وزع سرا . مس فيه تناقضات كنيسة إنجلترا (١٥٨٩) واقترح فيه ألا يضار إنسان بسبب عقيدته الدينية إذا تعهد بالدفاع عن إنجلترا ضد أية سلطة أجنبية — بما في ذلك البابوية — تهدد سيادة إنجلترا أو حريتها الكاملتين . ورأت الملكة وسيسل أن الفيلسوف الشاب قد تقدم قليلا . والحق أنه كان سابقا لزمانه .

واطمأن اسكس إلى حدة ذهنه ويكون وطلب مشورته . وأشار الحكيم الصغير على النبيل الصغير أن يتظاهر بالتواضع ، أن لم يستطعه ، ويخفف من انفاقه ، ويلتمس وظيفه مدنية أكثر منها حربية ، حيث أن التخلص من آثار النكسات السياسية والتعويض عنها ، ميسوران أكثر منهما في الهزائم العسكرية . كما أشار عليه بأن يعتبر أن كب حب الناس خطر عليه لدى الملكة (١١٣) . وكان سيكون يراوده الأمل في أن ينضج اسكس فيصبح من رجال الدولة ويهيئ لناصره المجلس أو معلمه الخاص فرصة للارتقاء والظهور .

وفي ١٥٩٢ ناشد سيسل مرة ثانية في سطور مشهورة قال فيها : —

لقد أصبحت الآن أكبر سنا إلى حد ما . وإن إحدى وثلاثين سنة ليست بالشيء اليسير في عمر الإنسان وإن صغر ضيعتي يقلقني بعض الشيء . واعترف أن عندى من الغايات التأملية الفكرية الواسعة قدر ما عندى من الغايات الدنيوية المتواضعة

أو المعتدلة ، أى أن ما عندى من التطلع إلى العلم والمعرفة يفوق كثيرا تطلعى إلى أى
جاه مادى . لأنى اعتبرت العلم والمعرفة هما دنيائى أو مجالى الخاص . وإذا كان هذا
فضولا ، أو عظمة جوفاء ، أو طبيعة فى ، فهو راسخ فى ذهنى ، ولا يمكن
محوه (١١٤) .

وعند ما ألح اسكس على وليم سيسل وروبرت سيسل والملكة لتعيين بيكون
فى وظيفة المدعى العام الشاغرة ، ذهبت توسلاته أدراج الرياح ، واختير بدلا منه
ادوارد كوك Coke وهو أكبر منه سنا وأكثر صلاحية من الناحية الفنية . وتحمل
اسكس اللوم فى رقة وكياسة ، وأقطع بيكون ضيعة فى توكنهام تدر ١٨٠٠
جنيه (١١٥) . وقبل أن يستطيع بيكون الإفادة من هذه المنحة عانى من سجن قصير
الأمدة بسيط من أجل الديون (١١٦) . وفى ١٥٩٧ عين فى « المجلس العلمى » الذى
يضم المحامين الذين كانوا يقدمون المشورة إلى مجلس شورى الملكة (١١٧) .

وعلى الرغم من نصيحة بيكون انضم اسكس إلى جماعة الحرب ، ودبر أن
يكون على رأس الجيش . وهيات له بسالته المندفعة فى قادس شعبية بالغة لدى
المجلس ، ولكن اخفاقه فى الآزور ، وكبرياه لم تتضاءل قط ، وتبذيره ،
ولسانه السليط ، كل أولئك نفر منه المجلس واهاج نائرة الملكة . ولما رفضت
صراحة توصيته بتعيين سير جورج كارو فى إحدى الوظائف فى أيرلنده ، أدار لها
ظهره ، بإيماءة تم على الاحتقار والزراية . فاستشاطت غيظا ولكمته على أذنيه
صارخة : « اذهب إلى الشيطان » . فأمسك بسيفه وصاح فيها « هذه اساءة لن
أصبر عليها ، وما كنت لأحتملها من يدى أبيك » . واندفع غاضبا من الغرفة ،
وتوقع كل رجال البلاط أن يعجل بزجه فى السجن فى برج لندن (١٥٩٨) (١١٨) .
ولكن اليزابث لم تفعل شيئا . بل على النقيض من ذلك ، وربما لتخلص منه ،
عينته بعد عدة أشهر من هذا الحادث ، نائبا للملكة ، فى أيرلنده .

وكان بيكون قد حذر اسكس من اللجوء إلى هذا العمل البغيض ، ألا وهو
مقاومة العقيدة بالقوة . ولكنه طلب جيشا : وفى ٢٧ مارس ١٥٩٩ ارتحل إلى

دبلن ؛ وسط تهليل الجماهير ، وهو اجس أصدقائه وريبهم ، وارتياح أعدائه ورضاهم . وأخفق في مهمته ، وبعد ستة أشهر عاد مسرعا إلى لندن دون إذن من الملكة ، واندفع ، دون أن يعلن عن قدومه ، إلى غرفة ملابسها ، وحاول أن يفسر أعماله في أيرلنده ، فأصغت إليه في غضب مكظوم ، ثم أمرت بنقله إلى سجن قصر حامل الاختام في يورك هاوس حتى يمكن الاستماع إلى التهم الموجهة إليه .

وتذمر الناس في لندن لأنهم كانوا يجهلون اخفاقه ويذكرون انتصاراته . وأمر مجلس شورى الملكة ، بمحاكمة شبه علنية ، وفوض بيبكون بوصفه عضوا في مجلس العلماء ومحاميا تعهد بالدفاع عن الملكة ، في أن يعد قرار الاتهام ، وطلب بيبكون اعفائه . ولكنهم ألحوا فقبل . وكان الاتهام الذي أعده معتدلا ، أقر اسكس بصحته ، وعرض خضوعه المتواضع وقد جرد من جميع وظائفه ، وأبلغ أن يلزم داره حتى تفضل الملكة باطلاق سراحه (٥ يونيه ١٦٠٠) ودافع بيبكون عنه ، فأعيدت إليه حريته في ٢٦ أغسطس .

والآن وهو في قصر اسكس ظل يواصل السعى وراء السلطة ، فأرسل صديقا حيا له ، حامى شكسبير وراعيه هنرى ريوتسلى Wriothesley ، ارل سوثمبتون — أرسله إلى أيرلنده ليقتراح على مونتنجوى نائب الملكة هناك ، أن يعود إلى إنجلترا مع الجيش الإنجليزي . ويعاون اسكس في تولي حكم أيرلنده . ورفض مونتنجوى . وفي أوائل ١٦٠١ كتب اسكس إلى جيمس السادس ملك اسكتلنده طالبا مساعدته مع وعد بتأييده خلفا لاليزابث على عرش إنجلترا . ورد عليه جيمس بكتاب مشجع ، وراجت الاشاعات الفظيعة في العاصمة المهتاجة بأن روبرت سيسل كان يخطط ليضع ابنة ملك اسبانيا Infanta ملكة على عرش إنجلترا ، ويزج باسكس في برج لندن ، وأن رالى أقسم ليقنتلنه . وحث سيسل الأصغر الملكة على أن تبعث برسالة إلى اسكس تطلب إليه الحضور إلى المجلس ، وربما كان الغرض من ذلك ارغامه على الافصاح عن نياته ، وحذره أصدقائه بأن هذا ربما كان خدعة للقبض عليه . وحجز أحد الأصدقاء وهو سير جيللى مرك للمستشار وصحبه مقاعد في المسرح حيث كانت تمثل ذاك المساء في سوثوارك Southwark ، رواية شكسبير

« ريتشارد الثانى » ، وهى تظهر كيف أن ملكا خلع عن عرشه عدلا وحقا (١١٩) .

وفى اليوم التالى (٧ فبراير ١٦٠١ احتشد ثلثمائة من أنصار اسكس المتحمسين المسلحين فى فناء داره . وعند ما خرج إليهم اللورد حامل الأختام وثلاثة من الشخصيات الكبيرة ليسألوهم عن سبب هذا التجمع غير المشروع أغلق عليهم الحشد الأبواب وساقوا الازل الحائر معهم إلى لندن وإلى الثورة ، وكان يراوده الأمل فى أن يهب الناس لمساعدته ، ولكن الخطباء أمروهم بالتزام بيوتهم فامتلأوا . وكانت قوات الحكومة لهم بالمرصاد ، فتعقبوا المتمردين ، وقبض على اسكس وزج به فى برج لندن .

وسرعان ما قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة . وأمر المجلس بىكون بمساعدة كوك فى إعداد قرار الحكومة . وربما كان رفضه يؤدى إلى تدمير حياته السياسية ، وقبوله إلى انهيار سمعته التى واثته بعد وفاة أبيه ، فلما تلغى كوك فى عرض التهمة نهض بىكون وعرض المسألة فى وضوح مقنع يدين المتهم ، واعترف اسكس بجرمه ، وذكر أسماء شركائه (١٢٠) . وقبض على خمسة من هؤلاء وقطعت رؤوسهم ، وحكم على سوثمبتون بالسجن مدى الحياة ، وأفرج عنه جيمس الأول فيما بعد ، وتروى أسطورة أن اسكس بعث إلى الملكة بنخاتم كانت قد أعطته إياه يوما مع الوعد بأن تهب لنجدته إذا أعاده إليها فى ساعة العسرة . ولكن النخاتم لم يصل إليها ، ولو كان قد أرسل (١٢١) . ففى الخامس والعشرين من فبراير ١٦٠١ ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ذهب اسكس فى رسالة إلى المصير الذى كان طابع شخصيته . وبكى عدوه رالى عندما هوت الضربة على عنقه ، وعرض برج لندن ، لمدة عام ، الرأس المفصول عن جسده ، والذى أصابه الانحلال والعفن .

١١ - السحر يلى ويذبل ١٦٠٠ - ١٦٠٣

إن منظر رأس اسكس ، أو ادراك الزباث أن الرأس كان يهدق النظر إليها ليل نهار ، لا بد أن يكون قد شارك فى الكتابة التى خيمت على الملكة فى سنواتها الأخيرة : فكانت تقضى الساعات الطوال جالسة وحيدة فى صمت ، حزينه تطيل

التفكير ، وأبقت على ملاهى حاشيتها ، وتظاهرت أحيانا ، نظارا جريئا بالمرح ، ولكن اعتلت صحتها ومات قلبها . ولم تعد لإنجلترا تحبها ، حيث أحست بأنها عمرت أكثر مما ينبغي لها ، وأنه يجدر بها أن تخلى الطريق للملكية الفتية . وثار آخر البرلمانات فى عهدا ثورة اتسمت بعنف أكثر من ذى قبل ، ضد انتهاكها لحرية البرلمان واضطهادها لليبيرتانية ، وطلباتها المتزايدة للاعتمادات ، واغداقها احتكارات التجارة على ذوى الخطوة لديها . ودهش الجميع حين استلمت الملكة فى آخر لحظة ، ووعدت بوضع حد لهذا الخلل . وذهب كل أعضاء مجلس العموم ليقدموا لها الشكر ، وجثوا بين يديها حين وجهت إليهم الخطاب . وكان آخر خطاب لها (٢٠ نوفمبر ١٦٠١) ، وهو « خطابها الذهبى » الحزين ، قالت : ليس ثمة جوهرة ، ارتفعت قيمتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، أوثرها على حبيكم . . . ان تقديرى له ليفوق تقديرى لأى كثر . . . ولقد رفعنا الله إلى أعلى عليين ، ولكنى أحسب أن عظمة عرشى هى أنى حكمت بفضل حبيكم لى (١٢٢) .

وطلبت إليهم أن ينهضوا ثم استطردت فى الحديث قائلة :

لأن يكون الإنسان ملكا ويلبس التاج شئ سار لمن يراه ، أكثر مما هو سار لمن يحمله . . . ومن ناحيتى أنا ، إذا لم يكن ارضاء لضميرى أن أنهض بالواجب الذى فرضه الله على ، وأن أحافظ على « مجده » وأوفر لكم الأمن والسلامة ، لوددت ، استجابة لطبيعتى ، أن أترك هذا المكان لغيرى ، وسعدت بالتححرر من هذه العظمة التى تتنضى جهودا مضنية ، لأنى لست راغبة فى أن أحيأ أو أحكم أطول من عمرى ، وسيكون الحكم من أجل خيركم . وعلى الرغم من أنه قد حكمكم من قبل ، ولسوف يحكمكم من بعد ، ملوك أقوى وأعقل منى . من فوق هذا العرش ، فانكم لم تشهدوا ، ولن تشهدوا من هو أعظم حبا لكم منى (١٢٣) .

وكانت اليزابث تؤجل ما وسعها الجهد موضوع وراثة العرش ، فما دامت مارى ملكة اسكتلنده باقية على قيد الحياة ، وريثة شرعية لعرش إنجلترا . فان

اليزابيث لم يهدأ لها بال ، خشية أن تفسد ماري التسنوية التي انتهت هي إليها مع البروتستانت ، أما الآن وقد ماتت ماري ، وكان جيمس السادس ملك اسكتلندة هو صاحب الحق الذي لا ينازع في وراثة العرش ، فقد اطمأنت اليزابيث إلى ذلك ، لعلمها بأن جيمس ، مهما كان مترددا أو مراوغا ، فهو بروتستانتي . ووصل إلى علمها أن روبرت سينسل وآخرين من رجال البلاط كانوا يتفاوضون سرا مع جيمس لتيسير ارتقائه العرش ، وليصيبوا المغام المرتقبة في هذه المناسبة ، وأنهم كانوا يعدون الأيام الباقية على موتها .

وانتشرت الاشاعات في كل أنحاء أوروبا أن السرطان سيقضى عليها . ولكنها كانت تموت من امتداد حياتها إلى أكثر مما ينبغي ، وما كان جسمها ليحتمل مزيدا من الأفراح والأتراح ، أو من أعباء وضربات السنين القاسية التي لا ترحم ، وعندما حاول ابنها بالمعمودية سيرجون هارنجتون ، أن يسرى عنها بأشعاره الفكهة الظريفة أخرجته من حضرته وقالت « إذا أنت أحسست بالوقت يزحف زحفا نحو بابك ، أى بدنو الأجل ، قل ابتهاجك بمثل هذه الحماقات (١٢٤) » . وفي مارس ١٦٠٣ ، وكانت قد عرضت نفسها في جرأة لبرد الشتاء ، انتابها حمى انهكتها لمدة ثلاثة أسابيع ، وقضت معظم الوقت جالسة على كرسي أو مستندة إلى الوسائد ، ولم ترتض أن يعود لها طبيب ، ولكنها رغبت في الاستماع إلى الموسيقى ، فجاء بعض العازفين أخيرا . واقتنعت بالتزام الفراش ، وتمنى لها رئيس الأساقفة وتحفت أن تطول حياتها فأنهرته ، وسجد إلى جانب سريرها وصلى ، وظن أنه أدى قدرا كافيا من الصلوات وحاول أن ينهض ، ولكنها أمرته أن يتابع الصلاة . ومرة ثانية « تعبت ركبتا الرجل العجوز » . فأشارت إليه أن يؤدي مزيدا من الصلوات . ولم ينقله إلا أن غلبها النعاس في ساعة متأخرة من الليل ، ولم تصح من رقدتها هذه قط ، وفي اليوم التالي (٢٤ مارس) كتب جون ماننجهام في مفكرته : « في نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم فارقت جلالتها الحياة ، في وداعة مثل الحمل ، ويسر مثل قطف التفاحة الناضجة من شجرة (١٢٥) » . وهكذا كان يبدو .

وأحسست إنجلترا بهول المصيبة ، على الرغم من أنها كانت قد طال انتظارها

لموتها . وأيقن الكثيرون أن عهداً عظيماً قد انقضى ، وأن يدا جبارة قط سقطت عن دفة السفينة . وخشى بعضهم ، مثل شكسبير ، حدوث الفوضى (١٢٦) . أما ليكون فقد قال إنها ملكة عظيمة إلى حد :

إنه لو كان بلوتارك الآن على قيد الحياة ، ليكتب عن سير الحياة بالتناظر ، فقد يجد مشقة في أن يجد لها شبيهاً بين النساء . لقد وهبت هذه السيدة معرفة فريدة بين بنات جنسها ، بل حتى نادرة بين الأمراء والرجال

أما بالنسبة لحكومتها . . . فان هذا الجزء من الجزر البريطانية لم يشهد قط خمسا وأربعين سنة خيراً من هذه ، لا في هدوء هذه الفترة فحسب ، بل في الحكمة التي سادت الحكم . فلو نظرنا ، من ناحية . إلى صدق العقيدة التي رسخت قواعدها ، والسلام والأمن الدائمين ، والإدارة الحسنة للعدالة . والتصد والاعتدال في استخدام الحقوق الملكية وازدهار المعرفة ثم لو نظرنا ، من ناحية أخرى ، إلى الخلافات الدينية ، ومتاعب البلاد المجاورة ، وأطباع أسبانيا ، ومعارضة روما ، ثم إلى أنها — أى الملكة — كانت وحيدة ، بنفسها ، أقول لو نظرنا بعين الاعتبار إلى هذه الأشياء كلها ، لما كان في مقدورى أن أختار مثلاً آخر حديثاً ومناسباً إلى مثل هذا الحد ، وكذلك أظن أنه ما كان في مقدورى أن أختار شيئاً أروع أو أبرز من اقتران المعوفة لدى الأمير بالسعادة التي عاش في ظلها الشعب (١٢٧) .

والآن ونحن ننظر إلى الوراء ، نتأمل طبيعة أحداث ذلك الزمان بعد وقوعها ، لا بد لنا من أن نطل الصورة بعض الشيء ، ذاكرين أخطاء الملكة التي لا تضاهيها بلسكة ، غافرين لها هذه الأخطاء . إنها لم تكن قديسة ، أنها لم تؤت الحكمة ، ولكنها سيدة ذات مزاج وذات هوى مفعمة بحب الحياة . ولم تتركز تماماً « حقيقة العقيدة » ، ولم يكن كل رعاياها ، كما زعم شكسبير ، « يأكلون في ظل كرومهم التي زرعوها بأيديهم ، آمنين مطمئنين . وينشدون أغنيات السلام البهيجة (١٢٨) » وإن شيئاً من رشاد حكمها ليعود إلى حكمة معاونيها ، وكان تذبذبها في الرأي

يقترن في غالب الأمر بحسن الطالع ، وربما كان ذلك بسبب ما يحدث مصادفة من
تغيير ، وأدى هذا التذبذب أحيانا إلى ضعف في السياسة إلى حد أن المتاعب الداخلية
لدى أعدائها هي التي ساعدتها على البقاء بعد النكسة . ولكنها استطاعت البقاء ، بل
وحققت نجاحا ، بوسائل مشروعة أو ملتوية ، لقد حررت اسكتلنده من ربة فرنسا
وربطتها بإنجلترا ، ومكنت هنرى نافار من إيجاد التوازن بين قداسه في باريس وبين
مقتضيات مرسوم نانت . ولقد وجدت إنجلترا مفلسة محتقرة ، وخلفتها غنية قوية ،
وترعرعت ونمت منابع المعرفة والآداب في ظل الثروة التي كان يرفل فيها شعبها ،
وتابعت الحكم الاستبدادى المطلق على عهد أبيها ، ولكنها لطفت من حدته
بالإنسانية والفتنة . لقد حرمت الزوج والولد ، وتبنت إنجلترا وجعلت من نفسها
أما لها ، وأحبها حبا خالصا ، وأفنت نفسها في خدمتها ، فكانت أعظم حاكم
عرفته إنجلترا .

فصل ثانى

إنجلترا المرحلة^(١)

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - فى العمل

أى نوع كانت إنجلترا تلك التى أمدت اليزابث بالقوة وهيات لها النصر .
ووهبت شكسبير اللغة والإلهام ؟ وأى صنف من الناس كان هؤلاء الإنجليز فى عصر
اليزابث ، أولئك المغامرون فى تهور ، الصرحاء الممثلثون حيوية ونشاطا ؟ كيف
عاشوا وعملوا ولبسوا وفكروا ، وأحبوا وشادوا وغنوا ؟

فى ١٥٨١ بلغ عدد السكان نحو خمسة ملايين ، معظمهم مزارعون ، ومعظم
هؤلاء يفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول ، وبعضهم يستأجر
الأرض مقابل إيجار محدد يدفعه ، وكان ثمة عدد متزايد من صغار المزارعين
الأحرار الذين يمتلكون الأرض ملكية مطلقة ، وبقيت مساحات من الأرض على
المشاع حيث ثبت أن أرض المراعى تدربجا أكثر من الأرض المحروثة ، وكاد
الرقيق أن ينقرض ، ولكن طرد المستأجرين عن طريق المساحات المشتركة المسورة
وعن طريق الضم كان يخلق طبقة بائسة من العمال الذين غامروا ببيع عضلاتهم من
مزرعة إلى مزرعة ، ومن حانوت إلى حانوت فى المدن الآخذة فى التوسع (التنقل
من أجل الحصول على عمل نظير أجر) .

وباستثناء العاصمة ، كانت المدن لا تزال صغيرة ، على أية حال ، وزاد عدد
السكان قليلا عن عشرين ألفا فى كل من نوروك Norwich وبرستول ، وهما أكبر
مدينتين بعد لندن . وكان لهذه المسألة جانبها المشرق : ذلك أن سكان المدن كانوا
متوادين متحابين ينعمون بحسن الجوار . وحتى فى لندن نفسها ، كان لمعظم البيوت

حدائق ، أو أنها كانت قرية من الحقول المكشوفة ، ومن ثم يمكن جمع مختلف أنواع الأزهار التي ترثم بها شكسبير . وحصلت البيوت على التدفئة بإحراق الخشب ، واستخدمت معظم المصانع الفحم لتوليد الطاقة ، ولكن أسعار خشب التدفئة ارتفعت كثيرا في القرن السادس عشر ، وحدا ازدياد الطلب على الفحم بملك الأراضي إلى التنقيب عن الرواسب في أراضيهم . وجيء بالعمال الألمان لتحسين التعدين وعلم المعادن . وحرمت اليزابث استخدام الفحم في لندن ، ولكن ثبت أن أوامرها كانت أقل حسا من الضرورة الاقتصادية^(٢) . وزادت محلات النسيج واتسعت بعد لجوء النساكين والقصارين إلى إنجلترا هربا من جور دوق ألفا في الأراضي الوطیئة ، وجلب الهيجونوت من فرنسا مهاراتهم الحرفية والتجارية ، على أن رجلا إنجلترا هو الكاهن الموقر « وليم لي » هو الذي اخترع (١٥٨٩) « جهاز الجوارب » شبه الآلى للحياكة . وكان صيد السمك أكثر الصناعات ازدهارا ، لأن الحكومة شجعتها بغية تعويد الناس على ركوب البحر والملاحة ، ومن ثم تبي احتياطيا للبحرية . ومن ثم انحنت اليزابث لإجلالا للكنيسة الكاثوليكية ، وأمرت رعاياها أن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين في الأسبوع ، وأيام الصوم التقليدية في الصيام الكبير .

وكانت نقابات التجار والصناع قد سلبتها القوة والفعالية قيود العصور الوسطى وتوجيهاتها ، ومن ثم ظلت النقابات تفقد أسواقها في عصر النزعة الفردية والتجديد . وجمع المتعهدون المهرة رأس المال ، واشتروا المواد الخام ، ووزعوها على المتاجر والأسرات ، واشتروا الإنتاج ، ثم باعوه ، قدر ما تحتمل ظروف التجارة والمقايضة . وبدأت الرأسمالية في إنجلترا في البيت ، بعمل الأب والأم والابنة والابن ، للمفاول أو الملتزم . أما وقد نشأ الآن « هذا النظام المنزلى » فقد سار حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان كل بيت تقريبا ، بمثابة مصنع مصغر ينسج فيه النساء ، ويفزلن الكتان والصوف ، ويحآن ويطرزن ، ويقمن بتحضير الأدوية من الأعشاب وتقطير المشروبات ، ونجحن إلى حد كبير في النهوض بفن الطبخ ، في إنجلترا .

وسنت حكومة اليزابث القوانين للاقتصاد بمثل ما سنت به للعقيدة ، من غيرة

ومارس . وأدركت أن القيود البلدية على الصناعة والتجارة ، تعوق النشاط التجارى والصناعى ، فاستبدلت بأنظمة الوحدات الإدارية نظاما قوميا واحدا . وقرر تشريع « التلمذة الصناعية » المشهور (١٥٦٣) مجموعة قواعد ومبادئ هامة للرقابة والإلزام الحكوميين ، وقد ظل قانون إنجلترا حتى ١٨١٥ . ومنذ كان القانون يهدف إلى القضاء على الخمول والتعطل ، فإنه تطلب من كل شاب قوى الجسم قادر على العمل أن يخضع كتلميذ لمدة سبع سنوات ، لأن الرجل « حتى يبلغ الثالثة والعشرين ، يكون في أغلب الأحوال ، وليس دائما ، متهورا طائشا لا يحسن التمييز ، لم يؤت من التجربة والخبرة ما يستطيع معه أن يحكم نفسه (٢) » . وكل منعتل عن عمله قبل الثلاثين من العمر ، ليس له دخل سنوى مقداره أربعون شلنا ، يكره إجباره على العمل ، وفقا لتوجيه السلطات المحلية . وكل الأصحاء الذين لم يبلغوا الستين في الريف يمكن إلزامهم بالعمل في جمع المحاصيل . ويجب تأجير العمال بعقود سنوية نظير نوع من أجر سنوى مضمون . وخول قضاة الصلح سلطة تنفيذ الحد الأقصى والحد الأدنى لمكافأة كل عمل في المنطقة التي يعمل بها كل منهم . وحدد أجر العامل في لندن بتسعة بنسات يوميا . وفرضت غرامة قدرها أربعون شلنا على أصحاب العمل الذين يفصلون العمال بشكل تعسفى . أما المستخدمون الذين يتركون أعمالهم بغير سبب مشروع فكان يزج بهم في السجن . وكان محظورا على أى مستخدم أن يترك مدينته أو أبرشيته دون إذن من رب العمل أو الحاكم المحلى . وحددت ساعات العمل باثنتا عشرة ساعة يوميا في الصيف ، وبساعات ضوء النهار في الشتاء . وكان الاضراب أيا كان نوعه محظورا ، وكانت عقوبته السجن أو الغرامة الثقيلة (٣) .

وعموما كان لهذا التشريع مفعوله في حماية أرباب العمل ضد من يستخدمون من العمال ، والزراعة ضد الصناعة ، والدولة ضد الثورة الاجتماعية . وكتبت نقابة البنائين بالأجر في مدينة هل في صدر قانونها المحلى هذه العبارة : « كل الناس بشاؤون بالطبيعة ، خلقهم خالق واحد من طينة واحدة » . ولكن لم يؤمن بهذا أحد ، وفي أقل القليل سيسل واليزابث ، ويحتمل أن يكون سيسل هو الذى

وجه التشريع الاقتصادي في ١٥٦٣ ومن نتائجه بالنسبة للطبقات العاملة أنه جعل الفقر أمراً إجبارياً . واقترح إعادة تحديد الأجور بصفة دورية وفقاً لأسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولكن الأحكام المكلفين بهذا العمل كانوا ينتسبون إلى طبقة المستخدمين (أرباب العمل) . وارتفعت الأجور ، ولكن بمعدل أبطأ كثيراً من الأسعار . وفيما بين عامي ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ارتفعت الأسعار بنسبة ١٠٠ ٪ ، على حين ارتفعت الأجور في نفس الفترة ٢٠ ٪ فقط (٦) .

وفي خلال القرن من الزمان الذي يمتد من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ كانت أحوال المهنيين والعمال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم (٧) . وامتلأت ضواحي لندن « بطبقة فقيرة نسبياً ، شريرة غالباً ، تقطن في أحقر المساكن (٨) » ، تعيش في بعض الأماكن على السرقة والتسول ، وفي جنازة ارل شروزبري (١٥٩١) جاء نحو عشرين ألفاً من المتسولين يلتمسون الصدقات (٩) .

وشنت الحكومة حملات على هذه الرذائل بمجموعة من القوانين الصارمة ضد التسول والاستجداء ، وبمجموعة إنسانية نسبياً من « قوانين الفقراء » (١٥٦٣ - ١٦٠١) التي اعترفت بمسئولية الدولة عن حماية رعاياها من الموت جوعاً . وفي كل وحدة إقليمية جمعت ضريبة لرعاية الفقراء غير القادرين على العمل ، وتشغيل القادرين على العمل في مصانع تديرها الدولة .

وتبين أن ارتفاع الأسعار كان حافزاً للصناعة والتجارة قدر ما كان مأساة وكارثة على الفقراء . والأسباب الرئيسية في هذا هو استخراج الفضة في أوروبا ، واستيراد المعادن النفيسة من أمريكا ، وغش الحكومات للعملة (تخفيض قيمتها بزيادة ما تحتويه من معدن خسيس) وفيما بين سنتي (١٥٠١ - ١٥٤٤) كانت جملة مقادير الفضة المستوردة أو المستخرجة في أوروبا تساوي نحو ١٥٠ مليوناً من الدولارات بمعدلات ١٩٥٧ ، وفيما بين عامي ١٥٤٥ - ١٦٠٠ نحو ٩٠٠ مليون (١٠) . وكافحت اليزابث بشرف غش النقد الإنجليزي ، وتقبلت نصيحة مستشارها البعيد النظر ، سيرتوماس جريشام ، الذي حذرهما (١٥٦٠) في عبارة أصبحت « قانون جريشام » ، وهي

أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وأن العملة التي تحتوى على النسبة الصحيحة من المعدن النفيس قد تحتزن أو ترسل إلى الخارج ، على حين أن العملة التي لا تحتوى على النسبة المقررة الصحيحة من المعدن النفيس تستعمل لسائر الأغراض الأخرى ، وبخاصة في تسديد الضرائب أى « أن يدفع للحكومة النقد الذى سكتته هى (وغشته) » ، وأصلحت اليزابت وسيسل النقد الذى كان قد غشه أبوها وأخوها ، وأعادت إلى العملة الإنجليزية النسبة الصحيحة من الذهب أو الفضة . وارتفعت الأسعار على الرغم من هذا ، لأن تدفق الذهب والفضة أو إنتاجهما ، وتداول العملة ، فاقا سرعة إنتاج السلع .

وأسهمت الاحتكارات في رفع الأسعار . ورخصت اليزابت في احتكار صناعة أو بيع الحديد والزيت والخل والفحم والرصاص ونترات البوتاسيوم أو الصودبوم (الملح الصخرى) والنشا والخيوط والجلد ، والجلود المدبوغة والزجاج ، ولقد مكنت هذه التراخيص ، من جهة لتشجيع رأس المال على تحسين الإنتاج ، وإقامة صناعات جديدة ، ومن جهة أخرى كتعويض أو مكافأة للوظائف والخدمات التي لا تحصل بدونها (أى تراخيص الاحتكار) على أجر كاف . ولما ارتفعت الشكوى من هذه الاحتكارات إلى حد أن البرلمان كاد أن يثور ، وافق اليزابت على وقفها حتى يتم التحقيق فيها والتصديق عليها (١٦٠١) ، ومن ثم كان الاحتفاظ ببعضها .

ونتيجة لهذا التعويق نمت التجارة الداخلية بخطى أبطأ من تقدم التجارة الخارجية . وفيما عدا أيام المناسبات والأعياد ، لم يكن يسمح لأى إنسان أن يبيع السلع في أية مدينة لا يكون هو من سكانها ، وكانت هذه المناسبات دورية في كثير من المراكز ، وبلغت أكثر من مائة يوم في السنة . وكان أكثرها شيوعا ، « يوم القديس برثلميوم » الذى يقام في شهر أغسطس من كل عام بالقرب من لندن ، مع « سيرك » يجذب الناس إلى السلع ، وكان انتقال البضائع على الماء أكثر منه بالبر ، وكانت الأنهار تعج بالحركة ، وكانت الطرق رديئة ، ولكنها آخذة في التحسن . ويمكن السير فيها ركوبا لمسافة مائة ميل في اليوم ، وقطع الرسول الذى حمل إلى ادنبره نبأ وفاة اليزابت

١٦٢٢ ميلادي يومه الأول . وكانت الخدمات البريدية التي انشئت في ١٥١٧ مقصورة على الحكومة وحدها . أما البريد الخاص فكان يرسل مع الأصدقاء أو الرسل أو السعاة أو أى مسافرين آخرين . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، أما المركبات فأدخلت حوالى ١٥٦٤ ، وظلت حتى ١٦٠٠ لونا من الترف لدى قلة من الناس ، وما جاءت سنة ١٦٣٤ حتى كثر عددها إلى حد إصدار بلاغ بتحريم استخدام الأفراد لها استخداما خاصا ، بسبب ازدحام حركة المرور^(١١) . وكانت الأنزال « الفنادق » حسنة ، كذلك كانت النادلات فيها ، اللهم إلا عند الدفع . لكن كان ينبغي على عابر السبيل أن يحرص على كيس نقوده ، وأن يخفى وجهته^(١٢) . لقد كان على المرء في إنجلترا على عهد إليزابث أن يكون نشيطا حلوا مستعدا .

ونمت التجارة الخارجية بتقدم الصناعة . وكان تصدير المنتجات الكاملة الصنع هو الوسيلة المفضلة لتسديد ثمن ما يستورد من المواد الخام ومواد الترف الشرقية . وتوسعت السوق من الوحدة الإقليمية إلى الأمة بأسرها ، ثم إلى أوروبا ، بل حتى إلى آسيا وأمريكا . واتسعت مجالات الحكومات الوطنية وأهدافها وسلطانها مع اتساع مدى التجارة ومشاكلها ، وقد رغبت إنجلترا — مثلما رغبت أسبانيا وفرنسا — في تصدير السلع واستيراد الذهب . لأن « النظرية التجارية(*) » التي سادت آنذاك . كانت تقيس ثروة الأمة بمقدار ما لديها من المعادن النفيسة . وواضح أن فرانسس بيكون كان أول من تحدث عن « ميزان تجارى^(١٣) » مرض ، قصد به زيادة الصادرات على الواردات ومن ثم امتصاص الفضة أو الذهب ، أو تبرعها إلى داخل البلاد . وأعلن سيسل عن هدفه بقوله : « يجب ، بكل الوسائل ، أن نقصر استخدامنا للسلع الأجنبية على ما هو ضرورى لنا^(١٤) » ولقد أدرك أن الفضة والذهب لا يؤكلان ولا يلبسان ، ولكنهما كانا نقدا دوليا ، يمكن أن يشتري به عند الضرورة

(*) **Mercantillism** وهو النظام الاقتصادي الذى نشأ فى أوروبا خلال تفسخ الانقطاع لتعزيز ثروة الدولة ن طريق تنظيم حكومى صارم للاقتصاد الوطنى فى جميع نواحيه ، وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية . (المترجم نقلا عن قاموس المورد ، بيروت ١٩٧١) .

أى شيء تقريباً ، حتى الأعداء ، وتجب حماية الصناعة الوطنية زمن السلم ، حتى لا تعتمد الأمة على المنتجات الأجنبية زمن الحرب ، ومن ثم عوقت الحكومات الاستيراد عن طريق الرسوم الجمركية ، وشجعت التصدير عن طريق الإعانات ، وتكونت « شركات التجارة » لبيع المنتجات الإنجليزية في الخارج وهياً « التجار المغامرون » . الإنجليز منفذاً للصادرات في همبرج . ورأس أنطوني جنكنسون بعثة تجارية إلى روسيا (١٥٥٧) وأخرى إلى إيران (١٥٦٢) ، وذهبت بعثة أخرى إلى الهند (١٥٨٣ - ١٥٩١) . وأنشئت لجنة إنجليزية تركية (١٥٨١) . وأسست الشركة المسكوفية في ١٥٩٥ ، وشركة الهند الشرقية الشهيرة في التاريخ في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، وكان المسرح ممهداً لهستنجز وكليف . وقام عشاق البحر أو المال بمغامرات عبر المحيطات بحثاً عن طرق جديدة للتجارة . وكان علم الجغرافيا - من بعض النواحي ، نتيجة غير مقصودة لحماستهم . وقامت حركة ضخمة لبناء السفن ، بحثاً عن الأسواق والمستعمرات . وتحولت أخشاب غابات إنجلترا إلى سفن وصوار . وشرعت بريطانيا تحكم في الأمواج وتحكم البحار ، وولدت الامبراطورية البريطانية قولاً وعملاً .

ولما انتشرت التجارة واتسع مجالها ، تطورت النظم المالية لتيسير عملياتها وتعجيلها . وتضاعف عدد المصارف . وفي ١٥٥٣ أنشأ « التجار المغامرون » شركة مساهمة مشتركة للتجارة مع روسيا ، أصدرت ٢٤٠ سهماً قيمة كل منها ٢٥ جنيهاً ، وكانت الأرباح توزع بعد كل جولة : ويعاد رأس المال المستثمر (١٥) . ومولت شركة الهند الشرقية رحلاتها بمثل هذه الطريقة . وأدت الأرباح التي بلغت ٨٧ ٪ في أول رحلة إلى اندفاع المساهمين إلى الاشتراك في المشروع أو المغامرة الثانية - ومنهم رجال البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين ، والفرسان ، والأرامل ، والعوانس ، والحرفيون . وأحب الرجال والنساء آنذاك المال حبا جما ، كما هو الحال اليوم تماماً . وكان البرلمان قد حرم الفوائد على القروض حتى ١٥٥٢ ، بوصفها « رذيلة ما أقبحها » (١٦) ، ولكن القوة المتزايدة لرجال الأعمال في مجلس العموم ، أدت إلى صدور « قانون الربا » في ١٥٧١ ، وقد ميز هذا القانون بين الفائدة والربا ،

وأجاز نسبة ١٠ ٪ سعرا للفائدة . ولما ازداد التعامل في الأسهم أنشئت سوق الأوراق المالية (البورصة) لتبادل ملكية الأسهم والبضائع . وسك مزيد من النقود المتداولة ليتسنى شراء السلع وبيعها . وفي ١٥٦٦ أسس جريشام « البورصة الملكية » لتقوم بمثل هذه العمليات التجارية والمالية . وفي ١٥٨٣ أصدرت أقدم « بوليصة » تأمين على الحياة (١٧) .

ونمت الروح التجارية مذ أصبحت لنسدن واحدة من أسواق ومراكز العالم المزدهرة . وتألفت الشوارع غير المضاعة بما تكسب فيها من بضائع . وحكم جواب آفاق طاف بأقطار كثيرة ، بأن منشآت الصياغ في لندن أفخم مثيلاتها في أى مكان آخر في العالم (١٨) . وجن جنون أصحاب الأعمال للحصول على دور لهم ، واستعمل بعضهم صحن كاتدرائية سانت بول مقرا مؤقتا لمكاتبهم ، وكلهم ثقة بأن « المسيح » كان قد غير رأيه منذ ظهر كلفن ، وهناك تعامل المحامون مع عملائهم ، وأحصى الناس المال فوق المقابر ، وفي الفناء باع الباعة المتجولون الخبز واللحم والسمك والفاكهة والجمعة والبيرة ، وتدافعت حشود المشاة والباعة المتجولون والمركبات وعربات النقل في الشوارع الضيقة الموحلة . واستخدم نهر التاميز كطريق رئيسى تمر به مراكب نقل البضائع والمعديات ومراكب التزهة ، وكاد يوجد في كل تقطة فيه مجدف أو معدة معه قارب ، مستعد لنقل البضائع أو الركاب عبر النهر ، ضد التيار ، أو مع التيار . ومن ثم كانت صيحاتهم العالية (نداءاتهم للركاب) : « شرقا » أو « غربا » ، التى أخذت عنها عنوانات « روايات جاكوب » . وكان النهر ، إذا زالت عنه رائحته — نعمة كبرى للتجارة والتزهة والعشاق ، وخلفية للمشاهد المسرحية الفخمة والمساكن الفاخرة . وكان جسر لندن الذى بنى في ١٢٠٩ مفخرة المدينة ، والطريق الوحيد بين طرفيها الشمالى والجنوبى . وتخصص الجنوب في الحانات والمسارح والمواخير والسجون . أما الشمالى فكان المركز الرئيسى للأعمال . وهنا كان التاجر هو السيد ، وكان اللورد صاحب اللقب يدخل بعد السماح له بالدخول . وكانت الشخصيات الملكية والنبلاء يقطن معظمهم في قصور خارج لندن . وكان حي وستمنستر ، مقر البرلمان آنذاك : مدينة منفصلة . وهناك أيضا أجبرهم رجل الأعمال

على سماع صوته ، وما وافت سنة ١٦٠٠ حتى بات في مقدوره أن يزعج الملكة ، وبعد نصف قرن تقريبا (حوالى ١٦٥٠) قطع رأس الملك .

٢ - فى المدارس

لم يكن عصر شكسبير متوفرا على التعليم . فتعلم العصر قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، مع قدر أكبر من الإيطالية والفرنسية ، وقرأ الكتب بنهم . ولكن بسرعة ، واندفع يحكم عليها بالتجربة والاختبار ، وتعلم من مدرسة الحياة ، وأجاب معلمه بوقاحة لم يسمع بمثلا .

ولم تكن اللغة التى استعملها هذا العصر هى لغة المدارس ، ولكنها كل لغة الحديث الموروثة عن عهود الكلت والرومان والسكسون والنورمنديين فى إنجلترا ، مزينة بالغنائم اللغوية من فرنسا وإيطاليا ، كما انتزعت بعض الألفاظ العامية من شوارع لندن ، ومن اللهجات فى المقاطعات ؛ ولكن لغة العصر لم تقنع بهذا ، فجعات الكلمات تلد كلمات ، وجعلت الخيال الواسع يتخبط فى الكلام الخلاق . وهل كان ثمة لغة حية قوية مرنة غنية مثلها ؟ ولم تتوقف لتضع لهجائها القواعد ، وقبل ١٥٧٠ لم توجد قواميس للارشاد إلى ضبط الهجاء والإملاء ، ولم يحدد شكسبير يوما كيف يتهجى اسمه . واستخدم الاختزال ، ولكنه لم يهدى من روع أصحاب الأعمال المهتاجين ، ولم يسعف الشعر .

وقضى هنرى الثامن على تعليم البنات المنظم حين حل أديار الراهبات . أما التعليم الابتدائى فكان ميسورا مجانا لأى ولد يمكنه الوصول إلى إحدى المدن . وفتحت اليزابث مائة مدرسة متوسطة مجانية Grammar School ، وأضاف إليها جيمس الأول وشارل الأول ٢٨٨ مدرسة أخرى . أما الأولاد (البنين) من ذوى الأصل العريق فقد كانت قد أسست لهم بالفعل مدارس خاصة Public School (مدارس ثانوية داخلية) فى ونشستر ، وايتون ، وسانت بول ، وشروزبرى ، وأضيف إليها الآن رجبى (١٥٦٧) ، وهارو (١٥٧١) ، ومدرسة Merchant Taylor's (١٥٨١) حيث لمع الاسم التربوى العظيم ريتشارد مولكاستر . وكان المنهج تقليديا ،

بالإضافة إلى الضرب ، وكان تعليم المذهب الأنجليكاني إجباريا في جميع المدارس . وفي وستمنستر كانت الدراسة تبدأ في السابعة وتنتهى في السادسة ، مع فترات فيها شىء من الشفقة : لطعام الإفطار في الثامنة ، ولسنة من النوم والحلوة بعد الظهر . وكان الآباء يصرون على أن تنهض المدرسة على أكمل وجه ، بإحدى مهامها الرئيسية ، ألا وهي تخليصهم من أبنائهم .

وظلت اكسفورد وكبرج تحتكران التعليم الجامعى . وكانتا قد فقدتا هيئتهما والثقة بهما في أثناء الاصلاح الدينى وما اقترن به من هياج وشغب ، كما انصرف عنهما آلاف الطلاب ، ولكنهما كانتا تستردان مكانتهما ، وفي ١٥٨٦ كانت كل جامعة منهما تضم نحو ١٥٠٠ طالب . وفي جامعة كبرج تبرع سير والتر ميلدماي Mildmay بكلية عمانويل في ١٥٨٤ ، وأسست فرانسس ، كونتييسة سسكس وعمه فيليب سدنى ، كلية سيدنى سسكس في ١٥٨٨ . وفي اكسفورد أسست كلية يسوع بأموال حكومية وغير حكومية ١٥٧١ ، وأضيفت كليتا وادهام (١٦١٠) وبمبروك (١٦٢٤) في عهد جيمس الأول . وشرفت كبرج في ١٥٦٤ بزيارة الملكة التى استمعت في وقار وتواضع إلى خطاب رسمى باللاتينية في مدحها ، وفي كلية ترنتى ردت باليونانية على خطاب باليونانية ، وفي الطرقات تبادلت الحديث مع الطلبة باللاتينية- ، وفي نهاية الزيارة وجهت خطابا باللاتينية أعربت فيه عن أملها في أن تفعل شيئا من أجل التعليم ، وبعد ذلك بعامين زارت اكسفود مبهجة مفاخرة بقاعاتها وملاعبها ، وعند مغادرتها الجامعة صاحت في حماس : «وداعا رعاياي الأفاضل ، وداعا أبنائي الطلبة الأعزاء ، وفقكم الله في دراستكم» (١٩) . لقد عرفت كيف تكون مليكة .

ونافست نساء إنجليزيات أخريات اليزابث في مجال العلم والمعرفة . فاشتهرت بنات سير أنطونى كوك بعلمهن . واتخذت ماري سدنى كونتييسة بمبروك من بيتها ، في ولتن منتدى للشعراء ورجال السياسة والفنانين الذين تبنوا فيها عقلا ناضجا يمكنها من تقدير أحسن ما يملكون أو يقدمون . وتلقى مثل هؤلاء السيدات معظم تعليمهن

على أيدي معلمين خاصين في البيت . وكانت المدارس المتوسطة مفتوحة للجميع ، أما الثانوية الخاصة والجامعات فكانت مقصورة على الذكور فقط .

وكان من أبرز سمات العصر أن أقدر المالمين في عهد اليزابت أسس في لندن (١٥٧٩) « كلية جريشام » للقانون والطب والهندسة وعلوم البلاغة وغيرها من الدراسات النافعة لطبقة أصحاب الأعمال ، وحدد أن تكون المحاضرات بالإنجليزية واللاتينية على حد سواء ، طالما أن التجار وغيرهم من المواطنين سيلتحقون بها (٢٠) . وأخيرا كان تعليم طبقة ذوى اليسار أو ذوى الألقاب يكمل بالسياحة والرحلات . وقصد الطلبة إلى إيطاليا لاستكمال تدريبهم الطبي والجنسى ، وللتعرف على آداب الإيطاليين وفنونهم ، وتعلم كثيرون أن يعرجوا على فرنسا في الطريق . ولم تكن اللغة عائقا آنذاك ، لأن كل متعلم في غرب أوروبا ووسطها كان يعرف اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك فإن المسافرين العائدين أتوا معهم إلى الوطن بأثارة من الإيطالية والفرنسية ، كما جاءوا بولع شديد بالأخلاقيات الهينة اللينة التي سادت إيطاليا في عصر النهضة .

٣ — الفضيلة والرذيلة

إن كل تلميذ ليعرف تنديد روجر أسكام في ١٥٦٣ بالرجل الإنجليزي الذي يتشبه بالإيطاليين ، حيث يقول : —

أنى لأعتقد أن الذهاب إلى هناك « إلى إيطاليا » خطر ، أى خطر لقد جعلت الفضيلة يوما من هذه البلاد سيدة على العالم . ولكن الرذيلة جعلت منها الآن عبدا لمن كانوا من قبل يلذ لهم أن يخدموها انى على العكس من ذلك ، أعرف رجلا غادروا إنجلترا ممن عرفوا فيها بالحياة البريئة والمعرفة الواسعة عادوا من إيطاليا وقد رغبت نفوسهم عن الاستقامة في الحياة وانصرفوا عن العلم ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل سفرهم إلى الخارج . وإذا ذهب بك الظن إلى أننا لا نقرر الحقيقة . فاستمع إلى ما يقوله الإيطاليون ان الإنجليزي الذي يتشبه بالإيطاليين ليحمل بين جنبه شيطانا متجسدا فيه « وكنت أنا نفسى ذات مرة

في إيطاليا ، وأحمد الله اني لم أمكث فيها إلا تسعة أيام فقط . ومع ذلك رأيت في هذا الوقت القصير ، في مدينة واحدة ، من الاباحية والمجون والإثم مالا أكاد أذكره عن مدينتنا الفاضلة لندن في تسع سنوات (٢١) .

ولم يكن معلم الزناث هو الوحيد الذي ضرب على هذه النغمة . فقد كتب ستيفن جسون Gosson في كتابه « مدرسة الفساد » (١٥٧٩) « لقد سلبنا إيطاليا دعاتها ، انك إذا قارنت بين لندن ورومه ، وبين إنجلترا وإيطاليا لوجدت أن مسارح الواحدة منهما ومفاسد الأخرى منتشرة انتشارا واسعا بيننا » . ونصح سيسل ابنه ألا يسمح لأولاده أن يعبروا جبال الألب . « لأنهم لن يتعلموا هناك شيئا سوى الغرور وعدم احترام المقدسات والإلحاد (٢٢) » . وفي كتابه « تشريح المفاسد » ، وصم فيليب ستبز Stubbs — وهو بيوريتاني — الإنجليز في عصر الزناث — بأنهم أشرار مترفون مزهوون ، يفاخرون بخطاياهم . ونعى الأسقف جول Jewel في موعظة ألقاها أمام الملكة — نعى على الناس في لندن أنهم في سلوكهم وأخلاقهم « يهزأون بكتاب الله المقدس ، الإنجيل ، ومن ثم يصبحون أكثر فسقا وأكثر شهوانية وحبا للعنصرية وأكثر دعارة ، مما كانوا عليه في أي وقت مضى . . . وإذا كانت حياتنا تشهد بعقيدتنا ونتم عن ديننا ، فإنها تنادى بأعلى صوت ليس هناك إله (٢٣) (*) » .

إن مثار الضجة والنعي على الأخلاق يرجع في كثير منه إلى أساتذة الأخلاق

(*) يروى أوبرى قصة تويد أسكام ، يقول « كان والتر رالي مدعواً إلى العشاء مع شخصية كبيرة . وكان ابنه يجلس إلى جواره ، محتشماً غاية الاجتثام ، على الأقل طيلة نصف فترة العشاء . ثم قال : هذا الصباح ، ولم تكن خشية الله ماثلة أمام عيني ، قصدت إلى واحدة من بنات الهوى كنت شديد الهيام بها ، وأردت أن استمتع بها . ولكنها دفعتني عنها وأقسمت ألا أقرّبها ، قائلة إن أباك كان يضاجعني منذ ساعة فقط » فما كان من والتر ، وقد فوجئ مفاجأة مذهلة ، وخاصة في مثل هذه المأدبة العظيمة ، إلا أن لطم ابنه لكمة شديدة على وجهه . ولكن الابن ، رغم فظاظته وغلظته ، لم يضرب أباه ، بل لطم للرجل الذي كان يجلس إلى جواره ، وقال : لكمة هنا وهناك ستصيب أبي حالا . . » (موجز سير الحياة Brief Lives — ص ٢٥٦) .

الذين نددوا أشد التنديد بالنساء والرجال الذين لم يعودوا يلقون بالا إلى أهوال
الحجيم أو يؤمنون بها . ويحتمل ألا يكون الناس في مجموعهم شرا أو خيرا عما
كانوا عليه من قبل ، ولكن ، كما تشددت الأقلية البيوريتانية في أخلاقها وقررت
في أموالها واقتصدت في بنات شفاها ، كذلك اتفقت أقلية وثنية مع الإيطاليين
على أن التمتع بالحياة ، أفضل من إرهاق أنفسنا بالتفكير في الموت دون جدوى .
ويمكن أن تكون الأنبذة الإيطالية ، التي كان الناس يقبلون عليها في إنجلترا ، قد
ساعدت على الإباحية في الأخلاق ، وبالمثل على توسيع الشرايين ، وكان ذلك أبقي
أثرا . وربما جاء من إيطاليا ومن فرنسا ومن الآداب القديمة ، معنى أصرح احساسا
بالجمال . ولو أن هذا المعنى جلل بشيء من الحزن نتيجة شعور أقوى بقصر عمر
الجمال . وحتى جمال الشاب النضير كان يثير الناس في عصر اليزابث أشد إثارة .
وأجرى مارلو (في روايته دكتور فاوست) على لسان ميفستوفيلس . امتداحه لفأوست
على أنه أجمل من السموات . وتأرجحت قصائد شكسبير (Sonnet) تتألف من
١٤ بيتا) بين عشق المرء لأفراد جنسه وعشقه لأفراد الجنس الآخر . ولم يعد جمال
المرأة مجرد خيال شعري ، ولكنه ثمل سرى في الدم وفي الآداب وفي البلاط ،
وحول القراصنة إلى شعراء . وجمع نساء البلاط الظرف وخفة الدم إلى التجميل
والتطرية فسحرن ألباب الرجال كما أسرن قلوبهم . وكان في التواضع إغراء
بالاقتناص ومضاعفة لسلطان الجمال . وضاعت الاهتمامات إلى مريم العذراء وسط
استنكار العذرية والانتقاص من قدرها . وتفجرت الحب الرومانتيكى في الأغاني مع
حرارة الرغبة الممتنعة . وابتهج النساء إذ رأين الرجال يقتتلون من أجلهن ، وأسلمن
أنفسهن ، بالزواج أو بغيره ، لمن تكون له الغلبة . وكان من سمات اضمحلال
سلطان العقيدة أن موافقة الكنيسة أو مراسمها لم تعد الآن مطلوبة لصحة الزواج .
ولو أن الاعتراف به كان يعتبر إساءة للناموس العام ، تميزا له عن القانون .
وكانت معظم الزيجات تدبر عن طريق الوالدين . بعد إطراء متبادل لمزايا الطرفين ،
ومن ثم تصبح معبودة للساعة المشدودة ، ربة بيت متحرره من الأوهام . منصرفه
بكليتها إلى أولادها ومهامها الشاقة ، هكذا يعمّر الجنس البشرى .

وثمة انحلال خلقي أسوأ دمغت به الحياة العامة ، فقد نفثى في الوظائف الرسمية ابتزاز الأموال ، قلت أو كثرت ، وتغاضت عنه الزبائث ، كعذر لها عن عدم زيادة الرواتب (٢٥) . وكان أمين صندوق الحرب يحصل على ١٦,٠٠٠ جنيه سنويا علاوة على راتبه . وبالاحتيال القديم قدم الأزل ، كانوا يحتفظون بأسماء الجنود الموتي في قوائم الجيش ويضعون نخصصاتهم في جيوبهم ويبيعون الملابس المخصصة لهم (٢٦) . وكان الجندي يساوى وهو ميت أكثر منه وهو حي ، وقبض ذوو المناصب الكبيرة مبالغ ضخمة من فيليب الثاني ليوجهوا سياسة إنجلترا نحو أهداف أسبانيا (٢٧) . ومارس أمراء البحر القرصنة وباعوا الرقيق . وباع رجال الدين رواتب الكنيسة (٢٨) ، وكان يمكن إغراء الصيادلة بتسميم الأدوية والأطباء بوصفها للناس . وغش التجار في البضائع ، ووصل الأمر إلى فضيحة عالمية ، ففي ١٥٨٥ حدث من الغش في الأقمشة الصوفية وغيرها في إنجلترا أكثر مما حدث منه في أوروبا بأسرها (٢٩) ، وكانت الأخلاق العسكرية بدائية ساذجة . وكم من مرة حدث الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، فكان جزاؤه لإعمال الذبح في الجنود وفي غير المحاربين على حد سواء . وكان السحرة والعرافون يجرقون . كما كان الجزويت يؤخذون من فوق المشنقة ليقطعوا أربا (٣٠) . لقد جرت ينابيع الرحمة الإنسانية مستأنية في عهد الملكة الفاضلة إليزابيث .

٤ - العدالة والقانون

مازالت طبيعة الإنسان تنفر من المدنية ، على رغم القرون العديدة التي سادت فيها الديانات وقامت الحكومات ، وظلت تعبر عن الاستياء والاعتراض في سلسلة طويلة من الخطايا والجرائم ، لم تفلح النواين والأساطير والعقوبات في وقف سيلها . وكان في قلب مدينة لندن أربع مدارس للقانون هي The Inner Temple, The Middle Temple, Gray's Inn, Lincoln's Inn، تعرف في جملتها باسم دور الانصاء وأقام الطلبة فيها كما كانوا يقيمون في قاعات كليسات أكسفورد وكبريدج . ولم يسمح بالالتحاق بها إلا لدوى المحتد الكريم ، وكان كل المتخرجين فيها يقسمون اليمين على خدمة التاج . وكان البارزون منهم أو الذين يسهل قيادهم يصبحون قضاة في

محاكم الملكة . وارتدى القضاة والمحامون في أثناء تأدية عملهم أردية تدل على الهبة والوقار ، وكان عظمة القانون وجلاله يكمنان في خياطة الثياب .

وكانت المحاكم ، بالاجماع ، فاسدة . وعرف أحد أعضاء البرلمان قاضى الصلح بأنه : « حيوان يمكنه أن يستغنى بست دجاجات عن اثنا عشر قانونا » (٢٢) . وطلب فرنسيس بيكون مغريات أكبر . وفي رواية شكسبير قال الملك لير الذى روعه الحزن : « اكسوا الخطيئة بالذهب ، يتكسر سيف العدالة القاطع دون أن يؤذى أحدا » (٢٣) ، ولما كان القضاة يعزلون وفق مشيئة الملكة فانهم حسبوا لهذا حسابه في أحكامهم ، وقبض ذوو الخطوة لديها الرشوة ليغروها بالتدخل في قرارات المحاكم (٢٤) ، وظل نظام المحلفين معمولاً به ، إلا في تهمة الخيانة العظمى ، ولكن غالبا ما كان القضاة أو موظفو التاج يخوفون المحلفين ويكرهونهم على قضاء مآربهم بالتهديد (٢٥) . وكان هناك توسع في تعريف تهمة الخيانة العظمى لتشمل كل عمل يهدد حياة صاحب العرش أو جلاله . وكان نظر مثل هذه القضايا أمام محكمة قاعة النجم (The Star Chamber) — وهو مجلس شورى الملكة منعقدا على هيئة محكمة ليمارس سلطاته القضائية ، وهناك كان المتهم محروما من تحقيق المحلفين لقضيته أو المعارضة في أمر حبسه ، أو من محام للدفاع عنه ، بل كان عرضة للاستجواب المرهق أو التعذيب ، وكان يحكم عليه عادة بالسجن أو الإعدام .

وقام قانون العقوبات على العوائق أكثر منه على المراقبة والكشف عن الحقيقة . ولما كانت القوانين ضعيفة فقد باتت العقوبات صارمة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لأية واحدة من مائتى جريمة . منها الابتزاز بالتهديد ، وقطع الأشجار الصغيرة ، وسرقة أكثر من شلن واحد . وبلغ متوسط من شنقوا بسبب الجريمة ، سنويا ، فى إنجلترا المبتهجة ، فى عهد اليزابث ، ٨٠٠ شخص (٢٦) . أما الجرائم الصغرى فكان عقابها التعذيب بالمشهرة والمخلعة والجلد بالسياط ، وإحراق ثقب فى الأذن أو اللسان ، وقطع اللسان أو إحدى الأذنين أو اليدين (٢٧) . ولما كتب جون سنسبز ، وهو محام بيوريتانى ، نشرة يستنكر فيها اقتراح زواج اليزابث من ألسون ،

باعتبار هذا الزواج خضوعا أو استسلاما للكاثوليكية ، قطعت يده اليمنى بأمر القاضى ، فرفع جون الحدة الدامية ، ورفع بيده اليسرى قبعته ، ثم هتف « لتحي الملكة (٢٨) » وقدم فيليب سدى إلى الملكة احتجاجا على هذه الوحشية . واستشعر سيسل العار والحجل فعينه فى منصب حكومى ذى راتب كبير وجهد يسير . وكان التعذيب غير مشروع ، ولكن محكمة قاعة النجم استخدمته ، ولنا لنلاحظ أنه برغم أن آداب العصر كانت عميقة قوية ، فإن المستوى العام للمدينة العصور لم يبلغ مستوى المدنية فى إيطاليا أو أفنيون فى عهد بترارك ، وأقل كثيرا منه فى رومه على عهد أغسطس .

٥ - فى البيت

بدأت الحياة الإنجليزية بمحاولة التغلب على مشكلة وفيات الأطفال ، وكانت نسبها عالية ، وكان سير توماس براون من أعلام الطب ، ومع ذلك مات ستة من أولاده العشرة فى سن الطفولة (٢٩) . ثم كانت الأوبئة ، مثل « مرض العرق » ١٥٥٠ ، والطاعون الذى حل بالبلاط ١٥٦٣ ، ١٥٩٢ - ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ . ولا بد أن متوسط الأعمار كان منخفضا ، قدرته بعض الإحصاءات بثمان سنوات ونصف سنة (٤٠) . وكبر الناس وأدركهم الهرم بأسرع مما هو حادث الآن . أما الذين عمروا فهم الشجعان ذوو القدرة على الاحتمال الذين صلبت أعوادهم وقويت أعصابهم بمقارعة الموت ، من أجل الخدع الحرية والأسلاب .

وكانت الرعاية الصحية آخذة فى التحسن . وبدأ الصابون يكون ضروريا بعد أن كان ترفا . وحوالى ١٥٩٦ ابتدع سيجون هارنجتون مرحاضا فيه ماء جار . وكانت الحمامات الخاصة قليلة . واستخدمت معظم الأسرات حوضا خشبيا موضوعا أمام نار مكشوفة . وكان فى كثير من المدن حمامات عامة . وهى **Bath and Buxton** للطبقة العليا منشآت أنيقة للاستحمام . وقدمت « الدفيئات » (**Hot Houses**) حمام البخار ، وقدمت التسهيلات للأكلات واللقاءات الغرامية غير المشروعة ، وزودت بيوت الموسرين دون غيرهم بموارد مياه خاصة بهم فى منازلهم ، أما معظم الأسرات فكانت تلتمس الماء من قنوات عامة مفتوحة على ينابيع مزخرفة .

وبنيت البيوت في القرى والمدن من الآجر والجص ، تحت سقوف من الفش ، ولا يزال كوخ آن هاتاواى بالقرب من ستراتفورد — أون — أفون ، محتفظا به في حالة جيدة ، كنموذج لهذه المساكن . أما في المدن الكبرى فكانت البيوت متلاصقة عادة ، واستخدم في بنائها قدر أكبر من الآجر والحجر ، وكان لها سقوف من القرميد ، وكانت المشربيات المقسمة بأعمدة من الحجر والأدوار العليا الناتئة تلفت أنظار الذين لم يألّفوا رؤيتها . وكانت البيوت من الداخل مزدانة بالنقوش والأعمدة . وكانت المدفأة تضيف على الغرفة الرئيسية أو القاعة الكبرى جلالا وتزودها بالدفء ، كما كان السقف — من الخشب أو الجص — يقسم إلى رسوم متماثلة أو غريبة . وكانت هناك المداخل التي تنفث الدخان إلى الخارج ، وكان من قبل يلتمس له منفذا من ثقب في السقف . وكانت المواقد تساعد على تدفئة البيت . وكانت النوافذ الزجاجية شائعة آنذاك . ولكن ظلت الإضاءة في الليل بالمشاعل أو الشموع . وغطيت أرضية البيوت بالأسل والأعشاب ذات الرائحة الزكية عندما تكون طازجة ، ولكنها لا تلبث أن تصبح كريهة الرائحة ، وتؤوى الحشرات . وجاء السجاد بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما . وكانت الجدران تزدان بالأقمشة المزركشة بالصور والرسوم ، مما مهد الطريق لرسم اللوحات ، في عهد شارل الأول . واستخدم معظم الناس المقاعد الطويلة لخصين أو أكثر والكراسي ذات الأرجل الثلاث ، أما الكرسي ذو الظهر فكان ترفا اختص به الضيف الكريم أو رب البيت أو ربه ، ومن هنا جاء التعبير « يأخذ الكرسي ذا الظهر » بمعنى « يتراأس المجلس » ، وفيما عدا هذا كان الأثاث متينا رائعا . فكانت ، صواوين المائدة (البوفيه) والمنضدة وخزائن النفائس (دولاب الفضية) والصناديق الثمينة والأسرة ذات القوائم العالية تصنع وتحفر من خشب الجوز أو البلوط ، لتعمر قرونا طويلة . وكان السرير المزود بحشايا سميكه من الريش ، وبأغطية مطرزة ، وظلة حريرية (ناموسية) ، يتكلف ألفا من الجنيهات ، ويعتبر شيئا ثمينا يزهو به أهل البيت ويتوارثونه جيلا بعد جيل . وخلف البيت أو حوله ، في كل الطبقات تقريبا ، كانت توجد حديقة زاحرة بالأشجار والشجيرات ، تهيئ لهم الظل ، وتمدهم بالأزهار التي اعتاد النساء أن

يستعملنها في تزيين بيوتهن وشعورهن ، واعتاد شكسبير أن يعطر بهما شعره — زهرة الربيع ، الزنبق ، صريمة الجدى (شجيرة أزهارها غنية بالرحيق) وزهر العايق الحميل ، والقرنفل الملتحي ، والادريون (القطيفة) ، وزهرة كيوييد وزنبقة الوادى ، وغيرها كثير ، بالإضافة إلى الورود البيضاء أو الحمراء ويقول بيبكون : « ان الله سبحانه وتعالى غرس حديقة ، لولاها لسكانت الأبنية والقصور التي شيدها الإنسان فظة غير مقبولة (٤١) » .

وغالبا ما تكلفت زينة المرء أكثر كثيرا من زخرفة بيته ولم يزل أى عصر من العصور عصر اليزابث في فخامة الثياب . وكان من بين نصائح بولونيوس قوله : « إن ثمن الثياب مرهون بما تستطيع أن تدفع » . وعند الطبقات الموسرة اجتمعت كل الأزياء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، لتعوض الإنسان عما سلبته إياه الشهوة والزمن . وسخرت بورشيا من الشاب فالكينردج قائلة : « أظنه اشترى صدره من إيطاليا وسرواله القصير من فرنسا ، وقلنسوته من ألمانيا وسلوكه من كل مكان (٤٢) » . وضربت اليزابث مثلا ونموذجا للترزين ، إلى درجة أنه في عصرها تغيرت الأزياء مرارا وتكرارا ، لأن محاكاة الناس لها بشكل عام ، كادت تمحو الفروق الطبقيّة . وتبدى شخصية من شخصيات « أستمع جعجعة ولا أرى طحنا Much ado about Nothing » « الحزن والأسف على أن » تغير الأزياء يفنى من الثياب أكثر مما يفنيه الإنسان (٤٣) . وحاولت قوانين الانفاق أن تضع حدا لهذا الاضطراب والفوضى في حياة الملابس ، نصدر قانون ١٥٧٤ ليعالج « التبذير والضياع عند عدد كبير من الشبان » الذين يلبسون ما يملكون من أرض فوق ظهورهم . وحرّم هذا القانون على غير الأسرة المالكة ، والدوق والمركيز والارل ، لبس اللون الأرجواني ، أو الحرير أو القماش الموشى بالذهب ، أو فراء السمور ، كما حرم على غير البارونات وذويهم لبس الفراء والمخمل القرمزى . أو الأصواف المستوردة ، والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة أو اللؤلؤ (٤٤) ، ولكن سرعان ما أمكن التهرب من هذه القوانين ، لأن البرجوازية الطامعة استنكرتها لأنها مثيرة للاستياء والغضب فحسب ، بل لأنها كذلك تعوق التجارة . فألغيت في ١٦٠٤ .

وانخذت القبعات على أى شكل ومن أى لون ، من القطيفة أو الصوف أو الحرير أو الشعر الناعم الرقيق ، ووضع الناس قبعاتهم على رؤوسهم دائماً تقريباً ، خارج البيت أو البلاط ، وحتى فى الكنيسة كان الرجال يرفعون قبعاتهم - تمسكاً بالمراسم - عند الالتقاء بالسيدات . ولكنهم يلبسونها فوراً . واحتفظ الرجال بشعورهم الطويلة قدر ما احتفظت النساء بها . وأرخوا الحى غزيرة . ووضع الجنسان كلاهما حول الرقبة طوقاً مكشكشا وياقة من الكتان و « الكمبريكى Cambric » (قماش من القطن أو الكتان أبيض ناعم) موضوعة على اطار من الورق المقوى والأسلاك ، تبيست فى ثنيات أو طيات عريضة حادة ، « بمادة سائلة سموها النشا » (١٥) ، ظهرت فى إنجلترا آنذاك لأول مرة . وكانت كثرين دى مدينشى أدخلت هذه البدعة إلى فرنسا ١٥٣٣ بوصفها شيئاً للترين والزخرف . ولكن الزى السائد (موضوعة العصر) توسع فيها حتى جعل منها آلة تعذيب تصل إلى الأذنين .

وجعلت الملابس من النساء لغزاً لا يمكن النفاذ إلى كنهه إلى حين . ولا بد أن نصف يومهم كان يستغرق فى اللبس والخلع . ويتم تجهيز السفينة وتزويدها بكل ما يلزمها بأسرع مما تنزين المرأة (١٦) . حتى الشعر كان يمكن أن يلبس أو يخلع . لأن الزياىث رسمت لهم نموذجاً فى لبس الامة أو الشعر المستعار المصبوغ بلون خصلاتها الذهبية أيام شبابها . وكان الشعر المستعار شائعاً لأن النساء الفقيرات - كما قال شكسبير - كن يبعن خصلات شعرهن « بالميزان » (١٧) . وبدلاً من القبعات آثر معظم النساء قلنسوة بالغة الصغر أو شبكة شفافة تسمح بإبراز فتنة شعرهن . وكانت أدوات التجميل تصبغ الوجوه وتزجج الحواجب ، والأقراط تتدلى من الآذان ، والمجوهرات تتألق فى كل مكان . وكان الطوق المكشكش للنساء . مثل ما هو للرجال ، ولكن كان صدر المرأة فى بعض الأحيان عارياً إلى حد ما (١٨) . ولما كانت الزياىث ضامرة الصدر مستطيلة البطن ، فقد ابتدعت زيا تطول فيه السترة على شكل مثلث إلى رأس دقيق تحت الخصر المشدود . وكانت التنورة تمتد من الأوراك بواسطة الطوق الموسع . وكانت العباءة المصنوعة من قماش هفهاى بشكل محكم ، تغطي الأرجل ، وابتدعت الملكة الحواري الحريرية . وكانت التنورات تتدلى

حتى تمس الأرض ، والأكام مستفخة ، والقفازات مطرزة معطرة . وكانت السيدة تستطيع في الصيف أن تتحدث بالمروحة المزدانة بالجوهر ، ومن ثم تأتي بأفكار فيها من الرقة مالا تعبر عنه الكلمات .

ولكن الحياة في البيت نادرا ما كانت بملابس كاملة . وكان تناول الإفطار في الساعة السابعة والغذاء في الحادية عشرة أو الثانية عشرة . والعشاء في الخامسة أو السادسة . وهكذا ينقضي النهار . وكانت الوجبة الرئيسية يتناولونها قرب الظهر^١ ، وكانت وجبة زاخرة بألوان الطعام . وقال أحد الفرنسيين « إن الإنجليز يملأون بطونهم^(٤٩) » . وظلت الأصابع تقوم مقام الشوكة التي بدأ استعمالها في عهد جيمس الأول . وكانت الأطباق الفضية تزين البيوت الموسرة . وكان اختزانها بالفعل وقاء ضد التضخم . أما الطبقات الوسطى الدنيا فأنها استخدمت أواني من القصدير (البيوتر) ، واستخدم الفقراء أطباقا من الخشب وملاعق من مادة قرنية (من القرون) . وكان اللحم والسمك والحبز هي الأطعمة الرئيسية ، وكان كل من يداوم عليها تقريبا يعاني من داء النقرس . وكانت منتجات الألبان شائعة مألوفة في الريف لأن وسائل التبريد كانت لا تزال غير متوفرة في المدن . وكان الفقراء فقط يستخدمون الخضروات بكثرة لأنهم كانوا يزرعونها في أراضي حداثتهم . وكان البطاطس الذي جاء به والتر رالي أثناء رحلاته في أمريكا ، من إنتاج الحداثق ؛ لأنه لم يكن قد أصبح من محاصيل الحقول . واشتهر الإنجليز « بالبودنج » (نوع من الحلوى) يستطيعون أكله فوق الفاكهة التي يختمون بها طعامهم . وكان الإنجليز يقبلون على الحلوى ، قدر اقبالهم عليها اليوم . ولهذا كانت أسنان اليزابث سوداء .

وتطلبت هذه الأكلات الشهية بعض السوائل المرافقة : البيرة ، البيرة ، النبيذ أو عصير الفاكهة . ولم يكن الشاي والقهوة قد أصبحتا مشروبات إنجليزية . وشاع شرب الويسكي في أنحاء أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (وكان يسمى ماء الحياة) . وكان تقطيره من الحبوب في الشمال ، ومن النبيذ في الجنوب . وكان شرب الخمر بمثابة احتجاج على المناخ الرطب . وتوحى عبارة « ثمل كأنه لورد » ، بأن هذا العلاج كان يتمشى مع السلم الاجتماعي . وأدخل التبغ إلى إنجلترا على يد

جون هوكنز (١٥٦٤) ودريك ، وسير رالف لين ، وجعل رالى من التدخين عادة مألوفة فى البلاط ، وأخذ منه نفثة أو نفثتين قبل ذهابه إلى المشقة ، وكان التبغ فى أيام اليزابث غالى الثمن إلى درجة حالت دون انتشار التدخين ، وفى بعض التجمعات التى تسودها الألفة والبهجة ، كانوا يعمدون إلى تمرير غليون واحد على كل الضيوف حتى يستمتع كل منهم بنصيبه من التدخين وفى ١٦٠٤ شن الملك جيمس « هجوما عنيفا على التبغ » ، ناعيا ادخاله إلى إنجلترا محذرا من « سم معين » فيه . يقول : —

« ليس من أشد الحرق والقذارة أنه على المائدة ، وهى محل الاحترام والنظافة والتواضع : لا ينجل الناس من أن يتقاذفوا الغلايين وينفثوا الدخان ، الواحد منهم فى وجه الآخر . فينبعث الدخان القذر والرائحة الكريهة على الأطباق . ويلوث الهواء ؟ »

لقد انتشر استعماله فى كل زمان وفى كل مكان بين الناس على اختلافهم . . . لأنهم : على الأقل ، اضطروا إلى تناوله ، على كره منهم : خجلا من أن يرموا بالشذوذ . . . وفوق ذلك ، وهذا اثم كبير ، فإن الزوج لا ينجل من أن يكره زوجته الرقيقة الصحيحة الجسم النظيفة البشرة على هذا الخطر العظيم — التدخين — ففسد بذلك أنفاسها الزكية ، أو توطن النفس على أن تظل دوما فى عذاب الثمل . . . إنها عادة ضارة بالعينين ، كريهة للأنف ، مؤذية للمخ ، خطيرة على الرئتين . إن هذا الدخان الأسود الكريه أقرب الشبه بنار جهنم التى لا قرار لها (٥٠) .»

وبرغم هذا ، وبرغم الضرائب الباهظة ، كان فى لندن سبعة آلاف خانوت لبيع التبغ . ولم يحل اشعال الغليون ونفث الدخان محل الحديث والمناقشة ، فقد تحدث أفراد الجنسین بصراحة فى موضوعات يقتصر فيها الحديث الآن على قاعات التدخين وماتقى الشوارع ، أو على رجال العلم . وتنافس النساء مع الرجال فى حلف الأيمان التى تقارب الكفر والتجديف على الله . وفى الدراما فى عهد اليزابث يلتصق الدهرأت بالأبطال . وترقش التورية « المأساة » العنيفة . وكانت آداب السلوك

مكتافة أكثر منها مهذبة . وغالبا ما تدرجت الكلمات إلى لطحات . وجاءت آداب كما جاءت الأخلاق ، من إيطاليا وفرنسا ، كما جاءت الكتيبات التي عالجت قواعد السلوك واللياقة ، وحاولت أن تجعل من الأرستقراطيين سادة أفاضل ، ومن الملكات سيدات فضليات . وكانت أساليب التحية مسرفة في التعبير ، واقتربت بالتقيل غالبا . وكانت البيوت بما فيها من الأضواء وحفلات الابتهاج الصاخبة ، أكثر مرحا عن ذى قبل ، أيام الارهاب في العصور الوسطى ، وفيما بعد أيام البيوريتانية وما سادها من كآبة . وكانت الأعياد والمهرجانات كثيرة ، فأى شيء يمكن أن يبرر إقامة احتفال أو عرض ، فالزفاف ، أو الولادة ، بل حتى الجنائز ، قد تهى مناسبة للاحتفال ، أو على الأقل للولائم . ومارسوا الألعاب على اختلاف أنواعها في البيوت والملاعب ، وعلى نهر التاميز . وقد ذكر شكسبير « البلياردو » ، وتحدث فلوريو عن « الكركت » وسخر الناس من القوانين الزرقاء وأيام الأحد الزرقاء (قوانين متشددة سنها البيوريتانز بحرمون بها الرقص والألعاب والمهرجانات يوم الأحد . . .) وإذا كانت الملكة قد خطت الخطوة الحميدة السارة : فلم لا يترسم الناس خطاها ويحذونها ؟ لقد رقص كل الناس تقريبا : بما فيهم كما قال بيرتون « عجائز النساء والرجال الذين كان لهم من أصابع القدمين أكثر مما في الأفواه من أسنان » . وكان كل الإنجليز يغنون .

٦ — الموسيقى الإنجليزية ١٥٥٨ — ١٦٤٩

إن الذين لا يعرفون من إنجلترا إلا الفترة التي أعقبت البيوريتانية ، لا يمكنهم أن يحسوا بالدور الهيج الذي لعبته الموسيقى أيام اليزابث . فمن البيت والمدرسة والكنيسة والشارع والمسرح ونهر التاميز ارتفعت ألحان الموسيقى المقدسة أو المأجنة — القداسات ، الموسيقى الطباقية المتعددة النغمات ، القصائد الغزلية ، الأغاني الشعبية ، وأغاني الحب الرقيقة القصيرة . مثل تلك التي وجدت لها مجالا في روايات عهد اليزابث . وكانت الموسيقى برنامجا أساسيا في مناهج التعليم ، وخصص لها في مدرسة وستمنستر ساعتان في الأسبوع ، وكان في أكسفورد كرسي للموسيقى (١٦٢٧) وكان مفروضا أن يقرأ كل رجل مهذب الموسيقى ويعزف على كل بعض الآلات .

وفى كتاب توماس مورلى : « مقدمة واضحة ميسرة عن الموسيقى العملية » جاء ذكر رجل إنجليزى خيالى ساذج غير مثقف ، يعترف بنجمله وعاره ، فيقول :

« بعد العشاء جىء بكتب الموسيقى ، كما كانت العادة ، وقدمت إلى سسيده البيت شيئا منها ، وطلبت فى رفق أن أغنى ، فاعتذرت كثيرا ، وامتنعت ، وقلت وأنا صادق فيما أقول ، انى لا أعرف ، فتعجب كل الحاضرين ، وهامسوا متسائلين : كيف نشأ هذا الرجل ؟ » (٥١)

وكانت حوانيت الحلاقين تقدم للزبائن المنتظرين آلات موسيقية ليعزفوا عليها . وكانت الموسيقى فى عهد اليزابث ، فى معظمها ، علمانية ، وبقي بعض الملحنين ، من أمثال طاليس وبيرد وبل ، على مذهبهم الكاثوليكيى برغم القوانين ، وألفوا الموسيقى للطقوس الرومانية ، ولو أن تلك التأليف لم تكن تعزف علنا . واعترض كثير من البيوريتانيين على موسيقى الكنيسة باعتبار أنها تشتت أذهان المصلين وتصرفهم عن التقوى . وأنقذت اليزابث والأساقفة موسيقى الكنيسة فى إنجلترا ، كما أنقذها بالسترينا ومجلس ترنت فى إيطاليا . وساندت الملكة بعزيمتها المعهودة رؤساء المنشدين الذين نظموا الفرق الموسيقية الكبيرة والموسيقى الرسمية للكنيسة الملكية والكاتدرائيات . وأصبح كتاب الصلوات العامة ، مرجع النصوص الموسيقية لهائل للملحنين الإنجليز ، وكانت الصلوات الأنجليكانية تنافس الصلوات الكاثوليكية فى القارة فى فخامة فن تعدد الألحان ووقاره . وحتى البيوريتانيون أنفسهم ، منتهجين نهج كلفن ، أقرؤا انشاد جماعات المصلين للترانيم . وسخرت اليزابث منهم قائلة : « ان جنيف ترقص ، أما هؤلاء فقد ارتفقوا إلى مستوى الترائيل والتسابيح الكريمة » .

ولما كانت الملكة تحمل بين جنبها روحا دنيوية دنسة ، مولعة بالغزل والملق والملاطفة والتودد ، فقد كان من الملقول أن تكون القصيدة الغزلية هى مفعرة الموسيقى فى عهدها — أغنية حب فى طباق موسيقى — وهى جزء من أغنية لاتصاحبها الآلات الموسيقية . ووصلت القصيدة الغزلية من إيطاليا ١٥٥٣ . ففتحت الطريق .

وحاول مورلى أن يسهم فى هذا المجال ، وشرحها فى حوارهِ السهل الرشيق ، ودعا إلى تقليدها ، وثمة قصيدة غزلية لخمسة مغنين ، وضعها جون دلباى ، توحى بالأفكار الرئيسية فى هذه الأغانى .

واحسرتاه . أية حياة تعسة ، وأى موت هذا ،
حيث المحبوب الظلوم يسيطر ويتحكم !
ان نضارة أيامى تذبل وأنا فى ربيع العمر ،
وتلاشت أحلامى الجميلة تماما ، وحياتى تنصرم .
وتولت أفراحي الواحد بعد الآخر
وتركت أعانى سكرات الموت
من أجل تلك التى تحتقر آهاتى وأناثى .

آه ، انها لتهجرنى ، وتسكبت حبي
وهى التى من أجلها ، واحسرتاه ، أموت شاكيا ، وهى متحجرة القلب^(٥٢) .
وكان ولیم یرد شکسیر الموسيقى فى عهد الیزابث ، اشتهر بالقداصات والقصائد
الغزلية الملقوفة أو المعزوفة على الآلات ، والألحان على حد سواء . وكرمه معاصروه
على أنه « رجل عظیم جدير بالذكر » . وقال عنه مورلى « انه حظى من الاجلال
والاحترام ما يستحق معه أن يخلد اسمه بين الموسيقيين^(٥٣) » وكان فى مثل مكانته
العالية وتعدد براعته وجوانبه أورلندوجيون وجون بل Bull ، وهما عازفان على
الأرغن فى الكنيسة الملكية . واشترك هذان مع یرد ١٦١١ فى وضع أول كتاب
عن لوحة المفاتيح للموسيقى فى إنجلترا ، وهو كتاب Parthenia ، أو باكورة
أول موسيقى طبعت فى إنجلترا للعدراوية (وهى آلة موسيقية شبيهة ببيان صغير
بدون قوائم .) وفى نفس الوقت أكد الإنجليز شهرتهم فى تلحين الأغنية المنفردة
(مع آلة واحدة أو مغن واحد) ، ذات العذوبة الجميلة المعبقة بعبير اللريف
الإنجليزى ، وحظى جون دولند الذى اشتهر بالعزف على العود ، بالمدح والثناء من
أجل أغانيه ، وناقسه توماس كامبيون منافسة شديدة . ومن ذا الذى لا يعرف
مقطوعة كامبيون : « الكرز الناضج — Cherry Ripe ؟ »^(٥٤) .

وكان الموسيقيون ينظمهم اتحاد قوى : انفصمت عراه بسبب الصراع الداخلى أيام شارل الأول (١٥٥٠) ، وكادت الآلات تتنوع ، كما هي اليوم : العود ، القيثارة ، الأرغن ، العذراوية ، أو البيان الصغير ، موتره المفاتيح (آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح) أو البيان القيثارى . الفلوت (آلة نفخ موسيقية) ، الصافرة ، المزمار ، البوق ، المترددة ، النفير . الطبول ، وأشكال كثيرة من الفيول ، حل محلها الكمان الحالى . وكان العود مفضلا فى العزف . وفى مصاحبة الغناء ، أما العذراوية : وهى الأم المتواضعة للبيان ، فكانت محبوبة شائعة لدى السيدات الصغيرات ، وعلى الأقل قبل الزواج ، وألفت الموسيقى الآلية أساسا للعذراوية والفيول والعود . ولحن نوع من الموسيقى الحجرية (موسيقى الحجر : يعزفها بضعة موسيقيين أمام نفر قليل من الناس .) للعزف على عدة فيولات تختلف فى الحجم والطبقة . وفى مسرحية تنكرية للملكة آن زوجة جيمس الأول ، استخدم كامبيون فرقة من عازفى العود وموتره المفاتيح والبوق مع تسعة فيولات . (١٦٠٥) وقد انحدر إلينا كثير من الموسيقى الآلية التى وضعها بيرد ومورلى ودولند وغيرهم . وهى مؤسسة إلى حد بعيد على أشكال الرقص ، كما تتبع النماذج الإيطالية ، وتتفوق فى الجلال الرقيق المرفف أكثر منها فى القوة والطبقة . وتطورت الفوجة وفن مزج الألحان ، ولكن دون تنوع فى الأفكار الرئيسية أو الموضوع ، أو براعة فى تغيير طبقة الصوت والانتقال من نغمة إلى أخرى ، أو نشاط مقصود أو تناغم لوفى . ومع ذلك فإننا عندما تهرق أعصابنا بمشاق حياتنا الحديثة ، نجد فى موسيقى عصر اليزابث ما يخفف عنا ويريح أعصابنا ، فليس فيها كلام طنان منمق ، ولا تنافر مزعج ، ولا خواتيم راعدة ، انك لا تسع فيها إلا صوت شاب إنجليزى أو شابة إنجليزية تغنى فى حزن أو ابتهاج ، انشودة الحب السرمدى الذى تعترض العوائق سبيله .

٧ — الفن الإنجليزى ١٥٥٨ — ١٦٤٩

لم يكن للفن فى هذا العصر شأن يذكر . وأنتج بعض صناع المعادن بعض

المشغولات الفضية الجميلة ، مثل مملحة موشين للمائدة ، والنوافذ المصبغة الفاخرة مثل الموجودة في كنيسة سان جورج في وندسور . ودخلت صناعة زجاج الزينة الفينيسي حوالى ١٥٦٠ . وفاقته قيمة الأواني المصنوعة من هذا الزجاج قيمة مثيلاتها من الذهب أو الفضة . ولم يكن النحت وصناعة الخزف مشهورتين . وافتتح نيقولا هليارد مدرسة لرسم المنمنمات ، ومنحته اليزابث احتكار اخراج رسوم لها بهذا الأسلوب . أما رسامو الأشخاص فقد استقدموا من الخارج . فجاء فلدريجوزوتشارو من إيطاليا ، وماركوس جيرار وابنه الذى يحمل نفس الاسم من الأراضي الوطيفة . وخالف لنا الابن صورة مهيبة لوليم سيسل في ثياب متأقفة فضفاضة فخمة ، وهى التى يرتديها الفرسان الذين يحملون وسام ربطة الساق (٥٦) . وفيما عدا هذا لا توجد في إنجلترا لوحات أو رسوم عظيمة فيما بين هولبين ، وفانديك :

ولكن العمارة كانت فنا عظيما في إنجلترا في عهد اليزابث وجيمس . وتكون علمانية تماما . وبينما كانت أوروبا تناضل من أجل المذاهب الدينية ، أهمل الفن الدين كما أهمله السلوك . وفي القرون الوسطى ، حين تأصلت جذور أعمق للشعر والفن في السماء ، توفرت العمارة على بناء الكنائس ، وجعلت من الدور شكلا من أشكال سجون الحياة . وفي إنجلترا على عهد أسرة التيودور ، هجر الدين الحياة إلى السياسة ، وذهبت أموال الكنيسة إلى أيدٍ دنيوية ، وتحولت إلى صروح مدنية وقصور باذخة ، وتبعاً لذلك تغير الطراز . وفي ١٥٦٣ عاد جون شوت Shute من إيطاليا وفرنسا مسرعا مع (أفكار) فتروفوس وبالاديو ، وسرليو . ونشر على الفور « الأسس الأولى والهامة للعمارة » يمجّد الطرز الكلاسيكية القديمة . ومن ثم انتقل إلى إنجلترا احتقار إيطاليا للفن القوطى ، وكافحت الأعمدة الرأسية القوطية لتجد لها متنفسا وسط أفقيّات النهضة التى تطوقها .

إن هذا العصر يستطيع أن يفاخر ببعض المنجزات الجميلة في العمارة المدنية : بوابة الشرف في كلية كايوس ، والساحة الرباعية الزوايا بكلية كلار ، في كمبرج ، ومكتبة بودليان في أكسفورد ، وسوق الأوراق المالية في لندن ، واحدى دور القضاء المسماة Middle Temple . ولما كان المحامون منذ أيام ولزى : قد حلوا

حل الأساقفة في إدارة البلاد في إنجلترا ، فقد كان من اللائق أن تكون تحفة النهضة المعمارية في عهد اليزابث هي القاعة الكبرى في مدرسة الحقوق التي كملت في الدار سابقة الذكر ١٥٧٢ . ولم يكن في إنجلترا كلها أشغال خشب أجمل من الحاجز المصنوع من خشب البلوط في الطرف الداخلي لهذه القاعة . وقد دمرته القنابل في الحرب العالمية الثانية .

وحالما تهيأت الأسباب لأقطاب عصر اليزابث ، شادوا قصورا نافسوا بها قصور الاقطاع الفرنسي على نهر اللوار . فشاد سيرجون ثين Thynne قصر لونغليث ، واليزابث كونتيسة شروزيبرى قاعة Hardwick ، وبني تومارس ارل سفوك Suffolk قصر Audley End الذي بلغت تكاليفه ١٩٠ ألف جنيه « حصل عليها أساسا من الرشا الأسبانية (٥٧) » . وشيد سير ادوارد فيلبس قصر مونتاكوت على طراز عصر النهضة البسيط غير المبالغ في زخرفته ، كما بني سير فرانسيس Willoughby قاعة Wollaton . كما أنفق وليم سيسل بعض ما جمع من مال في ابتناء قصر ضخم بالقرب من ستامفورد ، وأنفق ابنه روبرت ما يقارب هذا القدر على تشييد قصر هاتفيلد . الذي يعتبر بهوه الطويل القائم على أعمدة ، أضخم الأجزاء الداخلية في العمارة في ذلك العصر . ومثل هذه الأبهاء الطويلة المقامة على أعمدة عالية ، حلت في قصور عهد اليزابث محل القاعة الخشبية العظيمة في قصر مالك الأرض . ان المداخلن الكبيرة والأثاث الضخم المصنوع من خشب الحوز أو خشب البلوط ، والمدرج الفخم والدرايزين المنقوش ، والسقوف الخشبية — نقول إن هذه كلها ، هيأت لغرف هذه القصور من الدفء والعظمة ما كان ينقص الغرف الأكثر تألقا في القصور الفرنسية ، ومبلغ علمنا أن مصممي هذه القصور كانوا أول من حصلوا على لقب مهندس معماري . ان اللوحة المنقوشة على ضريح روبرت سميثسون Smythshon . الذي أنشأ قاعة وللاتون ، تسميه « البناء البارع » . أما الآن ، وأخيرا ، فقد وجدت المهنة العظيمة اسمها الحديث (الهندسة المعمارية) .

كذلك أصبح الفن الإنجليزي في تلك الأيام فنا شخصيا ، حيث طبع الرجل عمله بطابع شخصيته وإرادته . ولد انيجو جونز في سميثفيلد ١٥٧٣ ، وأظهر في شبابه

ميلا إلى التصميم حدا بأحد النبلاء (ارل) أن يبعث به إلى إيطاليا (١٦٠٠) ليدرس عمارة عصر النهضة . ولما عاد إلى إنجلترا ١٦٠٥ أعد مناظر كثير من المسرحيات التنكرية للملك جيمس الأول وزوجته الدنمركية ، وزار إيطاليا ثانية (١٦١٢) — (١٦١٤) وعاد متحمسا للقواعد المعمارية القديمة التي سبقت له دراستها في ترجمتها الانجليزية للمهندس المعماري الروماني قثروفيوس (القرن الأول قبل الميلاد) ، والتي وجد خير مثال لها في أبنية بللاديو ، وبروتزي ، وسان ميشيلي ، وسانسوفينو في فينيسيا وفيشنزا . ونبل هذا الخليل الشاذ من الأشكال الجرمانية والفلمنكية والفرنسية والإيطالية التي كانت قد سيطرت على العمارة في عصر اليزابث . واقترح طرازاً خالصاً ، يمكن فيه الاحتفاظ بالنظم الدورية والآيونية والكورنثية متفرقة أو مجمعة في تتابع ووحدة متجانستين .

وفي ١٦١٥ عهد إليه بكل الإنشاءات الملكية بوصفه مشرفاً عاماً على الأعمال . ولما احترقت قائمة الولايم في قصر هويتول ودمرت ١٦١٩ ، عهد إلى جونز بتشييد قاعة جديدة للملك . فوضع تصميم مجموعة ضخمة من المنشآت — ١١٥٢ × ٨٧٤ قدماً في جملتها — ولو اكتمل بناؤها لحيأت لعاهل بريطانيا قصراً أوسع بكثير من اللوفر أو التويلري أو الاسكوريال أوفرساي . ولكن جيمس أثر أن يعيش يومه عن أن يبني للقرون . واقتصر الاتفاق على قاعة الولايم الجديدة ، التي لم يتوفر لها ما قصد من أهبة ، فباتت مظهراً كاذباً غير جذاب للخطوط القديمة وخطوط عصر النهضة . ولما طلب رئيس الأساقفة لود من جيمس الأول اصلاح كاتدرائية سانت بول القديمة ، ارتكب المهندس جريمة تغطية صحن الكنيسة القوطي الطراز بمظهر خارجي من طراز عصر النهضة ، ولحسن الحظ دمر الحريق الكبير الذي حدث ١٦٦٦ هذا المبنى . وحلت واجهات جونز المأخوذ تصميمها عن بللاديو . محل الطراز التيودوري . وسادت في إنجلترا حتى أواسط القرن الثامن عشر .

ولم يخدم جونز الملك شارل الأول بوصفه كبير مهندسيه فحسب ، بل انه تعلم كيف يحب هذا الرجل المنكود ، بشكل واضح ، إلى حد أنه عندما نشبت الحرب الأهلية دفن مدخراته في Lambeth marshes وهرب إلى هامبشير (١٦٤٣) .

وقبض عليه جنود كرومول هناك ، ولكنهم أبقوا على حياته مقابل ١٠٤٥ جنيه^(٥٨). وفي أثناء تغيبه عن لندن وضع تصميم قصر ريفي في ولتشير من أجل ارل بمبروك ، كانت واجهته من طراز عصر النهضة البسيط ، أما الداخل فكان آية في الفخامة والأناقة ، فان القاعة « المزدوجة التكعيب » — ٦٠ × ٣٠ × ٣٠ قدما ، قيل بأنها أجمل قاعة في إنجلترا^(٥٩). ومذ استنفذت الحيوش الملكية ثروات الأرستقراطية ، فقد جونز الرعاية والحب والألفة ، وانزوى وأفل نجمه ، ومات فقيرا ١٦٥١ . لقد غلب النعاس على الفن ، على حين أعادت الحرب تشكيل الحكومة الجديدة في إنجلترا .

٨ — الرجل في عهد اليزابث

كيف نفهم الرجل الإنجليزي على عهد اليزابث من المواطن البريطاني المزعوم أنه رزين صامت ، والذي عهدناه في شبابنا ، وهل يمتن أن يكون الخلق القومي من صنع الزمان والمكان والتغير ؟ لقد اعترضت البيوريتانية والميثودية (المنهجية — حركة اصلاح الكنيسة الانجليزية في النصف الأول من القرن الثامن عشر) بين العصرين والنمطين : قرون سادت فيها مدارس ايتون ، وهارو ، ورجبي ، وعهود الغزاة الطائشين الذين يخمدون أنفاس الناس حين يسيطرون .

لقد كان الرجل الانجليزي في عهد اليزابث سليل النهضة تماما . وفي ألمانيا قهر الاصلاح الديني النهضة ، وفي فرنسا نبذت النهضة الاصلاح الديني . وفي إنجلترا اندمجت الحركتان كلتاهما . فقد انتصر الاصلاح الديني في حكم اليزابث ، وانتصرت النهضة في شخصها هي . وكان ثمرة بعض البيوريتانيين من ذوى الحس المتبلد ، ولولم يكونوا صامتين ، ولكنهم لم يتركوا الباب . ولكن كان الرجل المهيمن في ذلك العصر شعلة من نشاط ، متحررا من المبادئ والتعاليم والعوائق العتيقة ، ولولم يكن مرتبطا بشيء جديد بعد ، ولم يكن ثمرة حدود لطموحه وأطماعه ، وكان متطلعا إلى تنمية قدراته ، لا يقعه شيء عن المرح ، يتذوق الآداب إذا كانت تنبض بالحياة ، ميالا إلى العنف في العمل وفي الحديث ، ولكنه ، وسط

كلامه المنمق الطنان ورذائله وقساوته ، يجاهد ليكون سيدا مهذبا . وتأرجح مثله الأعلى بين صفات الكياسة والمجاملة واللفظ المحببة إلى النفوس والتي ذكرها كاستليونى فى كتابه « رجل البلاط » وبين ما جاء به ماكيافللى فى كتابه « الأمير » من لا أخلاقيات لا تعرف الرحمة إليها سيلا . لقد أعجب بسدى ، ولكنه تاق إلى أن يكون مثل دريك .

وشقت الفلسفة طريقها فى شرح العقيدة الدينية المهاوية . وكانت أحسن العقول فى ذاك الزمان هى أشدها ارتباكا وحيرة . وكانت هناك نفوس محافظة سليمة العقيدة ، ونفوس وديعة مجبولة على الحزن ، وفى وسط هذا التدفق الذى لا يتوقف كان ثمة رجال أفاضل مثل روجر أسكام . ولكن تلاميذهم كانوا فى بلجة المغامرة ، وإليك ما يقوله جبرائيل هارفى عن كبردج :

تعلموا الإنجيل ، ولم يعوه أو يحفظوه ، والمبدأ المسيحى فاتر ضعيف ، وليس ثمة شىء حسن إلا بنسبته إلى شخص ما . وباختصار ألغى قانون الطقوس الرسمى ، وأبطل قانون القضاء تماما من الوجهة العملية ، وتخلّى الناس عن القانونى الأخلاقى ، وألح الجميع فى طلب الجديده ، من الكتب والأزياء والقوانين ، وألح بعضهم فى طلب شموات جديدة ، وجهنم جديدة أيضا ، وفى كل يوم تظهر آراء جديدة مشكلة حديثا ، فى الهرطقة واللاهوت والفلسفة والإنسانية والسلوك . . ولم يكن الشيطان مكروها قدر كراهية الناس للبأبا (٦٠) .

وكان كوبرنيكس قد قلب العالم ، وأطلق الأرض مندفعة هائمة فى الفضاء ، وجاء جيوردانو برونو إلى أكسفورد ١٥٨٣ وتحدث عن الفلك الحديث وعن العوالم اللانهائية ، وعن الشمس التى تفنى بفعل حرارتها ، وعن الكواكب السيارة التى تتلاشى فى ضباب ذرى . وأحس شعراء مثل جون دون ، ان الأرض تنساب من تحت أقدامهم .

وفى ١٥٩٥ شرع فلوريو فى نشر ترجمته لمونتاني . ولم يكن ثمة شىء يقينى بعد ذلك . وامتأ الناس بالشك ، وكما أن ماراو هو مكيافللى ، فان شكسبير هو

مونتاني . وعلى حين شك الرجال العقلاء ، كان الشبان الصغار يخططون . وإذا بدا أن السماء ضاعت في سحابة فلسفية ، فيمكن الشباب أن يعقدوا العزم على امتصاص الحياة جافة ، ويختبروا كل الحقيقة مهما تكن مميتة . وكل الجمال مهما يكن سريع الزوال ، وكل القوة مهما تكن سامة ، وهكذا رأى مارلو في فاوست وتامبورلين .

إن انتزاع الأفكار القديمة . وتحرير العقل ليعبران تعبيرا جبارا عن الآمال والأحلام الجديدة ، وهما اللذان خلدا عهد اليزابث في إنجلترا . وماذا كان بهما من أمر منافساتها السياسية ، ونزعاتها الدينية وانتصاراتها الحربية ، إذا انحصر أدب عصرها في تلك الأشياء العابرة ، ولم يعبر عن تطلعات النفوس المفكرة في كل عصر . وحيرتها ونياتها . إن كل تأثيرات هذا العصر المثير انتهت إلى نشوة لإنجلترا على أيام اليزابث . فإن رحلات الغزو والكشف التي وسعت الكرة الأرضية والسوق والعقل ، وثراء الطبقة المتوسطة الذي وسع مجال المشروعات وأهدافها ، والكشف عن الآداب والفنون الوثنية ، وجيشان الإصلاح الديني ، ونبذ النفوذ البابوي في إنجلترا . والحوار اللاهوتي ، تلك التي ساقى الناس عن غير عمد ، من العقيدة إلى العقل ، والتعليم . والاقبال المتزايد على الكتب والمسرحيات ، والسلم الطويل المفيد ، ومن ثم التحدى المثير والنصر الباهر على أسبانيا ، والتصعيد العظيم في الثقة في قوة الإنسان وفكره ، تلك كلها كانت الحوافز التي استحققت صعود إنجلترا في مراقى العظمة والمجد ، وتلك هي الأصول التي ثبت منها شكسبير . فالآن ، وبعد انقضاء نحو قرنين من الزمان منذ عهد تشوسر ، اندفعت إنجلترا في لجة من النثر والشعر والدراما والفلسفة ، وتحدثت جهرا في شجاعة إلى العالم بأسره .

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - الكتب

كانت الكتب يتزايد عددها بشكل رهيب ، حتى قال برنابى رتش فى ١٦٠٠
« ان من الأمراض الفظيعة فى هذا العصر هو هذا السيل الضخم من الكتب التى
تثقل كاهل العالم غير القادر على هضم هذا القدر الكبير من المادة التافهة التى تخرج
إليه كل يوم » كذلك كتب روبرت بيرتون (١٦٢٨) : « إننا مهددون بفوضى وتشويش
لا حد لهما من الكتب التى ترهقنا ، فتصاب أعيننا بسبب القراءة ، وتتألم أصابعنا
بسبب تقليب الصفحات (١) » . وهذان الشاكيان كلاهما من مؤلفى الكتب .

إن النبلاء ، بعد أن تعلموا القراءة ، أجزلوا العطاء وبسطوا رعايتهم على
هؤلاء المؤلفين الذين كانوا قد كرموهم وتملقوهم بأهداء مؤلفاتهم إليهم . وكان
سيسل ، وليستر ، وسدن ، وراى ، واسكس ، وسوثبتون ، وارل ودوقة
بمبروك . كان هؤلاء جميعا زعاة وحماة أفاضل أقاموا بين النبلاء الإنجليز وبين
المؤلفين علاقة استمرت حتى بعد أن انتهر جونسون راعيه لورد تشستر فيلد ،
وكان الناشرون ينفقون المؤلفين نحو ٤٠ شلنا عن كل كراسة ، ونحو خمسة جنيهات
عن الكتاب ، وسعى بعض المؤلفين إلى أن يعيشوا على أقلامهم . وظهرت فى
إنجلترا هذه الصناعة البائسة ألا وهى « صناعة الأدب » وكانت المكتبات الخاصة
كثيرة لدى الأغنياء . ولكن المكتبات العامة كانت نادرة . وفى طريق العودة إلى
الوطن من قادنس ١٥٩٦ ، توقف اسكس فى فارو بالبرتغال ، واستولى على مكتبة
الأسقف جيروم أوزوريوس ، وأهداها إلى سيرتوماس بودلى الذى ضمها إلى
مكتبة بودلى التى وهبها لجامعة أكسفورد ١٥٩٨ .

وكانت حياة الناشرين أنفسهم قلقة مضطربة ، خاضعة لقوانين الدولة وهوى الجمهور أو نزواته . وكان منهم في إنجلترا أيام اليزابث ٢٥٠ ، حيث كان النشر وبيع الكتب حرفة واحدة . وقام معظمهم بعملية الطباعة لأنفسهم ، لأن الفصل بين الطباعة والنشر بدأ حوالى نهاية عصر اليزابث . واتحد الناشرون والطابعون وباعة الكتب ١٥٥٧ في « شركة القرطاسية » ، وأنشأ تسجيل المطبوعات في هذه النقابة « حق الطبع » ، على أن هذا لم يحم المؤلف بل الناشر فقط . وطبيعى أن هذه الشركة لم تسجل من الكتب إلا ما حصل على ترخيص قانونى بطبعه . فقد كان يعتبر جريمة كتابة أو طبع أو بيع أو اقتناء أية مادة تسمى إلى سمعة الملكة أو الحكومة ، كذلك نشر أو استيراد كتب الإلحاد أو المراسيم والرسائل البابوية ، أو اقتناء أية كتب تؤيد سيادة البابا على الكنيسة الإنجليزية^(٣) . وكان ثمة جملة معاذير لحرق هذه المراسيم . وفوضت « شركة القرطاسية » هذه في تفتيش كل دور الطباعة وإحراق أية مطبوعات غير مرخص بها ، وسجن ناشريها^(٤) . وكانت الرقابة على المطبوعات في عهد اليزابث أقصى منها في أى وقت قبل الإصلاح الدينى . ولكن الأدب ازدهر ، كما شحذت العقول في فرنسا في القرن الثامن عشر ، بفضل مخاطر الطباعة .

وكان العلماء قليلين ، وكان عصر خلق وابداع أكثر من أن يكون عصر نقد ، وكان تيار الحركة الإنسانية (التوكيد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل) قد جف معينه في تلك السنين التى حفلت بالاهتمام باللاهوت . وظل معظم المؤرخين من كتاب الحوليات ، يقسمون مدوناتهم حسب السنين .. ولكن ريتشارد نولز Knolles أدهش برجلي براعته النسيية في كتاب « التاريخ العام للأتراك » ١٦٠٣ . وأضاف « حوليات » رافائيل هولنشد على صاحبها مزيدا من الشهرة لم يبذل فيه جهدا ، ذلك أن هذه الحوليات أمدت شكسبير بسير ملوك إنجلترا . واصطبغت « حوليات إنجلترا » (١٥٨١) بلحون ستو Slow « بظلال من الحكمة ، ودعوات إلى الفضيلة وتنفير من الحقائق المرذولة^(٥) » ، ولكن طابعها العلمى يرقى له ، وأسلوبها قوى مؤثر . وكان كتابه « استعراض لندن » ١٥٨٠ أدق بحثا وأوسع علما ، ولكنه لم يدر عليه ربحا ، وكان حريا به في سنن شيخوخته أن يمنع رخصة

للتسول^(٦) . وفي لغة لاتينية جيدة سجل ولیم کامدن « جغرافية إنجلترا ومناظرها وآثارها » في كتابه « بريطانيا » ١٥٨٢ . وفي كتابه « حوليات تاريخ إنجلترا في عهد اليزابث » (١٥ - ١٦٢٧) الذى بنيت قصته على دراسة واعية للوثائق ، مجد کامدن الملكة العظيمة دون حساب ، وامتدح سبنسر وأثنى على روجر أسكام ، ولسكنه حزن لموت مثل هذا العالم الجليل فقيرا معدما بسبب حبه للعب للرد ومصارعة الديكة^(٧) .

وترك أسكام عند موته ١٥٦٨ بوصف أنه كان سكرتيرا للمارى اللعينة ومعلما خاصا لاليزابث ، أشهر الرسائل الانجليزية في التعليم ، وهى « المعلم » (١٥٧٠) وموضوعها الأصلى تعليم اللاتينية ، ولكنها تضمنت في لغة إنجليزية قوية بسيطة ، دعوة إلى احلال الرحمة المسيحية محل صرامة كلية ايتون في التعليم . وروى أسكام كيف أنه كان يتناول الغداء يوما مع بعض عظماء الرجال في حكومة اليزابث ، وتطرقت المناقشة إلى موضوع التعليم في نقد لاذع ، وكيف أن سيسل آثر الوسائل الرقيقة ، وكيف أن سير ريتشارد ساكفيس اعترف سرا لأسكام « بأن معلما أحق صرفه عن حب التعليم بأسره ، خوفا من الضرب^(٨) » .

إن أكبر وأنفع مهمة يضطلع بها العلماء الانجليز كانت إخصاب العقل الانجليزى بالفكر الأجنبى . وفي النصف الثانى من القرن السادس عشر اكتسحت البلاد موجة من الترجمة ، من اليونان ورومه وإيطاليا وفرنسا . وكان على هوميروس أن ينتظر حتى ١٦١١ لجورج ، تشابمان وربما أسهم عدم وجود الترجمات الانجليزية للروايات اليونانية في صيغ دراما عصر اليزابث بالرومانتيكية أكثر منه بالشكل التقليدى القديم ، ولكن كانت هناك ترجمات لكتاب تيوكريتس « القصائد الرعوية » ، وملحمة موزائيس Hero and Leander وكتاب ابكتيتس Enchiridion ، ولكتابى الأخلاق والسياسة لأرسطو ، وكتابى زينوفون Cyropaedia , Oeconomicus . وخطب ديموستين وايزوقراط ، ومؤلفات هيرودوت وبوليبيوس وتيودور الصقلى وجوزيفس وأبيان في التاريخ ، وقصص هليودوروس ولونجوس ، كما كان هناك ترجمة عن الفرنسية

قام بها سير توماس فورت لكتاب بلوتارك « السير » . وعن اللاتينية نقلت كتب فرجيل وهوراس وأوفيد ومارشال ولوكان ، وروايات بلوتوس وثيرنس وسنكا . ومؤلفات ليفي وسالوست وتاسيتس وسوتونيس في التاريخ . وعن الإيطالية نقلت قصائد بنزارك (Sonnets) Filocopo and Fiammetta لبوكاشيو (ولكن لم يترجم ديكامرون حتى ١٦٢٠) ، ومؤلفات جوتشيارديني ومكيافلي في التاريخ . وأشعار بويارد وواريوستو ، وكتاب كاستليونى « آداب السلوك » ، وكتاب تاسو عن تحرير أورشليم ، وكتاب جواريني « Pastor fido » ومجموعة قصص خرافية لباندللو وآخرين دونت في مجموعات مثل كتاب وليم بينتر Palace of Pleasure (١٥٦٦) ، ولم ينقل كتاب مكيافلي « الأمير » حتى ١٦٤٠ ، ولكن مادته كانت معروفة لرجال عصر اليزابث . ويذكر جبرائيل هارفى أن جامعة كمبردج نبذت دونز سكوتس وتومان الأكويينى وغيرهما من رعييل العلماء واستبدل بهم مكيافلي وجان بودان^(٩) . وترجم عن الأسبانية واحدة من أطول القصص الغرامية الخيالية Amadis de Gaula ، وواحدة من أقدم القصص الأسبانية Lazarillo de Tormes وواحدة من الروايات الرعوية القديمة The Diana of Montemayor . وكان ما أخذ عن الفرنسية قصائد البلياد Pleiades (بنات أطلس السبع اللائى وضعهن زبوس بين النجوم) ومقالات مونتاني التى ترجمها جون فلوريو إلى لغة إنجليزية رائعة (١٦٠٣) ٤

وكان أثر هذه الترجمات على الأدب فى عصر اليزابث عظيما جدا ، وبدأت التلميحات القديمة — وظلت لمدة قرنين من الزمان — ترهق الشعر والنثر الإنجليزين . وكانت اللغة الفرنسية معروفة لدى معظم المؤلفين الجديدين بالذكر فى عهد اليزابث ، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الترجمات . ولقد سحرت إيطاليا لإنجلترا ، واتجه الشعر الرعوى الإنجليزى بأفكاره إلى سانا زارو وتاسو وجواريني . والقصائد الإنجليزية المشهورة بالسونيت إلى بترارك ، والأدب القصصى إلى بوكاشيو والقصص ، وهذه الأخيرة هى التى أمدت مارلو وشكسبير ووبستر وماسنجر وفورد بالفكر الرئيسية فى رواياتهم . كما زودت الروايات فى عهد اليزابث بمواقع إيطالية . إن

إيطاليا التي نبذت الإصلاح الديني ، كانت قد ذهبت بعيدا عنه لتحطم اللاهوت القديم ، حتى الأخلاق المسيحية ، وعلى حين أن العقيدة في عهد اليزابث نازعت الكاثوليكية والبروتستانتية ، نجد أدب ذلك العصر ، وقد تجاهل هذا الصراع ، عاد إلى روح النهضة وحيويتها . ولما أصابت إيطاليا النكسة لبعض الوقت ، بسبب تحول طرق التجارة ، أسلمت مشعل الميلاد الحديد لأسبانيا وفرنسا وإنجلترا .

٢ - حرب الأدباء

وفي وسط هذه الوفرة والحيوية في عصر اليزابث ، كان ثمة فيضان جارف من الشعر والنثر كليهما . ولنا لنعرف أسماء مائتين من الشعراء في عهد اليزابث ، ولكن النثر كان هو الذي يجذب انتباه الناس ويطرق أسماعهم بقوة في هذا العصر في إنجلترا ، حتى أخرج سبنسر « فيري كوين » (The Faerie Queen) (١٥٩٠) .

وكان جون ليل أول من عمد إلى هذا اللون في قصته الخيالية يوفيس Eupheus أو « تشریح الذكاء » في ١٥٧٩ . وعرض ليل أن يظهر كيف أن العقل السليم والخلق الكريم يمكن تكوينهما عن طريق التعليم والتجربة والأسفار والنصح الحكيم . ويوفيس (الكلام الطيب) شاب آثني تقدم مغامراته مسرحا لمخادعات مسهبة عن التعليم والسلوك والصدقة والحب والاحاد - ومما جعل هذا الكتاب أكثر الكتب رواجاً في عصره ، هو أسلوبه - فيض من الجناس والطباق والتشبيه والتورية ، والحمل المتوازنة والاشارات القديمة والأفكار ، مما هاج حاشية اليزابث ، وأصبح الأسلوب السائد لمدة جيل ، مثال ذلك :

إن هذا الشاب الأنيق الذي يتحلى بالذكاء أكثر مما يملك مالا ، بل يملك من المال أكثر ما لديه من الحكمة ، ومذ يرى أنه لا يقل عن غيره من حيث الأفكار الجميلة ، فقد حسب أنه يفوق الجميع في التصرفات الأمينة . إلى حد حسب معه نفسه صالحا لكل شيء ، ومن ثم لم يتوفر على شيء قط (١٠) .

ولا يعرف على وجه التحديد من أين أصاب ليلي هذا المرض ، من ماريني الإيطالي ، أو من جيفارا الأسباني أو من « بلاغة » الفلاندرز ، فهذا محل مناقشة ، ورحب ليلي على أية حال بهذه السموم العقلية ونقلها إلى كثير من رجال اليزابث . فأفسدت كوميديات (ملهاوات) شكسبير الأولى ، وتركت مسحة منها على أعماق بيكون ، وأثرت في اللغة .

لقد كان العصر يعنى باللفظ . وبذلك جبرائيل هارفي — من آسائذة كمبردج — كل نفوذه ليحول الشعر الإنجليزى من الثبرات والقوافى إلى الأوزان القديمة المبنية على التفاعيل أو المقاطع . وبتحريض منه أسس سدنى وسبنسر فى لندن ناديا أدبيا الآريوباجوس areopagus ، كافح لبعض الوقت ليحول النشاط والطاقة الحيوية فى عصر اليزابث إلى أشكال فرجيل وصيغه . وقلد توماس ناش ، هازنا ، أوزان هارفى السداسية التفاعيل « التى تشبه فى وقعها الوثب على قدم واحدة » ، وسخر منها واعتبرها غير جديرة بالنظر والاهتمام فعلا . ولما جمع هارفى بين الشتائم والسباب والخذلة فى التنديد بأخلاقيات جرين صديق ناش ، أصبح الهدف الرئيسى لحرب الكتيبات التى جالت إلى إنجلترا كل ما عرف فى عصر النهضة من تراشق وذم وقدح .

إن حياة روبرت جرين لتمثل ألفا من سير الحياة الأدبية البوهيمية التى لا تقيم وزنا للأعراف والقيم ، إبتداء من فيللون Yillon (شاعر فرنسى غنائى فى القرن الخامس عشر) إلى فرلين Verlaine (شاعر رمزى فرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان رفيق دراسة لهارفى ومارلو فى كمبردج) ، وسط « أوغاد لا يقلون عنه دعارة وفجورا » ، « أفنى معهم زهرة شبابه » :

كان يملؤنى الزهو والتهى والغرور . كانت الدعارة رياضتى اليومية ، وادمان الشراب ملذتى الوحيدة . . . وكنت أبعد ما يكون عن أن أرجع إلى الله ، وقليل ما كنت أذكره . ولكنى كنت أجد لذة كبيرة فى الحلف والتجديف على الله . وإذا حققت رغبتى وأنا على قيد الحياة ، فأنى راض قانع ، فلاأخذ طريقى إلى الموت

بأية حال ، انى لم أخش قضاة المحكمة أكثر مما أخشى حساب الله (١١) .

وجال جريرين فى إيطاليا وأسبانيا ، ويقص علينا أنه هناك « رأى ومارس من أعمال الخسة والجرائم ما يندى الجبين لذكره . » فلما عاد أصبح شخصية بارزة فى حانات لندن ، بشعره الأحمر ولحيته المحددة وجواربه الحريرية وبطانته الخاصة . وتزوج وكتب كتابة رقيقة عن الاخلاص فى الزواج ونعمته . ثم هجر زوجته من أجل سيدة أنفق عليها كل ثروة الزوجة . ومن معرفته الخاصة المباشرة وصف أقالين حياة الرذيلة والجرام فى كتاب *A Notable Discovery of Cozenape* (١٤٩١) كشف فيه الغطاء عن الدجالين والمحتالين ، وحذر فيه زوار لندن القرويين من أحابيل المخادعين والغشاشين فى ورق اللعب ، والنشالين والقوادين والعاهرات . مما حدا بهؤلاء أن يحاولوا قتله . ولأنه لما يبعث على الدهشة أن جريرين ، مع انغماسه فى حياة الرذيلة إلى هذا الحد ، وجد وقتا ليكتب فى سرعة صحفية ونشاط وحيوية ، اثنتا عشرة قصة (بأسلوب يوفيس) وخمسة وثلاثين كتيبا ، وكثيرا من الروايات الناجحة . وعندما فتر نشاطه وقل دخله وجد للفضيلة بعض المعنى ، وندم ندما شديدا قدر ما كان يأثم اثما فاحشا ، وعبر عن ندمه واثمه بأبلغ تعبير . ونشر فى ١٥٩١ كتابه « وداعا أيتها الحماسة » . وفى ١٥٩٢ نشر كتيبين لهما بعض الأهمية ، أحدهما : « ملحوظة ساخرة لرجل البلاط الناشئ » حمل فيه على جبرائيل هارفى ، أما الثانى « ما يساوى بضعة بنسات من ذكاء جريرين يشترى بمليون من التوبة والندم » . وفيه هاجم شكسبير وأهاب برفاقه فى الفسق والفجور - ووضح أنه يقصد مارلو وييل وناش - أن يقلعوا عن الآثام والخطايا وينصرفوا معه إلى التقوى والندم . وفى ٢ سبتمبر ١٥٩٢ أرسل إلى زوجته التى هجرها يتوسل إليها أن تدفع عشرة جنيهات إلى صانع أحذية لولا صدقته واحسانه « لكنت مت جوعا فى الطرقات » وفى اليوم التالى ، وفى دار صانع الأحذية هذا ، مات جريرين - كما يقول هارفى - بسبب « تخمة أصابته من الافراط فى أكل سمك الرنجة المخلل وشرب نبيذ الراين » . وتجاوزت صاحبة الفندق عن ديونه من أجل أشعاره ، وتوجته بأكليل من الغار ، ودفعت نفقات جنازته (١٢) .

وكان توم ناش صديق جرّين أشدّ مؤلفي الكتيّبات في عصر اليزابث سلاطة لسان وأكثرهم قراءً . وكان ابنا لمساعد قسيس ، وضاق ذرعا بالحشمة والوقار ، وما أن تخرج في أكسفورد حتى أخذ يسرح ويمرح في لندن ، ويكسب قوته بنفثات قلمه ، وتعلم كيف يكتب بسرعة « قدر ما تسعفه يده » . وألف في إنجلترا قصص المتشردين بادئا بقصته « السائح المنكرد الحظ » - أو حياة جاك ولتون (١٥٩٤) . ولما مات جرّين ، وهاجم دارفي بعنف جرّين وناش في كتيّبه « أربع رسائل » ثار ناش بسلسلة من الكتيّبات بلغت الذروة في كتيّب « خذ معك إلى سافرن والدين Saffron Walden مسقط رأس دارفي في ١٥٩٦ :

« ابتهجوا أيها القراء ، فلن أدخر وسعا في أن أدخل عليكم السرور والبهجة . . . إن هذا لن يكلفني إلا إنحرافا عن الطريق المستقيم ، ولكنه سيطرّد من الجامعة مدحورا . . . قبل أن أكف عنه . . . ماذا تمنحونني لو أتيت به إلى المسرح في أهم الكليات في كمبردج (١٤) » .

وعمر دارفي بعد هذه المحنة ، وعمر بعد هؤلاء البوهيميين ومات في ١٦٣٠ عن خمسة وثمانين عاما . وأكمل ناش رواية صديقه مارلو « Dido » واشترك مع بن جونسون في « جزيرة الكلاب » ١٥٩٧ ، واتهم بالتحريض على الفتنة ، وانزوى في غمرة من الحرص والجذر ، وتوج حياة العجلة بموت مبكر .

٣ - فيليب سدني ١٥٥٤ - ١٥٨٥

بعيدا عن هذا الحشد الخبول شق سدني طريقه في هدوء إلى نهاية أقرب ، وانا لتطالعنا صورته حتى اليوم في « قاعة الصور الوطنية » في لندن ، حيث يسدو رقيقا أكثر مما ينبغي للرجل أن يكون ، نحيل الوجه ، ذا شعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، وكما يقول لانجيه « ليس فيه شيء من أمارات التمتع بصحة جيدة (١٥) » . وقال أوبري « كان آية في الجمال ، لم تكتمل سمات الرجولة فيه كما ينبغي ، ولكن يتميز بشجاعة عظيمة (١٦) » . وذهب بعض المتذمرين إلى أنه يداخله بعض الغرور (١٧) ، وأنه بالغ في الكمال والدقة إلى حد التطرف ، ولكن نهايته البطولية هي وحدها التي غفرت له فضائله .

ولكن من ذا الذى لا يتيه عجباً بأن أمه هى ليدى مارى ددلى إبنة دوق نورثمبرلند الذى حكم إنجلترا أيام إدوارد السادس ، وأن أباه هوسير هنرى سدنى رئيس ويلز ، ونائب الملك فى أيرلنده ثلاث مرات ، وأنه أخذ اسمه المسيحى عن فيايب الثانى ملك أسبانيا بوصفه أباه فى التعميد . وقضى بعضاً من عمر الزهر الذى عاشه فى قصر بنزهيست الرحيب الذى تعد سقوفه المصنوعة من خشب البلوط ، والرسوم على جدرانها ، وثريات البلورية من أجل مخلفات ذلك العصر . وعين وهو فى سن التاسعة رئيساً علمانيا لاقطاعة كنسية تدر عليه ستين جنياً فى السنة . والتحق فى سن العاشرة بمدرسة شروزبرى التى لم تبعد كثيراً عن حصن لدلو Ludlow مقر والده بوصفه رئيساً لويلز . وكتب سير هنرى لولده وهو فى الحادية عشرة من عمره كلمات حب وإعزاز تشع منها الحكمة (١٨).

ووعى فيليب هذه الدروس جيداً . وأصبح أنيراً لدى خاله ايستر ، وصديق والده وايم سيسل . وبعد سنوات ثلاث قضاه فى أكسفورد أرسل إلى بارى فى منصب ثانوى فى بعثة إنجليزية . واستقبل فى بلاط شارل التاسع وشهد مذبحه سانت برثلئيميو . وجال على مهل فى فرنسا والأراضى الوطينة وألمانيا وبوهيميا وروماند والجزر والنمسا وإيطاليا . وفى فرنكفورت نشأت بينه وبين هيوبرت لانجيه صداقة العمر ، وهو أحد قادة الفكر لدى الميجونوت . وفى فينسيا رسم له باولو فيرونز صورته ، وفى بادوا رضع تقاليد قصائد بترارك من نوع السونيت . فلما عاد إلى إنجلترا رحب به البلاط ، وظل لمدة عامين تقريباً فى معية الملكة . ولكنه خسر عطفها لبعض الوقت . لمعارضته مشروع زواجه من دوق ألسون . وكان يتحلى بكل صفات الفروسية — الاعتداد بقدرته على الاحتمال ، المهارة والبسالة فى المبارزة ، آداب اللباقة والسلوك فى البلاط ، الشرف فى كل المعاملات والفصاحة فى الحب ودرس كتب كستليونى "رجل البلاط" وحاول أن يسيطر سلوكه على المنزل الألى لرجل المذهب الذى وضعه الفيلسوف الأديب ، وحاول آخرون أن يحاكوا سدنى . وأطلق عليه "بسنر اسم "ملك النبيل والفروسية" .

وكان من مميزات هذا العصر أن الأرستقراطية التى كانت يوماً تحقير معرفة

القراءة والكتابة ، نظمت الآن الشعر ، وأذنت للشعراء في الزردد عليهم . وأصبح سندن ، ولو لم يكن ثريا ، أعظم حمة لأدب في جيله . ومديد المساعدة إلى كمدن وهاكلوت وناش وهارفى ودون ، ودانيل وجونسون ، وفوق كل شئ سبنسر الذى أزجى إليه آيات الشكر بوصفه " أمل العلماء جميعهم ، وحامى عروس الشعر الصغيره عدى " (١٩) . ولم يكن يتفق مع طبيعة الأشياء أن يكون إهداء كتاب ستيفن جوسون " مدرسة الهجاء " وجهها إلى سندن (١٥٧٩) ، وقد ورد في تقديم هذا الكتاب أنه " هجوم لطيف على الشعراء والزمارين والمغامرين والمهرجين ، وأمثلهم من توافه الرجال السلاطين في البلاد " . وقبل سندن النجدي وكتب أول الروائع الأدبية في عهد أليزابيث " دفاع عن الشعر " واقتداء بأرسطو والقاد الإيطاليين ، عرف سندن الشعر بأنه " فن المحاكاة " فهو يمثل أوزيريف أو يجسد صورة ناطقة . " قصد بها أن تعلم وتدخل الهجة (٢٠) " . وسما بالأخلاق كثيرا فوق الفن ، فقرر الفن على أنه معلم للأخلاق عن طريق النماذج المصورة يقول :

"إن الفياسوف ... والمؤرخ ... قد يصلان إلى الهدف ، أولهما بالتعليم الأخلاقى ، والثانى بضرب المثل ، ولكن كلاهما لا يملكهما معا . ومن ثم يتعثر كلاهما . فإن الفيلسوف ، وهو يتردد الحقيقة المجردة للأخلاق ، عن طريق الحجج الشائكة ، قد يصيب عليه التعبير ، ويقلب عليه الغموض فيدق على المرء فهمه إلى حد أن الإنسان الذى لا يتيسر له مرشد غيره يخوض معه حتى يدركه الهرم قبل أن يجد مبررا كافيا لأن يكون أمينا . ذلك أن علمه يقوم على التجريد والتعميم ، حتى ليكون سديدا . من يستطيع أن يفهمه . أما المؤرخ من جهة أخرى ، فإنه ، وهو يعوزه القاعدة أو المبدأ الأخلاقى ، مرتبط ، لا بما يجب أن يكون ، بل بما هو كائن ... ومن ثم فإن المثل الذى ضربه يستتبع نتائج غير ضرورية ، ولذلك يكون نظرية أقل جدوى .

أما الشاعر الفذ فانه يؤدى الاثنين معا ، لأنه يرسم صووة دقيقة لمن يظن أنه قام بما قال الفيلسوف بوجوب عمله . وهو بذلك يكمل الفكرة العامة بالمثال المحدد . وأقول بأنها صورة كاملة متقنة لأنه لا يقدم إلى قوى العقل صورة لم يقدم عنها

الفيلسوف إلا وصفا كلاميا لا يستوقف النظر ولا ينفذ إلى الأعماق ولا يتسم بالرؤية الروحية قدر ما للصورة من هذا كله (٢١) .

وعلى هذا فإن الشعر ، في نظر سدفى ، يشمل كل الأدب التخيلي التصويرى : الدراما ، النظم ، النثر التصويرى . « ليست القوافى والأوزان هى التى تصنع الشعر . وقد يكون ثمة شاعر بلا أوزان ، وقد يكون ثمة ناظم دون أن يكون شاعراً » . لقد جمع سدفى بين التعليم الأخلاقى والنموذج . وفى نفس العلم الذى أخرج فيه « الدفاع عن الشعر » شرع فى كتابه « جنة كونتيس بمبروك » . وكانت أخته هذه من أكثر سيدات هذا القرن جمالا وجاذبية . ولدت ١٥٦١ ، أى أنها تصغر فيليب بنحو سبع سنوات . وتلقت من التعليم قدر ما احتملت ، بما فى ذلك اللاتينية واليونانية والعبرية ، ولكن فتنها لم تذبل . وأصبحت عضوا فى آل بيت اليزابث ورافقتها فى رحلتها الملكية . وأسهم خالها ليستر فى المهر الذى مكنها من الزواج من هنرى ارل بمبروك . وكما يقول أوبرى « كانت داعرة شديدة الشهوة للرجال فاتخذت بعضا من الخلان أو العشاق لتشكل زوجها » ، ولكن هذا لم يمنع فيليب من تقديسها ، وكتابة « الجنة » بناء على طلبها .

واتخذ فيليب من « جنة » سانازارو (١٥٠٤) مثلا يحذيه ، فتحيل فى تفصيل شديد وفى يسر ، عالما من الأمراء الشجعان والأميرات الرفيعات التهذيب ، ومعارك الفروسية والأقنعة المحيرة والمناظر الطبيعية الساحرة . « إن جمال افروديت (يورانبا) هو أعظم شئ يمكن أن يعرضه العالم ، ولكنه أقل ما يمتدح فيها (٢٢) » وكان بللادبوس يتمتع ببصيرة نافذة مجردة من التباهى والتفاخر ، وأفكار عالية تتسم باللياقة وحسن الأدب ، وكانت الكلمات تخرج من فيه فى فصاحة عذبة ولكنها لا تسمع منه فى التعبير . كما كان يتحلى بسلوك نبيل إلى حد أنه أضفى جلالا على الجنة (٢٣) .

” ومن الواضح أن سدفى قرأ يوفيس ، فالقصة متاهة غزلية ، لقد تذكر بيروكلينز فى زى امرأة ليكون قريبا من فيلوكايا الجميلة ، ولكنها تخيب أمه بحبها لإباه على أنه أخت لها ، ويقع أبوها فى غرامه حين حسب أنه سيدة ، وتقع أمها أيضا فى غرامه حين أدركت أنه رجل ، ومهما يكن من أمر فإن كل شئ ينتهى طبقا لما

أمرت به الوصايا العشر . ولم يأخذ سدنى الحكاية مأخذ الجدل كثيرا . ولم يصحح قط الأوراق التي سلمها لأخته . وأمر باحراقها وهو على فراش الموت ، ولكن احتفظ بها وطبعت ونشرت (١٥٩٠) وظلت له قد من السنين أعظم ما يعجب به الناس من النثر في عهد اليزابث .

وبينما كان سدنى يكتب هذه القصة الرومانتيكية و ” الدفاع عن الشعر “ ، ووسط حياته الدبلوماسية والعسكرية ، نظم مجموعة قصائد من السونيت (١٤ بيتا) مهدت الطريق أمام قصائد شكسبير التي من هذا النوع . وكان في حاجة إلى شيء من الحب الفاضل ، فمثرعاه في بناوب دفرية **Penelope Devereu** ابنة ارل اسكس الأول ، ورحبت بآهاته وأشعاره على أنها لهُ مشروع ، ولكنها تزوجت من بارون رتش (١٥٨١) . واستمر سدنى يوجه قصائده إليها ، حتى بعد زواجه من من فرانس ولسنهام . ولم يصعق من رجال عصر اليزابث لهذا الفجور الشعري إلا نفر قليل ، ولم يتوقع أحد أن يكتب رجل شعرا حتى لزواجه هو ، التي أخذ كرمها شاعريته ، ونشرت المجموعة ١٥٩١ ، بعد وفاة سدنى ، تحت عنوان **Astrophel and Stella** — (عاشق النجم والنجم) وقد نهجت نهج بترارك الذي استبقت محبوبته لورا بشكل عجيب عيني يلوب وشعرها وحاجبها ونخاها وبشرتها وشفقتها . وكان سدنى يدرك تماما أن هواه ليس إلا تقنية أو صناية شعرية . وكان هو نفسه قد كتب : ” لو كنت أنا نفسي محظيه لما استطاع الشعراء كتاب السونيت أن يقتنعوني بأنهم يحبونني (٢٤) ” وما أن قبلت قصائد السونيت على أنها لهُ برىء حتى باتت أحسن شيء من نزعها قبل سرديات شكسبير . وحتى القمر كان مريضا بالحب :

بأية خطى حزينة تصعد إلى السموات أيها القمر ، وفي
أى صمت ، وبأى وجه شاحب ؟
ماذا ، هل حتى في السموات .

يحاول رامى السهام النشط أن يجرب سهامه الحادة .
حقا ، لو أن هذه المربون التي خبرت الحب طويلا

تستطيع أن تحكم على الحب . لشعرت بفضية حبيب ،
لقد قرأتها في نظراتك وفي جمالك الذي يذبل .
إن حالائك لنكشف لي عن بعد ، أنا الذي أحسن بمثل
ما تحسن به . إذن ، حتى يحق الزمالة أيها القمر خبرني .
أيعتبر الحب الدائم هناك نقصا في العمل ، وهل
ذوات الجملاء هناك مزهوات كما هن هنا ، هل
يحظين بما هو فوق الحب ، ومع ذلك يحتررن الحين
الذين يأسرهم الحب .

وهل يسون الفضيلة هناك ضربا من الجحود (٢٥) ؟

وفي ١٥٨٥ أرسلت إليزابيث فيليب سدي لمساعدة ثوار الأراضي الوطيفة ضد
ألمانيا ، وعين حاكما على فاشنج ، ولوام يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وأغضب
الملكة المقرة يطلب مزيد من المؤن والأجور لجنوده الذين كانوا يتقاضونها عملة
مزيقة مخفضة القيمة (٢٦) . وقاد جنوده إلى الاستيلاء على آكسل بالقرب من فلشنج
(٦ يولييه ١٥٨٦) ، وحارب في المقدمة . ولكنه في معركة زوتفين (٢٢ سبتمبر)
أتى من ضروب البسالة أكثر مما ينبغي ، فقد قتل جواده في الهجوم ، وقفز سدي
إلى جواد آخر ، وشق طريقه في صفوف العدو ، فنفذت طلقة بندقية إلى فخذه ،
وحارب جواده جافلا إلى معسكر ليستر (*) . ومن ثم أخذ سدي إلى دار خاصة في
آرنهيم ، ولمدة خمسة وعشرين يوما عانى من عجز الجراحين وجهلهم وسرى التسمم ،
وفي ١٧ أكتوبر استنبل عجيبة زماننا الموت بصدر رجب (كما رثاه سبنسر)
وقل في يومه الأخير " لن استبدل بابتهاجي امبراطورية العالم (٢٨) " ونزل جثمانه
إلى لندن ، وأودع مقره الأخير في جنازة لم تشهد لها إنجلترا شيلا قبل
وفاة نلسون .

(*) تروى قصة لم تتأكد صحتها ، أنه عندما قدم إلى سدي الجريح فاجاة من الماء ، فاولها إلى
جندى كان يهاني سكرات الحرب بالقرب منه قائلا : إن حاجتك إلي أشد من حاجتي (Fulke
Greville حياة مشاهير الرجال - سير فيليب سدي) (٢٧)

٤ — إدموند سبنسر ١٥٥٢ ١٥٩٩

وكتب سبنسر « مات سدن ، مات صديقي بهجة الدنيا وزينتها (٢٩) » إن سيدنى هو الذى أمد سبنسر بالشجاعة لينظم القريض . نشأ إدموند ابناً لا يبشر بحسن المستقبل لصانع ملابس باليومية ، وكان ينتمى من بعيد لآل سبنسر الاستقراطيين ، مما لم يتح للصبي أية فرصة للظهور . ومكنته أموال البر والصدقات من المحاق بمدرسة Merchant Taylors ثم كلية بمبروك فى كمبردج حيث عمل ليكسب أجر إقامته بالقسم الداخلى بها . وما أن بلغ سن السابعة عشرة حتى كان يكتب ، بل حتى ينشر ، شعراً . وحاول هارفى أن يوجهه إلى القوالب والموضوعات الكلاسيكية القديمة . وحاول سبنسر فى تواضع أن يرضيه ، ولكن سرعان ما تمرد على القيود التى فرضتها الأوزان البغيضة على عروس الشعر عنده . وفى ١٥٧٩ عرض على هارفى القسم الأول من ملحمة « الفيرى كوين » ، ولم يتذوق هارفى محتواها المجازى الذى يشبه أسلوب العصور الوسطى ، ولم يقدر وزنها الشعرى الرقيق ، ونصح للشاعر أن يتخلى عن مشروعه ، ولكن سبنسر تابع العمل .

إن هارفى ، التكد المتجهم المشاكس ، هو الذى هيا لسبنسر مكانا فى خدمة إرل ليستر . وهناك التقى الشاعر بسدن وأحبه وأهدى إليه « تقويم الراعى » (١٥٧٩) قلد فيها من حيث الشكل تيوكريتس ، ولكنه اتبع فيها خطة التقاويم الشعبية المألوفة التى تحدد أعمال الرعاة تبعاً لفصول السنة . وقامت فكرتها الرئيسية على حب غير مرغوب فيه من جانب الراعى كولين كلوت لروزيلاند القاسية . وليست مما يوصى أحد بقراءتها ، ولكن أطراء سدن لها أكسب سبنسر شيئاً من الإقبال عليها أو التهلل لها . وارتضى الشاعر ، رغبة منه فى كسب العيش ، منصب سكرتير آرثر لورد جراى نائب الملكة الجديد فى إيرلنده (١٥٧٩) ، ورافقه إلى ساحة القتال . وشهد وأقر ما عمده إليه آرثر من ذبح من استسلموا من الإيرلنديين فى سمروك . وبعد سبع سنوات من الخدمة الكتابية للحكومة الأنجليزية فى إيرلنده ، منح من الأملاك المصادرة من الثوار الإيرلنديين ، قصر كاسكولمان Kilcolman على الطريق بين مالو وليمرك ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ فدان .

وهناك أخذ سبنسر إلى حياة الزراعة الهادئة وانصرف إلى الشعر الرقيق . وخلق ذكرى موت سدنى بمرثية بليغة ولكنها مطولة عنوانها « أستروفيل » (١٥٨٦) ، ثم صقل وطول في ملحمة « فيرى كوين » وعبر البحر ، وهو ممتلئ حماسة إلى إنجلترا ، وقدمه رالى إلى الملكة ، فكتب لها إهداء "الأجزاء" الثلاثة الأولى ، "لتبقى في ظل خلود شهرتها . " وليضمن الترحيب بالقصيدة صدرها ببضعة أبيات في المديح موجهة إلى كونتيس مبروك ، وليدى كارو ، وسير كرستوفر هاتون ، ورالى ، وبرجلى ، ووالسنهام . واللوردات هنزدن وبكهيرست وجراى وهوارد افنجهام ، وارل إسكس ونورثمبرلند وأكسفورد وأورمند وكمبرلند . ولما كان بيرجلى يناصب لىستر العداء ويحمل لى الاضغان ، فانه قال عن سبنسر إنه شاعر خامل ، ولكن كثيرا من الناس هلاوا له بوصفه أعظم شاعر منذ عهد تشوسر . وتلطف الملكة فنحته معاشا سنوياً قدره خمسون جنيا ، وتلكأ بيرجلى ، بوصفه وزير الخزانة ، في دفعه . وكان سبنسر يأمل فى شئ أكثر سخاء . فلما خاب أمله عاد أدراجه إلى قصره فى إيرلنده ليتابع ملحمة المثالية ، وسط الهمجية والكراهية والخوف .

وكانت خطته أن تكون القصيدة فى إثنى عشر جزءاً ، نشر الثلاثة الأولى منها فى ١٥٩٠ ، وثلاثة أجزاء آخر فى ١٥٩٦ . ولم يذهب إلى أبعد من هذا . ومع هذا فإن الفيرى كوين ضعف الإلياذة وثلاثة أمثال " الفردوس المفقود " . وقدم كل جزء على أنه قصة رمزية — للقداسة والاعتدال وضبط النفس والعفة والصدقة والعدالة والياقة والكياسة ، وقصد الأجزاء جميعها " أن تصوغ أو تشكل سيدا ماجدا " أو إنسانا نبيلًا ذا خلق فاضل وديع (٣٠) ، بتزويده بالأمثلة التى تعين على تشكيله ، وكل هذا يتفق مع فكرة سدنى فى أن الشعر عبارة عن تعاليم أخلاقية تنقلها نماذج متخيلة . وإذ التزم سبنسر جانب الحشمة والوقار ، فانه لم يجر لنفسه إلا يضع قطع قليلة شهوانية أو حسية . فهو يلقى نظرة عجل على " صدر عاجى عار للانقضاض عليه غنيمة باردة (٣١) " ، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من هذا . وإنه فى ستة من الأقسام الرئيسية فى قصيدته ليشدو بأعلى أنغام حب الفروسية والشهامة ، باعتباره خدمة خالية من الأثرة للسيدات الجميلات .

أما نحن الذين نسينا الفروسية والشهامة ، فلإننا نضيق ذرعاً بالفرسان وتربكنا المحازات

والاستعارات والقصص الرمزية ، فان ملحمة الفيرى كوين ، تكون لنا في أول الأمر بهيجة سارة بشكل غريب ، ولكنها أخيراً شيء لا يحتمل . إن تلميحاتها السياسية التي فرح بها أو استاء لها المعاصرون ، فقدت قيمتها لدينا ، وإن المعارك اللاهوتية التي تشير إليها لم تكن إلا رموزاً الراسية في صبانا ، وإن قصصها لم تكن إلا أحوال ، أصدقاء شجية لفرجيل وأريستو وتاسو ، وليس ثمرة قصيدة في الأدب العالمي تفوق " الفيرى كوين " في أفكارها المتكلفة ، وتغييراتها الكثيرة في الأوضاع السوية للكلمات والأسلوب ، وألفاظها المهجورة وتعبيراتها الجديدة الطنانة ، ومبالغتها الرومانتيكية الحمقاء التي لم تلتفتها ابتسامة أريستو . ومع ذلك فان كيتس وشللي أحبا سبنسر وجعلاه " شاعر الشعراء " فلماذا ؟ ألا شيناً من الجمال الحسى للشكل عوض عن سنف العصور الوسطى وأسلوبها ، أم لأن فخامة الوصف زركشت شيئاً زائفاً غير واقعي ؟ وكان المقطع الجديد ذو الأبيات التسعة صعباً من ناحية التعبير الفني ، وكثيراً ما يرونا سبنسر باتقانه الكامل وسهولته الدافقة . ولكنه ، كم من مرة أفسد منطقته من أجل قافية !

وانقطع عن ملحمة " فيرى كوين " لينظم قصائد موجزة ربما كانت تبرز شهرته ، من ذلك قصيدته " حبي الصغير " ، على شكل السونيت ، التي كانت تشبه هوى بترارك ونزواته وخيالاته . أو أنها ربما كانت تعكس أيام خطبته التي دامت عاماً لاليزابيث بويل . وقد تزوجها في ١٥٩٤ ، وشدا بأفراح الزفاف في أرق قصائده Epithalamium . وإنه ليقسم معنا مفاتن العروس ، دون أثر أو أنانية . يقول :

أنبتوني يا بنات التجار هل رأيتم
مخلوقاً جميلاً مثل هذا في بلدكم من قبل
بمثل هذه الملاحاة والوسامة والرقعة مثلها .
زينها نعمة الجمال وكثر الفضائل
وعيناها الواسعتان وكأنهما لؤلؤتان تشعان نورا ،
وجبهتها الناصعة البياض كالعاج

ووجنتاها وكأنهما تفاحتان كسهما الشمس بحمرة الورد ،
وشفتاها كشمريتين من الكريز تسحران الرجال ليقضموهما .
وصدرها الذى يشبه وعاء من قشدة لم تتخثر بعد ،
وثديها أشبه بزنبقتين تفتحتا
وعنقها الناصع البياض مثل عمود من المرمر ،
وجسمها بأسره وكأنه قصر جميل ...
ولما انتهى الحفل والولائم أمر مدعويه أن ينصرفوا دون إبطاء ، قائلاً
هيا ، الآن اكفنى أيتها الآنسات ، لقد انتهت مسراتكن ،
كفى ، ان النهار كله كان لكن
والآن ولى النهار ، والليل يرخى سدوله .
فأحضرن العروس إلى منزل العريس . . .
وضمعتها فى مخدعها
وأحطنها بالزنبق والبنفسج
وضعن الأستار الحريرية فوقها ،
مع الملاءات المعطرة والأغطية المزركشة .
وليكن الليل هادئاً ساكناً
دون زواجع عاصفة أو شجارات صاحبة مخزنة .
كما رقد جوبيتر مع ألكمينا . . .
ولتكف الآنسات والشبان عن الغناء ،
ولا تدعن الغابات يجنبهن أو يرجعن أصداءهم .
فهل ثمة عذراء زفت بمثل هذه العذوبة والحلاوة ؟
ودعم سبنسر هذا التحليق ، وهذه الانطلاقة « بأربع ترانيم » (١٥٩٦) يمجّد
فيها الحب الدنيوى والجمال الدنيوى ، والحب الإلهى والجمال الإلهى . ونهج نهج
أفلاطون وفيسينو ، وكاستايونى ، ومهد الطريق للشاعر كيتس ، فأقر بما اتّرفت
من « أعمال شريرة كثيرة » ، فقرر فى نفسه أن ينفذ إلى أعماق الجمال الطبيعى
(٨)

ليجد ويشعر بالجمال الإلهي الذي يمكن بدرجات متفاوتة في كل ماهو على الأرض..
ولما كان سبنسر يعيش على بركان من الشقاء في إيرلنده ، فانه كان من الموت
قاب قوسين أو أدنى ، في كل يوم . وقبل أن ينفجر بركان الثورة ثانية ، كتب في
نثر رقيق (لأن الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يكتب نثرا جيدا) « رأيه في
الحالة الراهنة في إيرلنده » يدافع فيها عن طريقة أفضل لاستخدام الأموال وترتيب
الجنود الانجليز لإخضاع الجزيرة . وفي اكتوبر ١٥٩٨ قام الايرلنديون الذين جردوا من
أموالهم في مونستر بثورة وحشية ، وطردها المستوطنين الانجليز وأحرقوا حصن
كلكلمان . ونجا سبنسر وزوجته بحياتهما وهربا إلى انجلترا . وبعد شهور ثلاثة ،
وقد انتهى رصيد الهوى والمال ، قضى الشاعر نحبه (١٥٩٩) ، ودفع اربل اسكس
الأصغر — الذي قدر له أن يلحق بسبنسر بعد فترة وجيزة ، دفع نفقات الجنائز ،
التي سار فيها النبلاء والشعراء الذين نثروا الأزهار ، وألقوا المراثي على قبره في
كنيسة وستمنستر .

وسادت انجلترا الآن لهفة جنونية على نظم ” السونيت “ ، نافست الالهفة على
الدراما ، وكلها تقريبا غاية في براعة الشكل ، ذات قالب واحد من حيث الموضوع
الرئيسي والعبارة ، وكلها تقريبا موجهة إلى العذارى أو الحماة ، تنعى عليهم أنهم
يغفلون أيديهم إلى أعناقهم أولا يبسطونها إلى الشعراء ، وكانوا يستحثون الجمال على
أن يأذن بقطف ثماره قبل أن تذبل على سوقها . وقد تقتحم القصيدة في بعض الأحيان
نغمة مبتكرة ويبشر العاشق سيده بمولود مكافأة لها على الاقتران السريع . وينقب
كل شاعر فيجد فتاة أحلامه — دانييل : دلبا ، لودج : فيليس ، كونستابل : ديانا ،
فولك جريفيل : ساليا . وكان أشهر ناظمي السونيت هؤلاء ، هو صمويل دانييل ،
على أن بن جونسون — الـى كان ” قاسيا “ أكثر منه ” لبا “ — قال عنه إنه
” رجل آمن وليس شاعرا “ (٢٢) ” وحومت قصيدة ميشيل درايتون ” Pegasus “
حول كل أشكال الشعر ، بما كان له من قدم في النثر . ولكن إحدى قصائده
ضربت على نغمة جديدة ، نوحزت الفتاة ونبتها إلى مغبة صمودها ، بأن آذنها
بالوداع — ” لانا لم يكن ثمة رجاء أو عون ، تعالى ، تبدل الابل ثم نفترق ، “ .

وكان الأدب الإنجليزي في جملته في عهد إليزابيث - فيما خلا الدراما - متخلفاً جيلًا عن الأدب الفرنسي . كان النثر قويًا مرناً ، وفي الغالب معقدًا مطبأً إلى حد الضجر ، خياليًا ، ولكنه أحياناً يحرك المشاعر بجلاله الملكي أو إيقاعه الفخم . ولم ينتج النثر الإنجليزي أحداً مثل رابليه أو مونتاني ، وقلد الشعر الأشكال الأجنبية في حرص وحذر ، باستثناء *The Faerie Queen, Epithalamium* ولم يجد سبنسر قراء له في القارة قط ، كما لم يجد رونسار (شاعر فرنسي في القرن السادس عشر) قراء له في إنجلترا . فان الشعر يخلق من اللغة والعاطفة موسيقى لا يمكن الاستماع إليها خارج حدود الكلام ، لقد اتصلت الأغاني الشعبية البسيطة بالناس ووصات إليهم ، بشكل أشد وثاقاً مما فعل شعر القصور والبلاط ، فان الأغاني كانت معلقة على جدران البيوت والحانات ، وكانت تغنى وتباع في الشوارع ، وما زالت أغنية « لورد راندال » تهز مشاعرنا بلحنها الحزين (٣٣) . وربما كان هذا الشعر الشعبي - لا المحسنات البارة اللطيفة - في قصائد السونيت ، هي التي مهدت عقول الناس في عصر إليزابيث ليقدروا شكسبير .

٥ - المسرح

كيف إذن ، صعد الأدب الإنجليزي التافه إلى هذا الحد في فترة الجفاف الطويل بين تشوسر وسبنسر ، نقول إذن كيف صعد هذا الأدب إلى شكسبير ؟ لعله بسبب نمو الثروة وانتشارها ، والسلام الطويل المثمر ، وبسبب الحرب المثيرة الظافرة ، والآداب الأجنبية والأسفار التي وسعت عقول الإنجليز . وكان بلوتس وترنس Terence يعلمان إنجلترا فن الملهة كما يعلمها سنكا أسلوب معالجة المأساة . ومثل الممثلون الإيطاليون في إنجلترا (١٥٧٧ وما بعدها) وأجريت آلاف التجارب . وفيما بين عامي ١٥٩٠ و ١٦٤٢ شاهدت إنجلترا ٤٣٥ ملهة تمثل . وتطورت الهزليات والفصول الإضافية إلى الملهة . وتخلت الأسرار الدينية والتعاليم الأخلاقية عن مكانها للمسرحيات المأساوية الدنيوية ، كما فقدت الأساطير المقدسة سلطانها على القصيدة . وفي ١٥٥٣ أخرج نيقولا يودال في *Ralph Roister Doister* أول ملهة

إنجليزية في شكل كلاسيكي قديم . وفي ١٥٦٢ مثل المحامون في The Inner Temple مسرحية Gorboduc وهي أول مأساة في شكل كلاسيكي .

وبدا لبعض الوقت أن ذلك الشكل ، المنحدر من رومه ، كان محتوما عليه أن يصوغ المسرحية الإنجليزية في قالبها ، في عصر الزابث . ودافع الجامعيون مثل هارفي ، والمحامون الشعراء مثل جورج جاسكوين ، والذين تلقوا تعليما كلاسيكيا مثل سدني - دافعوا عن ضرورة ملاحظة ثلاث « وحدات » في الرواية ، أي أنه لا بد أن يكون هناك « عمل » (موضوع) ، وأن هذا لا بد أن يجري في « مكان » واحد ، ويتمثل في « يوم » واحد لا أكثر . ومبلغ علمنا أن هذه الوحدات صاغها لأول مرة لودوفيكو كاستلفترو (١٥٧٠) في تعليق على « شعريات » أرسطو . إن أرسطو نفسه لا يتطلب إلا وحدة العمل ، ويوصي بأن يجري هذا العمل « خلال دورة واحدة للشمس » ويضيف ما يمكن أن نسميه وحدة الحالة النفسية بمعنى أن الملهاة « التي تمثل الطبقة الدنيا من الناس » لا يجوز أن تختلط بالمأساة « وهي تمثل العمل البطولي » (٢١) . وأخذ سدني في كتابه « دفاع عن الشعر » ، نظرية وحدات المسرحية عن كاستلفترو ، وطبقها بدقة ، ولكن في مرح لطيف ، على الروايات في عصر الزابث ، تلك التي كانت الجغرافية طاغية فيها :

فترى فيها آسيا في ناحية ، وأفريقية في الناحية الأخرى ، وكذلك ممالك سفلى كثيرة ، حتى أن الممثل حين يدخل ، لا بد أن يبدأ بأن يخبرك أين هو أما عن الزمن فإنهم أكثر تحرراً ، ومنه لأمر عادي أن يقع أميران شابان في شرك الغرام ، وبعد عوائق جمة تحمل العشيقة في طفل من شاب وسم . . . ثم ينمو حتى يصبح رجلا يقع في شرك الغرام . مستعداً لأن ينجب طفلاً آخر . وكل هذا على مدى ساعتين (٢٥) .

واتبعت فرنسا القواعد الكلاسيكية وأنجبت راسين . أما انجلترا فنبتتها وهيأت لمسرحيتها المأساوية حرية رومانتيكية ومجالات يغلب عليه المذهب الطبيعي ، وأنجبت شكسبير . وكان المثل الأعلى لعصر النهضة في انجلترا فكان الحرية والإرادة

والمرح والحياة . وكان جمهور النظارة في عصر اليزابث يتألف من صغار اللوردات ومن متوسطى الحال ومن محتلى مقاعد الدرجة الثالثة ، وكان ينبغي أن يقدم لهذا الجمهور غذاء دسم متنوع ، حيث كان له قدرة على الضحك ملء أشداقه ، ولم يكن يعبأ بحفارى قبور يتجاذبون أطراف الحديث في المذاهب الفلسفية مع أمير ، وكان لهذا الجمهور خيال لم يروض بعد ، يمكن أن يقفز من مكان إلى مكان ويعبر قارة بأسرها ، لأية إشارة أو تلميح . وكانت المسرحية في عهد اليزابث تمثل الإنجليز في أيامها ، لا الإغريق في عهد بريكليز ، ولا الفرنسيين في عهد البوربون ، ومن ثم أصبحت الفن القومى ، على حين أن الفنون التى اتبعت نماذج أجنبية لم تتغلغل جذورها في إنجلترا .

وكان على المسرحية الإنجليزية أن تخوض معركة أخرى قبل أن تخطو إلى مارلو وشكسبير ، فقد نبذت الحركة البيوريتانية الناشئة مسرح اليزابث على أنه وكر للوثنية والتجديف الدنس ، واستنكرت وجود النساء والبغايا بين الجمهور ، واقترب المواخر من المسارح . وفي ١٥٧٧ نشر نورثروك نقداً لا ذعاً عنيفاً ضد "لعب الترد والرقص والروايات . والفصول الضاحكة " :

إنى متتنع بأن الشيطان ليس لديه وسيلة أسرع ولا مدرسة أصح ، لينفذ رغبته ، ويلقنها ، ويوقع الرجان والنساء في شرك الغواية والسق والشهوات الدنيئة لدى بات الهوى الداعرات الشريدات ، من هذه الروايات والمسارح . ومن ثم فانه من الضرورى أن تحظر ه ه الأماكن ويمنع هؤلاء الممثلون ، وأن يقضى عليهم ، وأن تهدم المسارح بأمر السلطات ، كما هو الحال بالنسبة للمواخير وبيوت الدعارة (٢٦) .

وكان كتاب ستيفن جوسون " مدرسة لهجاء " معتدلاً نسبياً . واعترف بأن ثمة روايات ومثليين ، " لا غبار عليهم " . ولكنه عندما رد عليه لودج ، أطلع جوسون عن أى تمييز . وفي كتابه " *Players Confuted in Five Actions* " ، وصف الروايات بأنها " غذاء للخطيئة وللشغب وللزنى " ، والمثليين بأنهم " أساتذة

للرذيلة ومعدو الخلاعة والفجور^(٢٧). " ورأى النقاد في الملهاة صورا للرذيلة تفسد الأخلاق ، وفي المأساة أمثلة مثيرة للقتل والخيانة^(٢٨) والتدرد . وفي السنوات الأولى من حكم إليزابيث كان يوم الأحد هو اليوم المخصص للتمثيليات . وكانت الأبواق تعان عنها ، كما تدعو أجراس الكنائس الناس إلى صلوات المساء . وكم فزع رجال الدين من تسلل جمهور الكنيسة خلصة من صلواتهم ليزحوا المسرح . وتساءل أحد الوعاظ : أليست رواية قدرة تستحث بنفخة من بوق ألفا من الناس للحضور بأسرع مما تحضر دققت الذقوس لمدة ساعة مائة منهم لسماع موعظة^(٢٩) ؟ " وذهب نورثبروك إلى أبعد من ذلك فقال : « إذا كنتين تعرفن كيف تخدعن أزواجكن ، أو خداع الأزواج لزوجاتهم ، وكيف تمثلن دور بنات الهوى ، وكيف يكون الملق والمدهنة والكذب والقتل والتجديف على الله ، وترديد لأغاني القدرة ... فهلا تتعلمن كيف تمارسن كل هذا في مثل هذه الفصول المأجزة ؟ »^(٤٠)

ورد الكتاب المسرحيون على هذا بنشرات أصدرودا ، وبلسخريّة من البيوريتانيين في مسرحياتهم . من ذلك ما أورد مايفولي في رواية « ليلة الائمة عشرة » ، حيث يسأل سير توبى بلش للمهرج في تلك الرواية : " هل تظن أنه لن يكون هناك كحك وجعة لأنك رجل متمسك بأهداب الفضيلة ؟ " فيجيب المهرج " نعم ، وبحق سنت آن ، وسيكون الزنجبيل كذلك ساخنا في الفم^(٤١) . " واستمر هؤلاء الكتاب ، حتى شكسبير نفسه ، يملحون رواياتهم بشيء من أعمال العنف والغضب وسفاح ذوى اقربى والزنى والدعارة . وهناك في رواية شكسبير " بريكلز " مشهد يعرض حجرة في ماخور يشكو مديره العام من أن : " العاهلات عنده بتن من العمل المتواصل ، في أسوأ حال^(٤٢) " .

وذهبت سلطات مدينة لندن - وكان بعضهم من البيوريتانيين - إلى أن البيوريتانيين ألزموا معارضتهم الحجة . وفي ١٥٧٤ حرم « المجلس العام » تمثيل الروايات إلا بعد فحصها وإجازتها ، ومن هنا جاء بيت شكسبير " لقد كتمت السلطات أفواه الفن^(٤٣) . ولكن ، لحسن الحظ ، كانت إليزابيث ومجلس شورى الملكة مغرمين بالمسرحيات : وكان لبعض اللوردات فرق من الممثلين ، وفي ظل

رقابة مترامية على المصنفات ، أجزت ست فرق لإخراج الروايات فى المدينة .

وفى ١٥٧٦ كانت الأعمال المسرحية تجرى أساساً على منصات مؤقتة فى أفنية الفنادق . ولكن فى تلك السنة بنى جيمس بوربىج أول مسرح دائم فى إنجلترا ، وأطلق عليه ببساطة اسم " المسرح " . وللأفلات من سلطان الجهات المسئولة فى لندن أقيم المسرح خارج حدود المدينة نفسها ، فى ضاحية شورديتش ، وسرعان ما أقيمت مسارح أخرى : (١٥٧٧) The Black Friars , The Curtain (١٥٩٦) The Fortune (١٥٩٩) . وفى تلك السنة الأخيرة هدم ريتشارد وكوثبرت بوربىج مسرح والدهما ، وأقاما المسرح المشهور Globe فى سوثوارك على نهر التاميز تماماً . وكان مئمن الأضلاع فى شكله الخارجى ، ولكن ربما كان مستديراً فى الداخل ، ومن ثم أطلق عليه شكسبير " هذه الدائرة الخشبية " This Wooden O (١٤) وكانت كل مسارح لندن من الخشب قبل ١٦٢٣ . وكان معظمها عبارة عن مدرجات كبيرة تتسع لنحو ألفين من المتفرجين جالسين فى صفوف من شرفات محيطية ، ويمكن لألف آخرين أن يشاهدوا الرواية . وقوفاً فى الساحة التى حول المنصة أو خشبة المسرح . وهؤلاء " الألف " هم " جمهور الدرجة الثالثة " الذين وبخهم هملت بأنهم « المشهد الصامت والضجيج » (١٥) وكان المشاهد الواقف يدفع بنساً واحداً ، أما الجالس فى الشرفات فيدفع بنسين أو ثلاثة ، أما المقعد على المنصة فكان يكلف أكثر من ذلك قليلاً . وكانت هذه المنصة عبارة عن منبسط يخرج من أحد الجدران إلى وسط الساحة . وفى المؤخرة كانت غرفة الملابس ، وفها يرتدى الممثلون ملابسهم ، ويتولى " خازن المسرح " أمر أدوات التمثيل والإخراج المسرحى ، وكانت تشمل قبوراً وحاجم وصناديق أشجار ، وشجيرات الورد ، وعلب مجوهرات وستائر ومراجل ، وسلالم وأسلحة ، وأدوات ، وقوارير دم وبعض رؤوس مفصولة وكان يمكن بواسطة الآلات إنزال الآلهة والالهات من السماء ، أو رفع العفاريت والسحرة من الأرض ، كما يمكن إسقاط المطر بشد حبل ، وتعليق الشمس فى السماء " بحزام مزدوج (١٦) " . وكان على هذه الأدوات أن تعوض عن جهاز المسرح . وعوقت المنصة المسكشوفة غير المحجوبة سرعة تغيير الوضع . وعوضاً عن ذلك كان

التمثيل وسط الجمهور تماماً ، حتى ليكاد يحس بأنه جزء من الحدث .

ولم يكن النظارة يشكلون جزءاً صغيراً من المسرح . وكان متعهدو الحفلات يبيعون التين والتفاح والبندق والكتيبات للمتفرجين ، وفيما بعد ذلك - إذا صدقنا وليم برين البيوريتاني ، - كانت الغلايين تقدم للنساء^(١٧) . وجاءت النساء إلى الروايات أفواجا ، لا يعوقهن عن ذلك تحذيرات المناظر بأن مثل هذا الاختلاط يخرس على الغواية . وفي بعض الأحيان - حين كان الصراع الطبقي يعترض المسرحية ، كان جمهور الدرجة الثالثة يقذفون بمخلفات طعامهم على المتأنقين الجالسين على المنصة ، ويجدر بنا ، لكي نفهم الرواية في عصر اليزابث ، أن نذكر هذا الجمهور : العاطفة التي تهمل لقصة حب ، والمرح القلبى لخماسي الذي تلهف على رؤية المهرجين مع الملوك ، والخيلاء التي استساغت البلاغة ، والحيوية الفظة التي استمتعت بمشاهد العنف - كما نذكر قرب المنصة المثلثة الجوانب التي تغرى بالمناجاة والكلام على انفراد .

وكثر الممثلون ، وكاد الممثلون جوابو الآفاق أن يظهر وافي أية مدينة تقريباً في أيام الأعياد والاحتفالات ، يمثلون في ميدان القرية ، أو في فناء الحانة ، أو في حظيرة للماشية أو في قصر من القصور ، وفي أيام شكسبير لم يكن هناك ممثلات ، وكان الأولاد يمثلون الأدوار النسائية ، فكان يمكن للمشاهدين في أيام اليزابث أن يروا ولداً يمثل امرأة متنكرة في زي فتى أو رجل . وفي المدارس الخاصة الاستقرائية قدم الطلبة مسرحيات كجزء من تدريبهم أو دراستهم . ونافست فرق الممثلين الأولاد هذه فرق الممثلين الكبار ، عن طريق عرض الروايات في مسارح خاصة للجمهور وللمتفرجين الذين يدفعون أجوراً ، وشكا شكسبير من هذه المنافسة^(١٨) ، وتوقفت بعد ١٦٢٦ .

وحتى يتفادى الممثلون البالغون إدراجهم في مصاف المتشردين ، نظموا أنفسهم في فرق تحت رعاية وحماية النبلاء الأثرياء - ليستر ، سسكس ، أكسفورد ، اسكس وكان للورد أمير البحر فرقة ، وكذلك لورد كبير الأمتاء ، وكان هؤلاء الرعاية والحماة يدفعون أجور الممثلين عن العروض التي يقدمونها في قاعات البارونات والنبلاء . وفيما عدا هذا عاش الممثلون مزعزين غير مستقرين على أنصبتهم في فرقهم .

ولم تكن الأنصبة توزع توزيعاً عادلاً ، فكان للمدير الثالث ، واستولى نجوم الممثلين على نصيب الأسد من الباقي . وترك ريتشارد بوريدج — وهو أشهر هؤلاء النجوم — أملاً كآ تدر ٣٠٠ جنيه سنوياً ، أما منافسه إدوارد اللين Allyn فقد شاد وتبرع بكلية دلوتش في لندن . وكوفء مشاهير رجال المسرح بأعجاب الجمهور الأعشى بهم ، ويتهافت السيدات عليهم يخطبن ودهم .

ويروى لنا جون مانتجهام في مذكراته عن مارس ١٦٠٢ قصة مشهورة :

ذات مرة ، حين مثل بوريدج "ريتشارد الثالث" ، كانت هناك مواطنة قريبة الشبه به إلى حد بعيد: لدرجة أنها قبل أن تنصرف من الرواية حددت له موعداً ليحضر إليها تلك الليلة باسم ريتشارد الثالث . وكان شكسبير يسترق السمع إلى الحديث ، فسبقه إليها ، ولقى ترحيباً ونفذ خطته قبل حضور بوريدج . ثم جاء رسول يقول إن ريتشارد الثالث بالباب ، فرد شكسبير الرسول ليقول إن وليم الفاتح سيق ريتشارد الثالث (٤٩) .

٦ — كرسوفر مارلو ١٥٦٤ — ١٥٩٣

لم ينج كتاب المسرح من الريح قدر ما جنى الممثلون . ذلك أنهم باعوا رواياتهم دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و ٨ جنيهات ، ولم يحتفظوا بحقهم في المخطوطة أى في أصل الرواية ، وحظرت الفرقة عادة نشر النص لئلا تستخدمه فرقة منافسة . وسجل كاتب الاختزال الرواية أحياناً في الوقت الذى تمثّل فيه . وربما أصدر صاحب المطبعة من هذا التسجيل طبعة مسروقة محرفة لا يصيب المؤلف منها إلا ضغط الدم الشديد . ولم تحمل مثل هذه الطبعات دوماً اسم المؤلف ومن ثم ، فإن الروايات مثل Arden of Faversham (١٥٩٢) عمرت عدة قرون دون أن تحمل اسم مؤلفها .

وبعد ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزي على روايات لها بعض القيمة ، ولو أن عدداً قليلاً منها فقط هو الذى عمر لأكثر من يوم . وزخرف جون ليلي ملهياته بأغان شعبية ساحرة فقد مهد السحر الرقيق في روايته Endymion لرواية « حلم منتصف ليلة صيف » .

وربما تبادلت رواية روبرت جرين « Friar Bacon and Friar Bungay » (١٥٨٩) التي عالجت عجائب السحر ، نقول ربما تبادلت الفسكرة مع رواية مارلو « دكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟ — ١٥٩٢ ؟) . وروت « المأساة الأسبانية » لتوماس كد (١٨٥٩ ؟) قصة قتل دامية كادت لا تبقى على أحد في النهاية ، وأوحى نجاحها إلى كتاب الرواية في عصر اليزابث ودفعهم إلى منافسة القواد والأطباء في سفك الدماء . وهنا ، كما هو الحال في هملت نجد « شبعا » يطالب بالثأر ، كما نجد رواية داخل رواية .

وعمد كريستوفر مارلو قبل تعميد شكسبير بشهرين اثنين ، وهو ابن صانع أحذية في كنتربري ، ومن ثم فانه ما كان ليحظى بالتعليم الجامعي لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحة دراسية . وطوال سني دراسته بالكلية استخدمه سير فرانسيس ولسنهام جاسوسا للتحري عن أية مؤامرات ضد الملكة . ولقد زعزت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية ، كما أضنى اطلاعه على آراء مكيافللي على تشككه اتجاهها إلى المذهب الكابي (السخرية) . وانتقل إلى لندن بعد الحصول على درجة الأستاذية (١٥٨٧) ، وأقام في غرفة مع توماس كد . وانضم إلى حلقة المفكرين الأحرار التي تزعمها رالي وهاريوت . ورفع ريتشارد بارنز — أحد عمال الحكومة — إلى الملكة في ٣ يولية ١٥٨٩ تقريراً جاء فيه أن مارلو كان قد أعلن أن أول أصل في الدين لم يكن إلا إبقاء الناس في رعب وفزع . . وأن المسيح كان ابن زنى . . . وأنه إذا كان ثمة ديانة حققة فهي الكاثوليكية ، لأن عبادة الله عندهم تقوم على مزيد من الطقوس ، وأن جميع البروتستانت حير مرءون منافقون . . . وأن العهد الجديد (الإنجيل) كله مكتوب بشكل قدر بذيء . ويضيف بارنز « ثم أن مارلو هذا . . . في كل اجتماع يحضره تقريباً . . . يحرض الناس على الإلحاد ، ويريدهم ألا يخشوا « البيع بيع » والغيلان : مزدنيا كل الازدراء للرب ورسله (٥٠) . » كما أن بارنز (الذي أعدم شنقا في ١٥٩٤ لفعلة شائنة) أضاف — ليحكم التدبير — أن مارلو دافع عن اللواط (٥١) . ووصف روبرت جرين في دعوته أصدقاءه إلى الإصلاح ، وهو على فراش الموت : نقول « وصف مارلو

بأنه ميسال إلى التعذيب والإلحاد^(٥٢) وقرر توماس كند - وقد قبض عليه في ١٢ مايو ١٥٩٣ - تحت تأثير التعذيب ، أن مارلو كان مارقا مدمنا للخسر ، قاسى القلب » ، معتادا على « السخرية من الكتب المقدسة » و « الاستهزاء بالصلوات^(٥٣) » .

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل ، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه في الكتب الدينية . ومن الواضح أنه ألف Tamburlaine The Great في الكلية وأنه أخرجها في عام تخرجه ، وإن تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة ليكشف عن مزاج الشاعر المصطبغ بمبادئ فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة) .

إن نفوسنا التي تستطيع بما أوتيت من مواهب

أن تدرك عجيب صنع العالم ،

وتقيس مدار كل كوكب سيار ،

ولا تزال تصعد وراء المعرفة اللانهائية ،

وتنتقل دائما مثل الأجرام التي لا يقر لها قرار

تريدنا أن نفنى أنفسنا ، وألأنهدأ ،

حتى نصل إلى أنضج الثمار في كل شيء^(٥٤) .

وكانت الروايتان اللتان كتبهما عن تيمور ثمان عن فجاجتهما ، وكان تصوير الشخصيات مبسطة أكثر مما ينبغي التبسيط - فكل شخص يمثل صفة واحدة ، فتامبورلين هو الزهو بالقوة ، ويكاد الزهو أن يكون غرور طالب جامعي منتفخ الأوداج بيدع وأشياء جديدة لم يتمثلها جيدا في عقله ، لا أن يكون ثقة هادئة بالنفس لدى ملك ظافر . وتجري القصة على أنهار من الدماء تعترضها السدود أو الاحتمالات البعيدة . والأسلوب ينزع إلى الكلام المنمق الرنان . ماذا إذن أكسب هذه الرواية أعظم النجاح ، إلى هذا الحد ، في عصر الزباث ؟ يحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى مافيا من عنف وسفك دماء وتنميق ، ولكننا أيضا قد نؤمن بأنه يرجع إلى ما فيها من زندقة وهرطقة وفصاحة ، ففيها أفكار تدوى بجرأة أكثر ،

ووصور يحس بها المرء إحساساً أعمق . وعبارات استخدمت بكاء أكثر مما سمع أو عرف في المسرح الاليزابيثي من قبل . وهنا كانت عشرات من « الأبيات العظيمة » مما حدا بجونسون أن يمتدحها ، وقطع تتسم بجمال شجي ، حتى لقد ذهب سوينبرن إلى أنها فريدة في نوعها .

وأعجل التهليل والعتاف مارلو ، فأسرع الخطى ، وكتب بكل ما أوتي من قوة الروح أعظم أعماله : « التاريخ الفاجع لدكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟) . إن أخلاق العصور الوسطى التي ربما أقرت « أن بهجة المعرفة بهجة يعروها الحزن والأسى » (٥٥) ، وأن في المزيد من الحكمة . مزيداً من البلية (٥٦) كانت قد دمغت اللهفة الجائحة على المعرفة بأنها إثم عظيم ، بيد أن طموح العصور الوسطى تحدى هذا الحظر ، حتى إلى حد مناشدة السحر والشيطان بغية الوقوف على أسرار الطبيعة وقواها . وإن مارلو ليمثل فاوست على أنه طبيب ويتنبرج العالم الشهير الذي يتميز غيظاً من الحدود الضيقة لمعرفته وعلمه ، ويحلم بوسائل سحرية تجعله يحيط بكل شيء علماً .

إن كل شيء يتحرك بين القطبين الساكنين

سوف يكون تحت أمرى . . .

وهل أجعل الأرواح تأتبنى بكل ما أريد ،

وتبدد كل غموض والتباس .

وتقوم بكل مغامرة يائسة أبتغيها ؟

سأجعلها تطير إلى الهند من أجل الذهب

وتنقب في المحيطات وراء لآلئ الشرق

وتفتش في كل أركان الدنيا المكتشفة حديثاً

من أجل الفاكهة الشهية وكل ألوان النعيم والترف ،

وسأجعلها تتلو على غرائب الفلسفة .

وتقص على أنباء الملوك الأجانب (٥٧) .

وبناء على نداء منه ، يظهر مفستوفيلس ، ويعرض عليه أربعاً وعشرين

سنة من السعادة والقوة ، شريطة أن يبيع نفسه إلى لوسيفر ويوافق فاوست وبوقع

العقد بدم ذراعه المقطوعة . وكان أول مطلب له هو أن يأتيه بأجل فتاة في ألمانيا لتكون زوجة له ، " لأننى شهوانى لعوب داعر " ، ولكن مفستوفيلس يثنيه عن الزواج ، ويقترح بدلا منه مجموعة متعاقبة من الخليلات والمحظيات . ويطلب فاوست بهيلين عادة ترواده ، فتأتى إليه ويفرق هو في غمرة النشوة والابتهاج :

هل هذا هو الوجه الوحيد الذى هاجم ألف سفينة
وأحرق أبراج ترواده الشاذقة ؟
أيها الحميلة هيلين امنى الخلود بقبلة منك . . .
آه . . . إنك أحلى من نسيم المساء
مكسوة بحال ألف من النجوم

وعولج المشهد الأخير في قوة هائلة : التوسل الأخير إلى الله في شيء من الرحمة ، أو على الأقل في نبرة من اللعنة والعذاب — « فليعيش فاوست ألف سنة بل مائة ألف سنة في الجحيم ، لينجو في النهاية » — ثم اختفاء فاوست عندما آذنت الساعة بحلول منتصف الليل ، وسط ضجة هائلة من السحب المعتمدة المصطدمة بعضها ببعض . وتنشد الفرقة الموسيقية كلمات تخليد ذكراه — وذكرى مارلو :

انقطع الغصن الذى نما وترعرع مستقيما عاليا ،
واحترق فرع الغار الذى يكلل أبوللو

ربما استطاع مارلو ، في هذه الروايات ، أن يطهر ميوله الخاصة نحو المعرفة والجمال والقوة ، ولكن تطهير العواطف ، أو أثر التنقية والتنظيف — ذلك الذى عزاه أرسطو إلى المسرحية المأساوية ، كان يظهر في المؤلف أكثر منه في جمهور المشاهدين . وفي مسرحية « يهودى مالطه » (١٥٨٩ ؟) تأخذ الرغبة في القوة شكلا متوسطا من جشع المال والثروة ، وتدافع عن نفسها في الخطبة التى ألقاها مكباغل :

إنى لأعجب لأولئك الذين يبغضوننى كل البغض .
وعلى الرغم من أن بعضهم يندد علانية بكى
فانهم ، سيقرونها ، ومن ثم يصلون

إلى كرسي بطرس ، وعندما يتخلصون منى
سيكون أعدائى الصاعدون خطراً عليهم
وإنى لأعتبر الدين لعبة أطفال ،
وأعتقد أنه ليس شمة خطيئة غير الجهل .

ومرة أخرى نجد أن بارباس مقرض النقود صفة واحدة مجسدة ، هى الجشع
إلى حد الكراهية لكل من يعوق سبيل مكاسبه فى صورة ساخرة بغیضة عولجت
برذائل مهیبة .

لقد تعلمت فى فلورنسة كيف أقبل يدى
وأرفع ذراعى عندما ينادونى يا كلب ،
وأناورى ذليلاً مثل أى أخ عارى القدمين
أملأ فى أن أراهم يموتون جوعاً فى حظيرة (٥٨) .

ولأنه ، وهو يدق التأمل فى مجوهراته ، يهتز طرباً " لثروتهم التى لا حد لها ،
فى غرفة صغيرة (٥٩) " وعندما تستعيد ابنته حقائب أمواله المفقودة ، يصيح فى خليط
من المشاعر ، سبق بها شيلوك ، " آه يا ابنتى ، ذهبى ، ثروتى ، بهجتى (٦٠) " .
وفى هذه الرواية قوة تكاد تكون ضراوة ، وفيها وخز بالألقاب وقوة فى العبارة ،
أدت بمارلو ، بين الحين والحين ، إلى الاقتراب كثيراً من شكسبير .

وكان أشد اقتراباً منه فى رواية إدوارد الثانى (١٥٩٢) ، فلما أن توج الملك
الضغير أرسل إلى صديقه الأغريقى " جافستون ، وأغدق عليه بسخاء القبلات
والمناصب والأموال ، فثار النبلاء الذين أهملهم وخلعوا إدوارد الذى اتجه إلى
الفلسفة ، فنادى رفاة. الباقي :

تعال يا سبنسر ، تعال يا بالدوك ، اجلسا إلى جوارى

جربا الآن تلك الفلسفة ،

التي فى بيوت حضانتنا المشهورة للفنون
كنتم ترضعونها من أفلاطون وأرسطو .

إن هذه الرواية (إدوارد الثانى) - بهذا البتيان المحكم ، وبالشعر المفعم بالحساسية والخيال والقوة ، وبهذه الشخصيات التى رسمت فى وضوح وتماسك ، وبهذا الملك الممزوج من اللواط والزهو ، ومع ذلك يمكن الصفح عنه فى بساطة صباه وجماله الغض - نقول إن هذه الرواية بكل ما ذكرنا ، كانت قيد خطوة من رواية شكسبير « ريتشارد الثانى » التى أعقبها بسنة واحدة .

ومأدا كان عساه ينجر هذا الكاتب المسرحى الذى بلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ، إذا اكتمل نموه . فى مثل تلك السن كان شكسبير يكتب توافه مثل :
Two Gentlemen of Verona, Acomedy of Errors Love,s Labour's Lost
وفى « يهودى مالطة » كان مارلو يعرف كيف يجعل كل منظر يدفع أمامه مكيدة مرتبة ، وفى « إدوارد الثانى » تعلم كيف يعرف الشخصية الواحدة على أنها أكثر من صفة واحدة مجسدة ، وربما تيسر له فى عام أو عامين تطهير رواياته من الكلام المنمق الطنان والأحداث المثيرة ، ولربما سما إلى فلسفة أرحب أفقا ، وإلى تعاطف أعظم مع أساطير بنى الإنسان ونقاط الضعف فيهم . وربما كانت نقيصة المعيبة هى الحاجة إلى الفكاهة ، فليس ثمة ضحك لطيف فى رواياته ، فاللهو العارض - كما هو الحال فى روايات شكسبير ، لا يؤدى مهمته الصحيحة فى المأساة - ألا وهى تهدئة روح المستمع قبل الارتفاغ به إلى ذروة المأساة . وكان يستطيع أن يقدر الجمال الحسى أو المادى فى النساء ، ولا يقدر ضعفهن وقلقهن وكياستهن . وليس فى رواياته شخصية نسوية قوية نشيطة ، حتى فى الروايتين اللتين لم يكملهما « ديدو » و « ملكة قرطاجة » .

ولم يبق أمامنا إلا الشعر . وأحيانا تغلب الخطيب على الشاعر ، فصاح الخطيب « بخطبة عظيمة مدوية^(٦١) . ولكن كم من مشهد كان الشعر المشرق ينساب فيه بصورة حية وألفاظ متناغمة إلى حد أن الإنسان قد يخطئ بعض السطور فيظن أنها من فيض خيال شكسبير . وأثبت الشعر المرسل عند مارلو أنه الأداة الصحيحة للمسرحية الإنجليزية ، وقد يكون أحيانا مملا على وتيرة واحدة ، ولكنه عادة متنوع فى أوزانه ، يحقق لاتصال وترابط يبدوان طبيعيين .

وأسدل الستار الآن فجأة على « تاريخه الفاجع » الخاص ، ففي ٣٠ مايو ١٥٩٣ ، اجتمع ثلاثة من جواسيس الحكومة — انجرام فريزر ، نيقولا سكيرز ، روبرت بولى — بشاعرنا مارلو — وربما كان هو الآخر لا يزال جاسوسا — اجتمع الأربعة للعشاء فى منزل أو حانة فى دتفورد ، على بعد أميل من لندن ، وطبقاً لما جاء فى تقرير وليم دانبي — المحقق فى أسباب الوفيات المشتبه فيها — « تراشق فريزر ومارلو بألفاظ نابية قبيحة فى تبيان السبب الذى من أجله لم يتفقا . . . على دفع نفقات العشاء . فما كان من مارلو إلا أن استل خنجرًا من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض جروح سطحية . فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فوراً ، وأصابه بجرح قاتل عمقه بوصتان فى عينه اليمنى . . . ماث المدعو كرستوفر مورلى متأثراً به فى الحال » ، حيث وصل النصل إلى المخ . وقبض على فريزر فترافع بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس ، وأفرج عنه بعد شهر . أما مارلو فقد وورى التراب فى أول يونية فى قبر غير معروف الآن (٦٢) . وقد بلغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً .

وبالإضافة إلى Dido ترك مارلو شذرتين غاية فى السمو . أما Hero and Leander فهى قصيدة رومانتيكية ، من المقاطع ذوات البيتين من نوع الملحمة ، عن قصة موزائيس التى حكى فى القرن الخامس عن شاب قطع الدردنيل سباحاً ليوفى بموعده لقاء . وإن أنشودة « الراعى المشبوب العاطفة فى الطريق إلى حبيبته » . هى واحدة من أعظم الأغاني الشعبية فى عهد إليزابث . واعترف شكسبير اعترافاً جميلاً بفضل مارلو ، فأجرى فقرات من هذه القصيدة على لسان سير هيو أيفانز فى رواية « الزوجات المرحات فى وندسور » ، كما أشار إليها إشارة رقيقة فى رواية « على هواك As You Like It » :

أيها الراعى الذى قضى نحبه ، إلى أرى الآن قولك المأثور فى القوة
« من ذا الذى أحب . إذا لم يكن أحب لأول نظرة ؟ »

وهذه هو البيت رقم ٧٦ من رواية مارلو Hero and Leander

لقد أنجز مارلو الشئ الكثير في العمر القصير . ولقد جعل من الشعر المرسل كلاماً مرناً قوياً . وأنقذ المسرح على أيام اليزابث من دعاة القديم ومن البيوريتانيين وأضفى أشكاهم المحددة الواضحة على مسرحيات الأفكار ومسرحيات التاريخ الإنجليزي . وترك بصماته على شكسبير في روايتي تاجر البندقية وريتشارد الثاني ، وفي شعر الغزل ، وفي الاسلوب البليغ الفخم . وبظهور مارلو، وكيد Kid ؛ ولودج ، وجرين ؛ وبيل Peele ، كانت الطرق قد فتحت ، وكان شكل المسرحية وبنيتها وأسلوبها ومادتها قد هيئت كلها . فلم يكن شكسبير معجزة ، بل كان منفذاً ومنجزاً لما بدأ به هؤلاء جميعهم .

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ - ١٦١٦

١- أيام الشباب ١٥٦٤ - ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالا للبحث ، ما يعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخلفاته ودراستها لثلاثة قرون . فإنه يهمننا أن نقيس ما نعرف عنه - وهناك شيء كثير يطرح جانباً لأنه غير جدير بالمناقشة ، وهناك الشكوك التي تثار حول تأليفه لكل الروايات التي نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أبحاث الزايت من الخيرية في هجاء الكلمات أكثر مما أبحاث في حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة نرق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعاً لمزاجه وسرعته في الكتابة . وهكذا كتب المعاصرون مارلو ، ماراين ، مورلي وغيرها ، أما توقعيات شكسبير الستة الباقية فهي كما تقرأ : **Willm Shakspe** ، **Willjam Shakspeare** - **Willm Shakspere** - **Wm Shakspe** - **William Shakespe** وهو الهجاء السائد الآن ، وليس له ما يؤيده في مخطوطاته ، والتوقعات الثلاثة الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه ماري آردن . من أسرة قديمة في ووروكشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن مستأجر أرض والداه ، صداقاً ضخماً نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتورد على نهر الآفون ، واشترى دارين ، وخدم بلده ذاقاً للجنة . ومستولاً عن الأمن ، وعضواً في مجلس المدينة ، ومساعداً للأمور التنفيذية ، وأحضر إلى الفقراء

بسخطه وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده. وأقيمت عليه تدعوى من أجل ثلاثين جنيهاً. وأخفق في دفع التهمة عنه، وصدر أمر بالقبض عليه. وفي ١٥٨٠، ولأسباب مجهولة، مثل أمام المحكمة ليقدم صفانا بعدم الإخلال بالأمن. وفي ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لا يخشرون إلى الكنيسة شهرياً طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة الجلالة ». واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكياً « عاصياً » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه. واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقي في شارع هنلى منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشية في ستراتفورد تعميد وليم في ١٦ أبريل ١٥٦٤. ودون نيقولا رو - وهو أول من كتب سيرة حياته - في ١٧٠٩ ، - أسطورة ستراتفورد التي يصدقها الجميع الآن ، وهي أن الوالد ربي ابنه . . . لبعض الوقت في مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة أبيه له في موطنه . . . أجبرته على سحب ابنه من المدرسة (١) . وفي الميثية التي ظبرت في مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذي مات « لقد تعلمت قليلاً من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظفروا على حالمهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم .) ولكنه تعلم من اللاتينية ما يكفي للـ رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجدداً نشيطاً ، مجهولاً ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حواء ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيراً ما كان سبيء الحظ في سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسى الذي كان غالباً ما يجلبه بالسوط ، وأحياناً يسجنه (٢) » . وفي ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم في سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاثواي ، وكانت هي في نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها (٣) . وفي مايو ١٥٨٣ - أي بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لها طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمن عمدا تحت اسم هامنت وجوديث في ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوال نهاية هذا العام هجر شكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامي ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعتز عليه ممثلاً في لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تخط من قدره . وفي ٣ سبتمبر ١٥٩٣ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يرحلهم عن مكانهم في مسرح لندن " غراب ناشئ " يزدان بريشنا نحن ، وأنه في جراحة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين ، (وفي هذا تهجم لاذع على بيت في مسرحية هنري السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطنطن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبما أنه مستخدم يؤدي كل المهام ، ففي تصويره أنه أحسن ممثل في أي بلد (١) . " وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات » من ذكاء جرين — أعدها هنري شاتل ، الذي قدم في رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا ماراو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين .

إنني لم تكن لي صلة بأى من هذين الرجلين المعتدين ، ولا أعبأ قط بأنني لن تكون لي صلة بأحدهما . أما الآخر ، فاني آسف لأنني رأيت به سبباً أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كما لم يكن هو أقل امتيازاً في المهنة التي يدعيها ، وفوق ذلك فإن مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التي تم على أمانته وكياسته في الكتابة التي تؤيد فنه (٥) .

ويبدو أنه ليس ثمة شك في أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد في ستراتفورد ممثلاً وكاتباً مسرحياً في العاصمة . ويروي دودال (١٦٩٣) ورو (١٧٠٩) أنه « استقبل في المسرح كخادم في مرتبة وضيعة جداً (٦) » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهف على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شيء سوى الجلال والعظمة (٧) " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جناحاً من نفسه متعة وبهجة للنظر (٨) . ثم مثل دور " آدم الشفوق " في رواية

”على هواك“ والشبح في هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين في رواية جونسون *Everyman in His Humour* أو في رواية جونسون *Sejanus* (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما ”الممثلان المأساويان الرئيسيان“ (١). وقى أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً في فرقة تشمبرلين للممثلين. ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً ، بل لكونه ممثلاً ومساهماً في فرقة مسرحية .

ومهما يكن من أمر فانه في ١٥٩١ كان يكتب الروايات . ويبدو أنه بدأ ”طبيباً للرواية“ (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة . وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك في التأليف . وإن الأجزاء الثلاثة من ”هنري السادس“ (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك . وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام ، حتى بلغت حملتها ستا وثلاثين أو ثمانى وثلاثين رواية . وإن عدة من رواياته الأولى مثل *Two Gentlemen of Venoma* ، *Acmedy of Errors* (١٥٩٤) ، *Loves Labours Lost* (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الآن . وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضنى . ولكن الصعود كان سريعاً . وأوحت إليه رواية مارلو ”إدوارد الثانى“ أن يلتمس في التاريخ الإنجليزى أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية ”ريتشارد الثانى“ (١٥٩٥) رواية مارلو . أما رواية ”ريتشارد الثالث“ (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها . ووقع إلى حد ما في خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحذب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل ، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعنق التحليل وقوة الإحساس ومضات من العبارة المشرقة . وسرعاً ما أصبحت عبارة ”جواد! جواد! مملكتى مقابل جواد!“ — ذاتة على كل الألسنة في لندن .

ثم فترت العبقرية في *Titus Andronicus* (١٥٩٣) . وغلب التقليد ، وعرض رقصة الموت البغيضة ، فان تيتس يقتل ابنه . وآخرين صهره أو زوج ابنته ، على المسرح ، وتغتصب عروس وراء الكواليس فتأتى إلى خشبة المسرح ، وقد قطعت يداها ، وقطع لسانها ، والدم ينزف من فيها . ثم يقضّع أحد الحوتة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابني تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجالون شكسبير ليحملوا المشتركين في التأليف جزءاً من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الحاططة القائلة بأن شكسبير لا يكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدراً كبيراً منه .

وألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائد السونيت ، وربما كان الطاعون الذى تسبب في إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ - ١٥٩٤ ، هو الذى تركه في فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئاً من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر . وفي (١٥١٣) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريو تسلى أرل سو ثمبتون الثالث . وكان لودج قد اقتبسها من قصة أوفيد *Metamorphoses* ، واقتبسها شكسبير عن لودج . وكان الارل شاباً وسيامغمسا في الملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما تلت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة في هذه السنوات العجاف ، ولكن في غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ - ٧٠٨) مما قل أن قرأت لإنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيدة من استحسان عام ، وبهدية من سو ثمبتون فأصدر في ١٥٩٤ *The Ravishment of Lucrece* حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر في الشعر . وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٦٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونيت التي كانت أول مائت مائت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريباً ، وقد نهلت كثيراً من معين بئراك من قصائد السونيت - الجمال العابر للمحبة وتردداتها وتقلباتها القاسية . وثاقل خطوات الزمن الذى يضع سدى وغيرة الحبيب وظمؤه الابل . وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقاباً ونعوتاً منتحلة من كونستابل ودانيل . وواطسون - وغيرهم من شعراء السونيت الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

في سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد في ترتيب قصائد السونيت في نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا في أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الحد حبكتها الغامضة - حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » في البلاط . وصدودها عنه ، وترجيها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذلك الصديق ، وسهاد شكسبير اليائس وتقكيره في التخلص من الحياة . ومن الجائز أن شكسبير ، وهو يمثل في البلاط ، اختلس النظرات في لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهر الأنظار ، ولكن ليس من المرجح أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خلية أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة ، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة . في الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوه » (١٠) .

وفي ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . ه . مع كل ما بشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى ينبغي الخير ، فيما يعتزم من ترحال . » ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . « . توماس ثورب » . ولكن من هو « و . ه . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل في عصره أو منذ ذلك العصر . وكان هربرت في عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبوب الفتى » . وغالبا ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنىسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر الزبائث أدباء لوطين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لا تكمن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصص أجنحة الخيال ، ولا بد أن شكسبير ابتهج بما هيا له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس ، فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندلو . وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى . ونقلنا عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المتهاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسب فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينهض لاهثاً أو حابساً أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر في عالم المسرح ، في كل عام تقريبا ،
ففي ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم رديجو لوبيز ، طبيب المملكة اليهودي ، بتهمة قبول رشوة
ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت الزبائث طويلا في التصديق
على حكم الاعدام ، ولكن العامة في لندن أخذوا جريمتهم قضية مسلما بها . واستعرت
روح العداء للسامية في الحانات (١١) . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن
يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية »
(١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه في مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك
في شخصية هزلية في ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو في إبراز
كراهية مريض النقود وجشعه ، ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة
التي لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من
أجل اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لا يزالون يجادلون فيما
إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنب (١٢) ؟ وهنا ، فوق
كل شيء ، أظهر شكسبير براعته في أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط
مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية
مثل هذا الشعر العاطفي الرومانتيكي ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات
حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك
أن الجنس البشري المنهوك يختص بأسخى جوائز أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك
والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » « راء قوى عوض عنه مندلسون .
ولم تنفذ هيلينا رواية « Alls Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع
جعجعة ولا أرى طحنا » فهي تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة »
محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيا جدا . ورواية « ترويض النمرة » زائحة
بمرح صاحب بشكل لا يصدق ، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة .

(١) فارن Two Gentlemen of Verona ، ٢ - ٢ - ٢٠٢ ، Merry Widows of Windsor ، ١ - ٢ .

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال ، وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة ،
ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن مجزئى " هنرى الرابع " (١٥٩٧/١٥٩٨) صعد الساحر العظيم ثانية
إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء — فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال —
فى نجاح كان يمكن أن يجعل سدنى يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك
على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج
" هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسلمهم فى وقت معاً ،
ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويثيرهم
بمجموعة أجنكورت ، ويهيجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate
بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف
وأمرت منشئ (مؤلف الرواية) أن يحببه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام (١٣) .
ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن
تم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات
المرحات فى وندسور " كانت عملاً مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم
كونها صاخبة لأنها حافلة بالحشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف
فى ذروة نشاطه وحيويته . حتى ألقى به إلى النهر فى ساة غسيل . وقيل لنا إن
الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشيء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ —
١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه . ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية
البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج
" روزاليند " (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح
والهزل الخاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس ، مرحة رشيقة من
حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو ويحفر اسم
روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمرائى
على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سيد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجبت بها ملايين الشفاه : ” نحت الشجرة الخضراء
هب : هب يا نسيم الشتاء ، ” ” فهناك كان عشيق وفتاته ” ، إن التدفق أو الإنتاج
بأسره كان حماقة وعاطفة للذيدتين محبتين ، لا يمكن مباراته في أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة
المررة . معلنا أن ” مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع
أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله ” على خشبة المسرح ، وليس ثمة شيء يحقق
يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء
فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة
نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا (١٤) .

وهكذا أُنذرنا شاعر آفون أن رواية ” على هواك ” كانت آخر روائع المرح
والبهجة ، ومن بعدها ، حتى إشعار آخر ، عرض أن يسر غور الحياة ليظهرنا على
حقيقتها الدامية ، وهو الآن يريد أن يفيض علينا من معين ” الرويات المأسوية ” ،
ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

في ١٥٧٩ عرض كتاب توماس نورث عن بلونارك ذخيرة نفيسة من
المسرحيات ، أخذ منها شكسبير ثلاثاً من ” سير الحياة ” وصاغها في مسرحية ” يوليوس
قيصر ” (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحياة إلى حد أنه أخذ منها
عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ما عمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ،
ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتوني أمام جثمان قيصر كانت من ابتداع الشاعر
نفسه . جاءت تحفة رائعة في فن الخطابة والبرقة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى
أجازه لقيصر . وربما أترفيه إعجابه بدوق سوثبتون وإرل بمبروك ، وارل إسكس
الشاب ، فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهديين بالخطر .
ومن ثم يصبح بروتس محور الرواية . ولكننا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن
عن الفساد ذى الرائحة الكريهة في ” الديمقراطية ” التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلاً
إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية في مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضي ليقف عاجزا بين يدي الحاضر الذي كثيرا ما يعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفي كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة في نفس الموضوع وتحداها . وكانت هملت قد أخرجت في لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندري كم أخذ من هذه « المأساة » المفقودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركي ساكسو جراماتيكيوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهي ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبي فرنسي ألفه دي لورنس . وإنما ، ونحن نشك في غير انفعال أو تدمير ، في كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شيء من الحزن الشخصي — بالإضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذي شاع في هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هذا تحورا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونيو ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها زلت مشاعر شاعرنا الزهف الحسن ، الذي كان قد امتدح ، في حرارة بالغة . اسكس في مقدمة الفصل الأخير من « هنري الخامس » : كما كان في إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومما يكن من أمر . فإن أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهي أدق في حبكة الرواية ، وأعمق في التفكير ، وأروع في اللغة من سابقتها . ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة في الأدب بأسره . إن إرادة هملت المدبنة ، بل « عقله الملكي الممتاز » على الأغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر . وتشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهذا ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للرهبانيات ، بل إلى الجنون والموت . وفي النهاية نجى مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصاب بلوثة .

وفي الوقت نفسه وجدت الزباث ، هي الأخرى ، البلمس الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع في إمتيازات فرقة شكسبير التي أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكياً كبيراً . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ - ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ما هي بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتروا بنخب يا جوالدال على ذكائه ؛ ولكن في تصوير مثل هذا الشر المحض الذي لا باعث عليه في الانسان ؛ وقع شكسبير في خطأ مارلو ؛ ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ، كان يتقصه هذا المزيج الفنى من العناصر التي تضفى الروح الإنسانية على هملت ولير وبروتس وأنطوني .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملاً أشد رهبة في الشر الذي لا تخف حدته . وكان شكسبير يستشهد بهولنشد في الخفايا المطلقة ، ولكنه زاد في عتامة القصة وكأبتها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته في رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف بموث قد طور القصة ، ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبيكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد في أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتمائه بابنتها كورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم في جنون الملك وموته بخلع من العرش كما أنه أضاف الإغماء الدامى الفظيخ الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المראה هي النغمة الأساسية السائدة في الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لآنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، في نظرتة القائمة ، ما هي إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أوبنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالحنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح . وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التي تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطوني وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أقل . وثمة شيء أنبل في هزيمة أنطوني منه في سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقا واحتمالا في افتتان الرومان بالملكة المصرية منه في قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حقاء ، وفي جبن كليوبطره في الحرب ، وروعها في الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد في القصة التي طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتألى الذي لا يعرف الكلل . أما التشاؤم في رواية « تيمون الأثيني » (١٦٠٨ ؟) فهو تشاؤم تهكمي ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل « كوريولانس » الناس على أنهم النتائج المتقلب الدليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيعهم ووضيعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك في سيرة أنطوني قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قبله أوردته في حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألقت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثماني سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يحتفون بين عشية وضحاها ، ينفذ غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة في غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بني الإنسان (١٦) » وهو يتمنى لو « أن ألسبيادس » كان كلبا « حتى أكن لك شيئا من الحب (١٧) » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذهابا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألدع هجاء . ولكن عندما تأتي العاهرات وبنات الهوى يتفحهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل .

لتنخر في عظام الرجال الخوفاء ، واضربن على طنائدينهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن اللقب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس بالسنة حدا من أجل طبيعتهم الشهوانية
وهو لا يصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمها ، وأكسرن قصبتها تماما ،
ولتدع دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر الجراح
يتقلوا عنكن الأمراض الموجعة . اصبين العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن (١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر
الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر
يجعله يبدو غير حقيقى ، ولا يمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ
السخيف على الخطأين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمناخ الحياة الدنيا . إن مثل
هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن
شكسبير لا بد ستعود إليه الابتسامة سريعا .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تستى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت
وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن لإحقاق معرفة
على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلا فى لم النفس ،
ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاح له دراسته فى صباه أن يطالعها ،
وكانت مراجعاته وإشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتقان أو تعمق ، وواضح أنه كان مقصورا على المترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيد Metamorphoses ووقع في أخطاء صغيرة ، ما كان سيكون مثالا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو في القرن الثالث ق . م . (١٩) وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس (٢٠) (القرن القرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على المام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض المام بالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على بوهيميا شاطئاً على البحر (٢١) . وأرسل اثنين من نيرونا إلى ميلان بحرا (٢٢) . وبرسبيرو من ميلان في قارب عابر المحيط (٢٣) . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة ، ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكاتب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط في رومه على عهد قيصر ، والبليارد في مصر على عهد كليوباتره . وكتب « الملك جون » دون ذكر للعهد لأعظم (ماجنا كارتا) ، و « هنرى الثامن » دون التعرض للإصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من تجديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الإيجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية الانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك في رأى شكسبير ساحرة داعرة . وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن التاريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح في عهد اليزابث ، كثيرا

(٢١) انقضى بن جونسون على هذا في أحاديثه مع درومند في هوثورنيل (٢١) ، وانه شكسبير عن قصة لروبرت جرين ، وهو مخرج في الجاهة ، فنبت حكم أرتوكار الثاني (١٢٥٣ — ٧٨) مات بوهيميا سلطانها إلى شواطئ الأديرياتيك (٢٢) .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا : وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التي أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التي انشغل بها هو والده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقى مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغنم تذهب بالأرواح لتحلق بعيدا عن أجسامها (٢٥) » ؟ وإنه ليذكر في رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها في عقد في رواية « قصة الشتاء » ، ويكسو بها أوفيايا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النبات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التي سرعان ما افتتن بها بكون . وكما فعل بكون ، حفظ شكسبير فلك بطلميوس (٢٦) . وبدا في بعض الأحيان (سونيت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان (٢٧) » : ولكن ادووند في « الملك لير » وكينياس في « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ ، باعزى بروتس ، ليس في نجومنا (في طالعنا) بل في أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء (٢٨) » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العارضة التي يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذي عاش لينكب على الكتب . وعرف أفضع آراء مكيافالى ، وأشار إلى رابيليه ، واقتبس من مونتاني . ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفاتهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية (٢٩) مأخوذ من بحث مونتاني « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كليليان (العبد الرقيق الذي كان يمتلكه برس-بيرو في رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتاني لأنه أضفى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند هملت ، وهل ينسب شيء منه إلى شكوك مونتاني اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية في ١٦٠٢ ، أي قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتاني الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس في كتاب الرجل الفرنسي (١٠)

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الدم الشديد للحياة في الملك لير ، كريولانوس ، تيمون ، ماكبث ، . إن شكسبير ذو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات والأبيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب في كل الأزمان أصالة وامتيازًا وخلقا وإبداعا .

وتكمن الأصالة في اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحي والدعابة وأشخاص الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغات في كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف لفظ ، يما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرض في الشوارع ، بالإضافة إلى ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, — Burnet, Spurring . . . لقد استساخ ألفاظا ، ونقب في مختلف أركان اللغة وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه في حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا ذكر اسم زهرة ، فانه لابد يتابع حتى يسمى اثني عشرة زهرة ، وإن الألفاظ نفسها ليفوح منها غير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص في رواياته كلمات متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب في النحو والصرف تخريبا لطيفا ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ، ويقب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل المفرد ، أو الفعل المفرد للفاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الوقت استخدام للنحو ولا الصرف في الإنجليزية ولا قواعد لها . ولقد كتب شكسبير على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنثى المتميز الباروكي » (٣٠) (يتسم بالزخرفة والتعقيد والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون : في عبارات متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض في فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ، وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاخب والهراء تتشدد به أبغض الأفواه غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكي ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر في نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلاً على لسان فرديناند :

إن لديه في مخه داراً لسك العبارات ،

وإن عباراته لتسلب الألباب

وكأنها الإيقاع الساحر .

ولكني أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب (٣١)

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا (٣٢) ، تضييع وقت السلم سدى (٣٣) ، أريد أباً للفكر (٣٤) ، قل الحق وأحجل الشيطان (٣٥) ، يسكن الريح في هذا الركن (٣٦) ؟ لا يستقر قرار للرأس الذي يحمل التاج (٣٧) . يطل الزنبق (٣٨) ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة (٣٩) ، أى حمقى هؤلاء البشر المعرضون للفناء (٤٠) . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة ما يخدم غرضه (٤١) ، جنون منتصف الصيف (٤٢) طريق الحب الصادق ممتلئ بالأشواك (٤٣) ، ألبس قلبي على كمي (أحمل رأسي فوق كفي) (٤٤) ، في كل بوصة ملك (٤٥) ، قدر الطاقة (٤٦) ، الإيجاز روح الفطنة (٤٧) ، .. وربما كان هذا تلميحاً لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيدها منها « قد نرى الأشعة نحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة (٤٨) » . كما أن هناك قطعاً بأكملها تكاد تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهار أوفيليا المضطربة ، أنطوني أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن هناك ذخيرة من الأغاني : « من هي سيلفيا (٤٩) » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على باب السماء (٥٠) » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عني (٥١) ، وربما حضر جمهور نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

” إن الخيال ليتمثل المجنون والعاشق والشاعر منضمين في صورة واحدة (٥٢) » ، واجتمع في شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليهلئ في كل رواية عالماً ، ولا يقنع بهذا ، فيملأ الامبرطورايات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبياني ، وجن سريع العدو ، وسحرة مرعبين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه
الذى يفكر باصوور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء
محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبتارك) كان يمكنه أن يجعل روميو ، وقد
نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقدآ ، لأن ققطها وكلاهما قد تحدد النظر إلى
جولييت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان
يستطيع أن يجعل الدوق المطرود في رواية ” على هواك “ ، يأسف لأنه لا بد أن
يعيش على صيد حيوانات هي في الغالب أجمل من الإنسان ؟ لاعمجب أن روحاً قوية
بكل معاني الكلمة ، لا بد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة
والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا في بعض الأحيان أنه يشيع
في النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة في الفن المسرحي إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه
رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور
المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتبادلون النظرات
الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من ” أدوات “ المسرح في عهد اليزابث
وآلاته . ودرس رفاقه في التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية .
واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغييرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية
داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن
الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فإذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة
لير ؟ فكل القصص تقريباً تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال ، وهويات خفية .
ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن
بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن بمجرد بالفنان أن يحد في أقل الحدود
” البناء القائم على غير أساس “ لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية
تناقضات الزمن والخلق (٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذى فكر في سرعة الإنتاج .
لا في النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمردون أن يلحظها أحد من
الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والدوق الحديث لتنكر العنف الذى يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلي المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين في عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المساة بالترويح الفكاهي . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفي مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المساة والمهارة على التوالي ، ولكنهما لم تتكاملا تكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق في هملت ، وتبدو الدعابة في بعض الأحيان بذئثة أكثر مما ينبغي ، ولا بد أن سوفوكليس ورأسين كانا يشمئزان من النكات التي تدور حول غازات بطن الانسان (٥٤) أو تبول الخيل (٥٥) . وإن نكتة جنسية لى أكثر استساغة لدى الذوق الحديث . ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشى للجنس البشرى عند سويقت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين فى صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه فى أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، فى خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحى . إن ريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوسترووبروتس وأنطونى ليعثون من زوايا النسيان فى التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك فى المسرحية اليونانية ، ولا حتى فى بلزك ، أشخاص خيالون أسبغ عليهم مثل هذه الشخصية المتناسكة والقوة والحيوية . وكانت أصدق الشخصيات التى خلقها هى تلك التى تبدو فقط متناقضة ، بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات فى بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة ، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، وياجو مجرد كراحية . وتبدو بعض النساء فى مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجينة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديمونة ، ميراندا وهرميون —

ولأنهم يفقدن الحقيقة والواقع ، ثم في بعض الفترات ، تبعثن بضغ كليات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ، حين يبلغها هملت أنه لم يكن يحبها في يوم من الأيام . تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن في بساطة حزينة مؤثرة : « كنت أنا المخدوعة أكثر » . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وتفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق لتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة المتناسكة — كل هذه تأتي جميعها معاً لتعمر المدينة الخية بالأموات أو الأنفس الخيالية ، أو في مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر في هملت وليرالى فيلسوف . وتصيح مسرحياته أدوات متألفة للفكر .

٥ - فلسفة شكسبير

« ألك أية فلسفة ، أيها الراعي (٥٦) ؟ » هكذا يسأل تشستون Touchstone الراعي كورين (في رواية « على هواك ») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجيب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفي (٥٧) . ولما لنقبل هذا الحكم . كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميلاً فيزيقياً (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه . أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن في السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به في فلسفتك (٥٨) . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم . ويشك في أن واحداً منهم احتمل يوماً ألماً في أسنانه صابراً متجلداً (٥٩) . وهو يسخر من المنطق ، ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل . ولكنه يشعر بها ويبصر بها بقوة تترى بافتراضاتنا أو تعمقها . وإنه ليقف بعيداً ، ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون في غمرات الزمان . وإنه ليخفي نفسه في شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه . ويحذر بنا أن نحذر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه في شيء من التوكيد اثنتان على الأقل من مخلوقاته (شخص مسرحياته) .

ولأنه ، لأول وهلة ، عالم نفساني ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكري عقلي ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التي تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فإنه ليس واقعا سطحيا ، فإن الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، في الحياة ، كما يحدث في رواياته ، ولكننا في النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقرب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانساني ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهاور « أن العقل يقود الارادة » (٦٠) وأنه ليعتق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العذري ، لسان أوفيليا المحبولة التي تتضور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكي في دراسة ماكبيث ونصفه « الرديء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة — الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لالكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك — نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من بيكون ، مثلما أن مونتاني أعمق من ديكاوت ، فليس الشكل هو الذي يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية في الأخلاق « ليس ثمة شيء حسن أو رديء ، ولكن التفكير هو الذي يجعله كذلك » (٦١) . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن » (٦٢) . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) الخير في أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها » (٦٣) . ولأنه ليعرف نظرية ثراسيماخوس (فيلسوف سفسطائي أغريقي في القرن الخامس ق . م) في الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس إلا كلمة يستخدمها ، ليجنأ ابتكرت ، أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب في قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتولة هي ضميرنا ، ولتكن أسيافا قانوننا » (٦٤) . أما ريتشارد الثاني فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب » (٦٥) . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب نيتشه بآاء بجائمة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة ، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و « سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس » (٦٦) . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيلىس (٦٧) ، ومهما يكن من أمر ، فان العقل وحده لا يكتفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقين :

على المرء أن يحتمل

ذهابه هناك قدر احتمال قعوده هنا

والنضج هو كل شئ (٦٨) .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادما قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولا يسلّم يتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها للمالقولبو : ” اذهب وهز أذنك (٦٩) “ أى ” أنت جمحش “ . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المحنون أنشودة مرحلة صاحبة للاتصال الجنسي (٧٠) .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى ” بركليز “ (١٦٠٩) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن أغنياءنا البخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوث ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتهمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لا يفتأون يغفرون أفواههم حتى يبتلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شئ (٧١) :

ويحلم جنزالو فى ” العاصفة “ بشيوعية فوضوية ” يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة مأكلا مشاعا “ . ولا يكون فيها قوانين ولاقضاة أو حكام ولاعمال

ولاحرب (٧٣) . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » - يوتويا - لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولا بد ، في ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته في هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، في تسمح لآبد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس في إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم (٧٣) . ولقد عمد شكسبير وأبنائه وفقا للطقوس الانجليكانية (٧٤) . وبعض آياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعودة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

... لن يفرض قسيس إيطالى

دفع العشور أو يقرع الناقوس فى أرضنا ،

ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،

فستكون لنا السيادة العظمى فى وجود الله العلى العظيم ،

حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،

هكذا أنبئوا البابا ، مع كل الاحترام

له ولسلطانه المغتصب (٧٥) .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير فى جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمر (أستف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح اليزابث - وكلهم كبار مهندسى الإصلاح الدينى فى إنجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاتوليكية ، مثلما جاء فى تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تعاطف (٧٦) ، ولكن الشخصية الأخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت فى أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باقى فى الروايات المساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء
يقتلونهم من أجل اللهو واللعب (٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عدول ، ولأنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا » (٧٨) ، كما يؤكد هملة إيمانه « باله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء » (٧٩) .. وعلى الرغم من الإيمان الذى يصطرع فى النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك فى أعظم روايات شكسبير سحابة من عدم الإيمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود فى رواية على هواك .) لا يرى فى « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطناء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » فى رواية الملك جون :

الحياة مملّة مثل حكاية تروى مرتين
فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان (٨٠) .

وفى ذم هملة للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة مملّية بالأعشاب الضارة .
التي تنمو وتتكاثر ، وكل شيء يحدث ويكبر فى الطبيعة ،
نمتلكه فحسب (٨١) .

وفى ما كيث :

انطفئ ، انطفئ أيتها الذبالة القصيرة !
ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هى أشبه بممثل مسكين يختال ويضيع
وقته فوق المسرح ، ثم لا يعود يسبح له صوت ، إنها حكاية
يروىها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،
ولكنها لا تعنى شيئا (٨٢) .

وهل ثمة شيء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو —
بعد أن وصف بلجيكا موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود في الأنفس الخالدة (٨٣). وتخيّل كلوديو في رواية *Measure For Measure* حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم في جحيم دانتي أو في مثوى الأموات :

آه ولكننا نموت ؛ ونذهب إلى حيث لاندري ،
ونرقد في حفرة باردة بعيدين عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرحّة في بحار من نار ، أو تسكن
في صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن في الرياح غير المنظورة
التي تهب في عنف لا يهدأ حول
العالم المتدلى أن هذا شيء بالغ الرهبة (٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة (٨٥) . ولكن مناجاته لا تؤكد
أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت في النسخة القديمة « فلتستقبل السماء
نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هي السكون (الموت) .
ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء
نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ،
ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل
للسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء في الروايات التي توجت أعماله ،
كان اعترافا حائرا مترددا بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات
ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأوغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ،
فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونزويل وجدت كورديليا ،
وإلى جانب ادموند وجد ادجار أو كنت ، وحتى في هملت ، يهب نسيم عليل من
وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكآبة . وبعد أن
يغادر الممثل والكاتب المسرحى المهوّل لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم
الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلوى الأبوية في بيته في ستراتفورد ، فليسوف
يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ — الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيات له النجاح والهناء باسمه والثروة ، وثمة أكثر من مائتي إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، في الأدب الباقي من عصره . وفي ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ، سلفي ، سبنسر ، دانييل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين في إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين (٨٦). وفي نفس العام أعلن ريتشارد بارنفيلد — وهو شاعر منافس — أن أعمال شكسبير (التي لم يكن أفضلها قد ظهر بعد) قد وضعت اسمه في « سجل الشهرة الخالد » (٨٧). وكان محبوبا مألوفاً حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش في التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، في المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا في عصر بعينه ، بل في كل العصور » وفي الأوراق التي خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذي يحبه الانسان حبا أعظم » (٨٨) .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا في اجتماعات رجال الأدب في حانة مرميد في شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذي كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذي رأيناه؟

في مرميد ! سمعنا كلاما يفيض

رقّة ، ويتقد حرارة

وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى

قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره في نكتة ،

معزماً أن يقتضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البليدة (٨٩) .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى إنجلترا (١٦٦٢) :
كم كانت الحرب الفكرية سجالات بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ،
وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو
كالأولى) ، علاكبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيد الأركان ، ولكنه يطىء
فى أداء عمله . أما شكسبير . . فهو أقل فى البنيان ولكنه أخف حين بمخر عباب
الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من
كل ربح ، بفضل سرعة بدنيته وابتكاره (٩٠) .

وتابع أو يرى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير
و « بدنيته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلاً رشيقاً وسيماً لطيف
المعشر (٩١) » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته
فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى
حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف
حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنهما لا تهديان أية إشارة إلى الشر الذى يتقد
فى الروايات . وربما ضللتنا الروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة
عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ،
وشفىرى الكتابة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة
بالإثم ، ذو طبيعة صريحة منطلقة (٩٢) ، يستمتع بالحياة ولا يآبه بالنسل ، تبدو عليه
مسحة من الروح العملية التى لا تلاثم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد
فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثرياً إلى حد يسمح
له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وسبعة
آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبتة فى مثل هذه المشروعات من
عائداته بوصفه ممثلاً وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره
بين ٢٠٠ (٩٣) و ٦٠٠ (٩٤) جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصح لأنه يفسر لنا
شراؤه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام (٩٥) ». وتوقف أحياناً على الطريق في أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدير نزلاً ، وكان سير وايم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٢٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير مقصودة لتخلف شكسبير في هذا المنزل (٩٦) . وفي ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحي « البيت الحديد » New Place بستين جنياً ، وكان ثانياً أكبر بيت في ستراتفورد ، ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه في ١٦٠١ تاركاً له منزلين في شارع همل في ستراتفورد ، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى ١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من المدينة ، بثمن قدره ٣٢٠ جنياً ، ويحتمل أنه أجر هذه الأرض لمستأجرين مزارعين وفي ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنياً أسهما في العشور الكنسية المرتقبة في ستراتفورد وثلاث دوائر أخرى . وفي إثناء انشغاله بكتابة أعظم رواياته في لندن ، كان معروفاً في ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساساً ، مشغول في الغالب بالتقاضي من أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفي في ١٥٩٧ . وفي ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزاتا من جول هول . وهو طبيب مشهور في ستراتفورد ، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جداً ، ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالي ١٦١٠ هجر لندن واعزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الحديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك « Cymbeline » (١٦٠٩ ؟) و « قصة الشتاء » (١٦١٠ ؟) و « العاصفة » (١٦١١ ؟) . ولم يكن لاثنتين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن شكسبير كان لا يزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التي تكشف منذ البدايه عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تألمت مع هؤلاء الذين رأيتمهم يتألمون (٩٧) » . وهنا كاليبان الذي يرد به شكسبير على روسو . وفيها أيضاً بوسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذي يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه المرحه وداعاً حنوناً ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، في الفصاحة التي لم يعثرها أي وحن في أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصحبنا . إن ممثليتنا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
ذابت في الهواء ، في الهواء الرقيق ،
ومثل كيان هذه الرؤيا الوادئ القائم على غير أساس
تكون الأبراج التي يتوجها السحاب والقصور الشاخنة
والمعابد الرديئة ، والأرض الواسعة نفسها ،
نعم ، وكل ما نرثه سوف ياوب ويفنى ،
كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافئة ،
لا تتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
من نفس المادة التي تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هي الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك
فالرواية هي شكسبير يسترخي ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشلو
بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suckl, Full fathom five »
— وعلى الرغم من كل المعارضين واعتراضاتهم ، فإن الشاعر الذي تقدمت به السن
هو الذي يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر مني
أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
بفضل فني الفعال . ولكن ها السحر الشاق
أعد بأن أتخلى عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
وفي مكان أعمق من أن ترن فيه رصاصة الفادن(*)
سوف أغرق كتابي (٩٩).

وربما كان شكسبير أيضا ، الذي ابتهج بيناته وحفيده هو الذي صاح على لسان

ميراندا :

(*) الفنان — أداة مؤلفة من غيط في طرفه قطعة رصاص . يسبر بها غور المياه .

عجباً !

كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !
ما أجمل بنى الإنسان ! آيتها الدنيا الحديدية الرائعة
التي يعيش فيها مثل هؤلاء الناس (١٠٠) !

وفي ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كويني . وفي ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق النثيل ، و «بسريره الثاني» لزوجته التي كان قد هجرها ، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواي سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ - ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرابتون وبن جونسون اجتمعوا في جلسة مرحة ، ويبدو أنهم أسرفوا في الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك (١٠١)* » . وحسب القضاء في ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، ووروى جثمانه التراب تحت الهيكل في كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقرب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التي لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد الذكري ، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل
أن تحفر التراب الذي يحيط بهذا المكان ،
وليبارك الله الرجل الذي يحافظ على هذه الأحجار ،
ولعنة الله على من ينقل عظامي .

٧ - بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التي كثيراً ما ظهرت في حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، في قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف في النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نفي هذه الرواية - سيرا . ك - سميرز في كتابه " وليام شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

وأنارت هذه القرصنة والانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرا في ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهري ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء في تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للراقد تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم مائل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنينه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ، وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أعلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففي ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد البيوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ - ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفي الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية همليت . ويمتدج دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا . . . وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن « كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق قليل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان (١٠٢) . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايت القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديلها بمعرفة دريدن أو أتواى Olway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر يوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكبل ، والممثلة ساره سيدونز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفاً محبوباً بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفي ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما يناق الحشمة والفضيلة ، مما لا يمكن قراءته جهرا في الأسرة » . وفي أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته مبالغيات كولردج وهازلت ودي كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبي :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار وماليبر وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقي والدوق المهذب والتحكم العقلاني . وكانت فرنسا قد أقربت ، في أعمال راسين القواعد الكلاسيكية في المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسييل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من إنجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقدير لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض الآلىء التى عثرت عليها بين الأكدا س الهائلة (١٠٣) » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير فى مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب » (١٠٤) . وفى القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعاً تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمودون أن يسعى إليها (١٠٥) » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فان ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذي أسبغته على راسين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد في ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحي محلي . فإن الكاتب المسرحي الألماني العظيم الأول جوتهلد لسنج ، هو الذي أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده في هذا هرذر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت في « قاعة ولهم » (١٧٩٦) (١٠٦) . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألماني ، وانتزع العلماء الإلمان من إنجلترا مقام الصدارة ، في دراسة حياة شكسبير ورواياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعي أو المقارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبوا وترعرعوا وهم ينشقون عبر شكسبير . فان الذي يعرف لغة الإغريق على عهد بريكلز وعقيدتهم وفهم وفلسفتهم ، هو وحده الذي يحس بالمرحبة المأساوية الديونيسية وسموها الذي لا مثيل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوي في بنائها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر في القول والفعل ، وبالشرح الذي يهز النفوس في ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة الثبيلة في مشاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره في الكون . كما أن الذي يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسي ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمكنه وحده أن يحس ، في روايات كورني وراسين — لا مجرد عظيمة الشعر وموسيقاه فحسب — بل يحس كذلك بالجهد البطولي للعقل في إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكية العسيرة ، وتركيز المسرحية في بضع ساعات تشد فيها الأعصاب ، لتلخيص حياة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذي يعرف اللغة الانجليزية ، في كمالها أيام اليزابث ، ويتعمق ويمجد المدة واستمتاعا في البلاغة والأغاني والتراشق في عهد اليزابث ، ولا يغفل المسرح عن أن يعكس صورة الطبعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يبيء لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا
وقالبا : ولكن مثل هذا الرجل لابد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز
من الأعماق وهو يتابع ويسير غور الفكر فيها ، تلك هى الفترات الثلاث التى
نعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب
بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لثرائنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال
الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر الزباث .

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ - ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه ماري ستيوارت ، بكل مافيا من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيدة مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك إنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل - بنت عمه ، « ماري اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزى . إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك - مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لا بد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، ماري ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت ماري ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) - نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يلقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفاً به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت ماري على قيد الحياة . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمور ، ولكن الملوك قل أن يطاقوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على ماري ، في مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها في بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنرى الثامن ، أملا منه في ضم اسكتلنده كمقاطعة ملحقه بإنجلترا - اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا . وتربى فيها . مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنرى الثانى ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لمارى من اختطافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهى فى سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة ، وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما . حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاتن الأنوثة فى جمال القسمات والقوام ، وحدة الذهن . والكياسة المرححة فى السلوك والحديث ، وغنت غناء عذبا ، وعزفت على العود عزفا جيدا . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكلف الشعراء إطراءه ، وخفقت قلوب الحاشية ، لرؤية وجهها النقى الناصع البياض كالثلج » (برانتوم (١)) « وشعرها المقصوص المضفر ، (رونسار (٢)) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلئ . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة . (٣) وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبية وأعظمها كياسة فى أكثر بلاط أوروبا تهديبا وصقلا . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولى عهد فرنسا (الدوفين) فى ٢٤ أبريل ١٥٥٨ . وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا . ويبدو أن كل آمال حلم خيالى قد أصبحت حقيقة .

ولكن فى ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثانى (زوجها) بعد حكم دام سنتين . وفكرت ماري التى باتت أرملة وهى فى سن الثامنة عشرة ، فى أن تأوى إلى ضيعة فى تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن اسكتلنده فى تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب ماري أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصيل إلى التحالف مع فرنسا . وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت ماري كارهة أن تترك

مباهج المدينة الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش في اسكتلنده التي تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلنده ، ولكنها لم تذكر لهم أنها في عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلنده إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلنده لتتبوأ عرشها . وطلبت إلى اليزابث امتياز المرور بأمان عبر إنجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت ماري من كاليه في ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محدة في الشاطئ الذي يراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شيء إلا البحر .

وبعد خمسة أيام ألقت السفينة مراسيها في « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت ماري اسكتلنده .

٢ - اسكتلنده ١٥٦٠ - ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قديتها الأراضي الجبلية الوعرة في الشمال بنظام إقطاعي ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحيون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعى ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذي يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حماة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش في عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة في موازنة قوة البارونات التي مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشرة الخليلات (٤) . وتحرق النبلاء لهماً على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الديني ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندي الذي تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجي أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس إنجلترا

بالطمأنينة في جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطاني . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد ملكهم الكاثوليكية ، ومن ثم أصبح إسكتلنده ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على إنجلترا أو دعامة لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعوا ماري ، ويتوجوا نبيلاً بروتستانتيًا ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلنده على هذه الصورة مع إنجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك^(٥) . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلنده قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطرد الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا في ميدان القتال ، وقع ممثلوها في إسكتلنده في أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلنده فحسب ، بل على عدم مطالبة ماري بأى حق في عرش إنجلترا . كذلك ، ورفضت ماري ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثانى ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الدينى مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الدينى » الإسكتلندى الذى التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكية رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن ماري لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول في البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول في إسكتلنده . وكان نصف النبلاء « بابويين » وظل جون هاملتون الذى يجرى في عروقه الدم الملكى ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك في إسكتلنده . ومهما يكن من أمر فلان نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة في أدنبره وسانت أندروز وبرث وسترنج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعماء جون نوكس Knox .

وفي العام الذى سبق مجيء ماري أنخرج نوكس ومعاونوه كتاباً في قواعد السلوك والائضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأتقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فلإنها تشمل « القداس » ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها ، فلا ينبغي أن يفتنوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى ” مع الإنجيل ، يجب “ القضاة عليها قضاءً تاماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان (٦) ” . أما القساوسة فينبغي أن ينتخبوا في الجامع ، وعليهم أن ينشئوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى “ الكنيسة الإسكتلندية الوطنية ” ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفاتها — السكر والجشع والتجديف والإسراف في الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ؛ يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكتلندية الوطنية بإعدامه (٧) .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقرروا “ قواعد السلوك والانضباط ” (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة في استخدام أموال الكنيسة المنحلة وظل “ كتاب قواعد السلوك ” هدفاً ونبراساً يهتدى به في تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها .

ولما أخفق نوكس في إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حتى الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً في إصرار بالغ ، في تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم في كل أرجاء إسكتلندا ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة في مواظمه التي كان يلقيها وحاسة طائفته — نقول خلقت منه قوة في أدنبره وفي الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، ماري ، أن تصفى حسابها معه ، حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٢ — ماري ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت ماري الترتيبات لتصل إلى إسكتلندة . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة في دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر في العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالي ، الذين عرّتهم الدهشة ليروا ملكتهم عادة جميلة مرحة منمعة بالحيوية ، لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياها معظمهم وحتفوا لها وهي على ظهر جوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات : بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندة ملكة فائنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع لإنجلترا الحكم ملك إسكتلندى .

ولإن صورتها^(٨) اللتين وصلتا إلينا لتؤكدان شهرتها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أى حد استطاع الرسامان اللذان نجعل الآن اسميهما ، أن يمثلها ، ولكننا نلاحظ في اللوحتين كليهما ، القسمات الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائى الغزير الذى سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الجاذبية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحّة ، وثغرها الباسم . وحديثها العذب البارع ، وحاسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أى أن تحس بدفء العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت في ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات في وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدمة والألم الحسى ، والإشفاق الرقيق ، والولاء الذى لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التى تظهر عند الشدة . وكانت بارعة في ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الخنادق في اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة . فقد منيت بالاعتلال والضعف في كل شيء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع . مصابة بعلّة لم يتيسر تشخيصها . غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتأوى من شدة الألم^(٩) . ولم يكن لها ذكاء الرجال الذى تميزت به اليزابث ، وكانت فى الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت فى بعض الأحيان قدراً كبيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدرة العقلية . وكان فى أخلاقها قضاء عليها .

وبذلت مارى جهداً مضمناً لتواجه الأخطار المتشعبة فى موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكي المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامه مجلس شورى الملكة اثنى من البروتستانت : أخاها غير الشقيق ، الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستيوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما يحتمله خلقه ، وقد نحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون رائعاً ممتازاً — وهو توحيد إنجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته مارى إلى إنجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث ، ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غير مباشر بحق مارى فى عرش إنجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداول وتحنين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط والفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم مارى فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلنده أو ثقافتها ، فإنها سعت : بحفلات الرقص والتمثيليات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود "باريس" صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتححر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان في ظل مرحها وبهجتها . وتذمر نوكس وزجر بأنهم سحروا . وفوضت الملكة موري ولثنجتون في تدبير شئون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلاً بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل في الوقت الراهن ، وإلا تدخلت الزايت بالقوة . ورغبة في تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت ماري في ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات في الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هي نفسها في ممارسة الشعائر سرّاً ، وأن يقام لها القداس في الكنيسة الملكية الخاصة^(١٠) . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذي يعبد الأصنام^(١١) » ، ولكن موري حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . وفي يوم الأحد التالي استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين في كنيسة أن قداساً واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين^(١٢) .

وأرسلت الملكة في طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفي قصرها ، في ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ماجرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه^(١٣) . وانتهرت ماري لإثارته الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتابته « هجومه العنيف » ضد « جماعة النسوة الخاطئات » ، الذي أساء إلى كل السيدات اللائي تولين الملك . فأجاب « بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكامهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الروماني عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتي قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة في إنجلترا ماري تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون في وجه حكامهم ؟
فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب في أنهم يلقون
المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونهضت الملكة من مقعدها : وقد تولتها الدهشة . . ثم قالت في النهاية :
حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياي سوف يمثلون لك وليس لي .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقي أن آمر أحدا بطاعتي ،
أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتى أن يلتزم الأمراء
والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المحيدة — ياسيدتى —
هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التى سوف أرفعها وأخذ بيدها ، سوف
أدافع عن كنيسة رومه ، لأنى أعتقد أنها كنيسة الله الحق .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتى ، ولن يجعل مجرد تفكيرك
أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحق الطاهرة التى تحمل بلادنس ،
ليسمع المسيح . . . ولا تعجبي ياسيدتى لأنى أطلق على رومه ، المومس الفاجرة ،
لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحي .

فقالت : لا يحدثنى قلبى بهذا .

ولو كان هذا الحديث منقولاً نقلاً أميناً لكان مواجهة محزنة بين الملكية
والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكلفنية . ولو كان لنا أن نصدق
نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم تزد على
أن قالت :

« لقد جاوزت الحد فى إيلامى » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى
كنيسته . وناشد لشجنتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم
تخضع لأى تحريض أو إغراء (١٤) .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت فى المحافل العامة قال بعضهم
بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القداس خطيئة . وأصدر حكام

ادبره قرارا بنى الأشخاص الأقدار (كذا) « الرهبان ، أعضاء الأخوات الدينية ، الفساوسة الراهبات ، الزناة (١٥) » . فعزلت ماري هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفي سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رؤوسهم ، « على حين انفجرت هي باكية ، حيرة وعجزا (١٦) » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن لوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلاثي الأيراد . فأوجز نوكس هذه القسمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب (١٧) . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣٣ شلنات ؟) سنويا (١٨) .

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، ينددون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعريضة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط ماري ، واقتصدت الملكة فى ملاهيها ومباذرها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد القداس . وكتب أحد المعاصرين : « أـ جون نوكس يرغبى ويزيد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شيء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشى الناس جميعا (١٩) » . وهنا أيضا اشتبك الإصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ٥٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت ماري نوكس ، وأتهمته ، فى حضرة موري ولشنتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللغو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشيء من النصح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن في نفوس الناس جميعاً . ولكنها صفات تتأصل وتقوى في نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السيئ » فما كان جواب الملكة - على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (في حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عني ما يغضبك تعال وأبلغني إياه ولسوف أصغي إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتي ، مكلف برسالة عامة في كنيسة الرب ، وعينت من قبله لأحاسب على خطايا ورداثل الناس جميعاً . ولست مكلفاً بأن آتي لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه . فهذا عمل لا ينتهي . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرني أي شك في أنك ستعرفين تماماً ما أريد وما أبغض . »

وتركته ينصرف في سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفي عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لو ثبتتهم (٢١) . وسجن بعضهم ، وهرب آخرون واختفوا في الغابات فأرسلت ماري في طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فإنه يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقيهم درسا . « فقالت : إني أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت ماري ووصيفاتها البرلمان في أبيي حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذاك الوجه الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذبال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلاً لهذه الأبهة البغيضة في السيدات من قبل (٢٢) .

وترامى إلى سماع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين ماري ودون كارلوس ابن فيليب الثاني ملك أسبانيا . وإحساساً منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية في أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة في موعظة ألقاها على النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لي أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكتكم ، فانكم بذلك تبدلون أقصى ما في وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها^(٢٢) .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسألته — كما يقرر هو نفسه : « ماشأناك بزواجي ؟ ومن أنت في هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد في هذه البلاد نفسها ياسيدي . ومع أنني لا لزل ولا لورد ولا بارون ، في هذه الدولة ، فقد اختارني الله (مهما كنت حقيراً في عينيك) عضواً نافعا فيها^(٢٣) » فانفجرت ماري باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جراءة نوكس ذروتها في اكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجا على القداس الذي كان على وشك أن يقام . ودخل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة وأرهبوا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التي لم تكن في الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمة الخاص . وفي اكتوبر أرسل نوكس كتابا يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظمى ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشدا هائلا من مؤيديه تجمع في الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التي جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعا مجيدا إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يا ماستر نوكس أن تعود إلى دارك الليلة . » فأجاب هو وأدعو الله أن يظهر قلبك من رجس البابوية^(٢٤) .

وفي يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذي لا يقهر ، وهو في سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثانية ، مرجريت ستيوارت ، التي تربطها

بالمملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهي في سن السابعة عشرة : وبعد سنة واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ - الملكة تقع في شرك الغرام ١٥٦٥ - ١٥٦٨

من ذا الذى تستطيع الملكة أن تختاره زوجا لها ، دون أن تقع في ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولكن لابد أن تحتج فرنسا وانجلترا ويغضب البروتستانت في اسكتلنده . « فرنسا » ؟ ولكن انجلترا لابد أن تقوم ، حتى يجد السيف ، تجدد التحالف الفرنسى الاسكتلندى ، « أميرا نمونيا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولكن نوكتس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكي ، كما أن الزباث أخطرتها بأن الزواج من آل هابسبرج - الأعداء القدامى لآل تيودور - يعتبر عملا عدائيا .

وفي لحظة من الانفعال قطعت ماري العقدة الدبلوماسية . ففي اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماتيوي ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلنده - وكان ماتيوي ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالى لعرش اسكتلنده بعد ماري ، وكان قد فقد كل أراضيّه بمساندته هنرى الثامن ضد اسكتلنده ، وهرب إلى انجلترا تفاديا لانه ام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به في اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنرى ستيوارت لورد دارنلى البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، والذى هو ، عن طريق والدته ، من نسل هنرى السابع ملك انجلترا ، مثل الملكة ماري . وفنت ماري بالشباب الأمرد وأعجبت بمهارته في لعب التنس والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يهتم مع طلعه الجميلة ، واندفعت في الغرام قبل أن تستطيع أن تتبين فيه الغباء والحمق . وفي ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج الزباث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت ماري من هذا الفتى زوجا ، وأسمته ملكا . واستقال موري من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامعة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التى قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها . لقد منحت زوجها حبها بلا قيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود ، قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأى رجل لا يرضى عنه الملك الفتى ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو (٢٦) . . » ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتى . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها ، وفي نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف في الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحقد ، وارتاب في أن مارى ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالى كان قد قدم إلى إسكتلندة ١٥٦١ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، في معية السفير (من سافوى) . ولما كانت مارى تارة بالموسيقى ، فقد ألحقته بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بنمطه وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التى اكتسبها من القارة (أوربا) ، ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم في توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غداءها ، وشلاها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومنذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاهم عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا في أنه يناصر الكاثوليك ، فلأنهم تأمروا على تدميره .

وكان الايطالى الداهية في بداية الأمر قد سحر لب دارنلى نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً وينامان معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والحفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلى هبطت به إلى مستوى العجز السياسى ، فانقلب حب الملك للخادم الذى أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة مارى ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد روندولف في صحة هذا بل إنه في الجيل التالى أبدى هنرى كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك انجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة (٢٧) . ولذا لعب الويسكى يوماً برأس دارنلى ، وألهب جرائه ، انضم إلى

إرل مورتون ، والبارون روثفن وغيرهما من النبلاء فى تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتية فى إسكتلندة ، وعلى منح دارنلى « تاج الزواج » — أى كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندة — وأن يكون له الحق فى العرش عند وفاة مارى . ووعده دارنلى بحماية الموقعين على « العهد » من نتائج «أية جريمة » قد ترتكب ؛ وبإعادة مورى وسائر الاوردات المنفيين (٢٨) .

وفى ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف لورد سيسل النقاب عن المؤامرة (٢٩) . وفى ٩ مارس نفذت : واقتحم دارنلى حجرة الملكة حيث كانت تناول العشاء مع رتشيو وليدى أرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثفن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لا غناء فيها من مارى ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت — ستا وخمسين طعنة ، لإحكاماً للتدبير وصماناً للقضاء عليه — ودق أحدهم ناقوس الخطر فى المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق مارى « إربا (٣٠) » ولكن دارنلى أقنعهم بالتفرق ، وبقيت مارى طوال الليل وطيلة اليوم التالى سجينه السفاحين فى قصر هوليرود . وفى نفس الوقت لعبت على فزع دارنلى وجهه لها ، فساعدها وصحبها ، عندما هربت فى الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدةها والدفاع عنها . وأعادت مورى إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة فى إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثر أجيمس هيرن Hepburn ، إرل بوثل Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيما ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً فى البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) . يرهب الرجال بجرائه الهائلة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتاره بالقدرة على إغوائهن ، ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، فى وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها في أحاديثه ، ولكن هذه طريقة في كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بداريته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته في الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيوترتاب في اشتراك زوجها في جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع ماري إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس . كانت هي الصفات التي تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها في فرنسوا الثاني أو دارنلي . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه ولجنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بآمان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر نزل رتشيوت ، فإن ماري هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام يكونون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك . بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسي يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو يمثل هذه الألفة بين رعاياها »^(٢١) . « على أنها . عندما اقترب موعد الوضع ، انتابها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهي راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون »^(٢٢) . ولما وضعت ، في سلام وأمان ، طفلاً ذكراً في ١٩ يونيو ١٥٦٦ ابتهجت إسكتلندة بأسرها . وكأنها تنبأت بأن هذا الصبي سيكون ملكاً على إسكتلندة وإنجلترا معاً . وكانت ماري في أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلي الذي استاء من تجديد ثباتها بموري ، ومن إعجابها المتزايد ببوثل . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكي ويحكم باسمه^(٢٣) . وآتهم دارنلي النبلاء بقتل رتشيوت ، وطالب ببراءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه . إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه في الجريمة^(٢٤) . واقترح أرجيل ولشنتون وبوثل على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلى دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنها تفضل الخروج من إسكتلندة ، وترك الحكم لدارنلى ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعلوا شيئاً يلوث شرفى أو ضميرى ، ولذلك أتوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هى ، وأن نحتمل حتى يقضى أنه فيها برحمته^(٣٥) . « . وكمن مرة تحدث آنذاك عن الانتحار^(٣٦) .

وفى أكتوبر ١٥٦٦ ، أو نحو ذلك . وقع أجرييل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلى . وترامى إلى مسامع إرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلى الذى كان يعيش بعيداً عن مارى ، مع والده فى جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلى ، وكان من الواضح أنه مريض بالجدري ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفى الوقت نفسه حامت الشبهات حول مارى وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لغمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكس صراحة بأنها بغى عاهرة^(٣٧) . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلى أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقرير والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصها له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفة باسم « رسائل الصندوق الفضى » إلى مسرح الحوادث لتكمل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضى أربعائة سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت فى صندوق صغير من الفضة كانت مارى قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، فى ٢٠ يونية ١٥٦٧ ، من أحد خدم بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق فى اليوم التالى بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندة ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التي تولت محاكمة ماري في ١٥٦٨ ، وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ، وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من ماري إلى بوثل . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أى تلاعب ، ولكن ماري ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة» ، لأنه أثلفها (٢٨) ، ولم يبق إلا صور منها . ولما أطلع ملوك القارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما وثقوا من صحتها (٢٩) . وارتابت اليزابث أول الأمر في صحتها ، ثم عادت فسلمت بها في شيء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتياح في أن امرأة تتوسط في قتل زوجها ثم تفصح في طيش وإسهاب بالغين عن مقاصدها ، رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سيبلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثل بمثل هذه الرسائل التي تدينه وتورطه في جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس الندر أن يوجد في اسكتلندة أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشابه فيه بصفة خاصة) كان في مقدروه أن يزيف أى جزء هام من هذه الرسائل في سحابة اليوم الذي مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التي تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقنع في عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزيف غير عادية ، لأن محتواها العاطفي يبدو متطابقاً مع طبيعة ماري ، قدر تطابق الكتابة مع خط ماري . وإنما لتمثل ماري شريكة ضالعة في قتل دارنلي ، مترددة تملؤها الحمرة والأسى ، وتشعر بالعار والحجل من أجل ذلك (٣٠) .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينقل عبر اسكتلندة في محفة إيتيم في بيت

(*) يحيل القواد إلى القول بأن الرسائل حقيقية في معظمها مع بعض العريف . وذهب لورد أكتون وهو رجل خبر كاثوليكي أمين : إلى أن أوبما من هذه الرسائل حقيقية (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل في كتاب أندرو لانج *Mystery of Mary Stuart* ؛ ص

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم في ضواحي أدنبره، وفسرت ماري عدم نومه فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلها . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت ماري تزوره يومياً . وثابت على تمريره والعناية به حتى استرد صحته ، وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥١٧) « إن صحتي الجيدة هي . . . النتيجة السريعة لحسن رعاية . . . الملكة التي أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بي ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لا زلت آمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التي أضنتها المتاعب طويلاً (١) » . ولماذا كانت تقوم على تمريره والعناية به طيلة أسابيع مملّة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتماً ؟ « إن هذا جزء من السر الكامن وراء ماري استيوارت . وفي مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها في هوليرود . وفي تلك الليلة حدث انفجار في بيت كيرك أو فيلد ، وفي الصباح وجد دارنلي ميتاً في الحديقة .

وسلكت ماري في أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولولت وأقسمت أن تتأثر . وأمرت أن تجلّ غرفتها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعاني الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائي في الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلي بأية معلومات تؤدي إلى القبض على الحناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران في المدينة تتهم بوثل بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة في الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهي الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن إرل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثل للمحاكمة على الفور . وأيد بوثل هذا المطلب ، وفي ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثل في العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثل ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفي ١٩ أبريل أقنع أرجيل وهنتلي ومورتون وإثنى عشر نبيلًا آخرين بتوقيع « عهد آنسلي » يثبتون فيه ثقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من ماري التي أولت بوثل آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفي ٢٣ أبريل زارت ابنها في سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً .
وفي طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثل وجنوده وهاجوها وحملوها
بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثل بالقتل . ولكن
مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفي دنبار
استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثل . وفي ٣ مايو عادت مارى وبوثل إلى أدنبره ،
وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفي ٧ مايو منح بوثل الطلاق . وفي ١٥ مايو ،
حين رفض قسيسها الكاثوليكي تزويجهما (هى وبوثل) ، تزوجا وفق الطقوس
البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكيًا . وانقلبت ضدها ،
بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها
رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بخلعها . ووقف الأهالى منها
موقفاً عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة
حب أعطتها لياها بوثل .

وفي ١٠ يونية أحاطت عصاة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت
تقيم مارى وبوثل ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار
جمع بوثل ألف رجل ، سعت مارى وبوثل بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة
إلى أدنبره ، فاعترضهما فى كاريرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش
عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثل تسوية
الموضوع بالنزال الفردى . ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن
تستسلم إذا سمح لبوثل بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها
بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال (١) . ولأذ بوثل بالفرار إلى الشاطئ واتخذ
طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضىها فى السجن بأمر ملك الدنمرك
قضى بوثل نحبه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .
ورافقت مارى معتقلها إلى أدنبره وسط تصيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا
العاهرة اقلوها أغرقوها (٢) » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية
وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعواء الشعر نصف عارية ، استمرت

الجموع تهددها بأقذع العبارات . وفي ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، في جزيرة في بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبعاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان(٤٤) . وأرسلت ملتمساً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت الزايت تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية ماري ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأي أذى ، ودعا نوكس إلى إعدام ماري ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندة بطاعون فظيع إذا أبت على حياة ماري(٤٥) . وفي يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضي » ، وتوسلت ماري إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى ماري) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفي ٢٤ يولية وقعت وثيقة تخليها عن العرش ، وعين موري وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة في قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة وليم دوجلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج في غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها في ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دوجلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت في ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك في بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوها إلى العرش ، ولكن موري دعا البروتستانت في إسكتلندة إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان في لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش ماري السيء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها في تهوّر ، ثلاث ليال سوياً ، إلى دندرينان أبي على خليج سولواي . وأنداك أعادت إلى مانحها ، الماسة التي كانت الزايت يوماً قد أهدها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إني أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعونة موعودتين(٤٦) » . وفي ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولوای فی قارب مکشوف لصید السمک ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدي غريمها .

٥ — التكفير ١٥٦٨ — ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (في شمال غرب إنجلترا) أرسلت ماري رسالة ثانية إلى اليزابث تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وسلوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أي حاكم شرعي . ومن ثم مالت إلى دعوة ماري لمقابلتها . ولكن مجلس شوري الملكة أوقعها في حيرة وارتابك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن ماري سمح لها بالذهاب إلى فرنسا . لأغريت الحكومة الفرنسية بإرسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة ماري إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة في ظهر إنجلترا . وعند ذاك تساند فرنسا دعوى ماري في عرش إنجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولوبتيت ماري حرة طليقة في إنجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة مسورة اثورة الكاثوليك ، وانجلترا لاتزال في أعماق قلبها كاثوايكية في الكثير الغالب . وإذا أرغمت إنجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة ملكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد إنجلترا حلفاءها البروتستانت في اسكتلنده : وربما اتفق سيسل مع هلام في الرأي القائل بأن احتجاز ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا . إنما هو خرق لكل قانون طبيعي أو عام أو على (١٧) . ولكنه أحس بأن مسؤوليته التي تطغى على كل ماعداها . هي حماية إنجلترا .

ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخلع على الواقعة ثوب اخلاقية ، فقد أبلغت ماري أنه ينبغي عليها قبل الاستجابة إلى طلبها في اللقاء مع الملكة اليزابث . أن تبريء نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأحابت ماري بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما طالبت أن تلتقي بمورتون ولشنجتون في حضرة اليزابث . ووعدت باثبات إدانتها في قتل داراني . وفي ١٣ يولية ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزي بنقلها من كارليل (لقوبها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك. وهناك خضعت ماري للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث: « ضعى نفسك بين يدي دون تحفظ ، ولن ألقى بالآلى أى شىء يىء إليك . وسيكون شرفك فى مأمن من أى خدش . وليسوف تعادين إلى عرشك(٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع ماري بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها فى لجنة للتحقيق : وحاولت أن ترضى اليزابث بادعائها قبول المذهب الانجليكانى ، ولأنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليك(٤٩) . ومن ذلك الوقت باتت ماري واليزابث فرسى رهان فى سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكى خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكتنفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق فى يورك فى اكتوبر ١٥٦٨ . ومثل ماري فيها سبعة أشخاص أهمهم جون ازلى أسقف روس الكاثوليكي ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية فى اسكتلنده ، وهو كاثوليكي أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكن . وسير رالف سادلر : ومثل أمام اللجنة موري ومورتون ولثنجتون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضى » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت ماري أن يكون موري وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش فى انجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فإن تداع الرسائل . ولكن نورفولك — الذى كان يحلم بالزواج من ماري ، ومن ثم يصبح ملكا على انجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكن . فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب ماري قضيتها(٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع موري الرسائل أمام المجلس ، وانقسم الرأى حول حججة الوثائق : ولكن اليزابث قضت بأنها لن تستقبل ماري قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت ماري أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورتها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب : ولم تطلع ماري قط على أصل الرسائل أو صورها(٥١) . وفى ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث موري ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

مارى - وهى غاضبة متحدية إلى سجن أشد قيودا فى تبرى Tutbury على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولكن الزباث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لاعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة . لا قاسية (٥٢) . وأشار السفير الأسبانى على فيليب بغزو إنجلترا ووعده بمعاونة شمال إنجلترا الكاثوليكى له ، ولكن فيايب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أنذره دوق ألفا بأن الزباث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . فى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٧٠٠٥ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكى ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تبرى لاطلاق سراح مارى ، ولكن الزباث فوت عليهم الفرصة بنقل مارى إلى كوفترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخذ الثورة . وأمرت الزباث « بشنق المقبوض عليهم من المتوردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا (٥٣) » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصودرت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند وستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك . ولكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فوراً ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار (٥٤) » ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » - وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولكنه مفعم بالحياة زانخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لا ذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلاما فيه دون مواربة . وهو رجل موجه قاس ولكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كلفن ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناضل في بسالة وجراة ، ويستنفذ آخر خفقة من الطاقة الجبارة إلى حد لا يصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى — إلا إذا أعانته عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر في كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له في ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل في ٢٤ نوفمبر ، وهو في السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدته أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . (٥٥) إن قلة من الناس هي التي أثرت تأثيرا حاسما في معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعتة في تشجيعه للتعليم وفي التعصب وفي ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس ومارى روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الإصلاح الدينى . وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها — شأنها شأن الزابث — لم تعرف كيف تزوج بينهما :

وحاولت مارى — مثل نمر قلاق هائج حبيس — كل إمكانات الهرب ووسائله . وفي ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولفى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن — قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسباني ، وأسقف روسى ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على إنجلترا قوات أسبانية من الأراضى الوطينة ، وأن تغزو إنجلترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع الزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على إنجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجا نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة . (٥٦) ودفع البابا لريدولفى بعض المال على ذمة المشروع ، ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمج المشروع بالسخافة والحمق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضيقت رسائل ريدولفى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدم مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ، وصدر الحكم عليه . وترددت أليزابث في التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ، طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما . واتخذت اليزابث حلا وسطا فأرسلت نورفولك إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما ترامت إلى إنجلترا أبناء مذبة سانت برثلميو (٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام مارى (٥٨) . ولكن اليزابث أصرت على الرفض .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس مارى ومدى شعورها بفجاجة الذنب ألا إذا نذكرنا أنها قضت في الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ، باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ، يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تقسم بالروح الانسانية ، حيث سمح لها بتسلم معاشها — الفرنسى — ١٢٠٠ جنيه سنويا — وأعطتها الحكومة الانجليزية مبلغاً محترماً للطعام والعلاج الطبى والخدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور القداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة . ولما تلاشت آمالها في الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تريض لإقلايا ، وأصبحت مترهلة بدينة . وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلها في بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع معه المشى . وفي ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط . ابيض شعرها فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، في يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها في تاج إنجلترا ، إذا أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتأمرين قط ، وأن تعيش في أى مكان في إنجلترا تختاره اليزابث ، وألا تبعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع لرقابة جيرانها واشرافهم . ولكن أشير على اليزابث بالألا تثق فيها .

واستأنفت مارى مشروعات الهرب ، وبعده وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بسفري فرنسا وأسبانيا وحكومتهم . وبأنصارها في اسكتلنده وبممثل البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها في ثياب الغسيل وفي الكتب ، وفي العصي ، وفي الشعر المستعار ، وفي بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنهام كشفوا عن كل مؤامرة في حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة في كلية الجزويت في ريمس ، كان لولسنهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شيء .

ولكن الهالة الرومانسية التي أحاطت بماري الأسيرة حركت الشفقة والعطف في قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهمت حماسة الشبان الكاثوليك . وفي ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكورتون ، وهو كاثوليكي ، وابن أخت المغفور له سفير الزابث لدى فرنسا ، دبر مؤامرة أخرى لإطلاق سراح ماري ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولولا : « لقد كتمت كل أسرارها ، تلك التي كانت أعز ما لدى في هذه الدنيا بأسرها (٥٩) » . وبات بضربة من فأس الجلاد وهو في سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم باري parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون في خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولي في باريس ، بأن يقدم إلى جريجوري الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح ماري ستيوارت وإعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس باري ، وابتهج لما اعتزم القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده (٦٠) . وحمل باري هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر - يدعى ادموند نفيل - اتهم باري بتحريضه على قتل الزابث . وقبض على باري ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله (٦١) ، وهو لا يزال ينبض بالحياه .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة الزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات . وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه بالألا يرتضوا قط خلفا للمليكتهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على الزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك في مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التعهد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو
المكانة في طول إنجلترا وعرضها ، وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة
القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففي ١٥٨٦ أغرى جون بللارد
وهو قسيس كاثوليكي روماني ، أنتوني بابنجتون ، وهو شاب ثري كاثوليكي ،
أغراه بتدبير مؤامرة لقتل اليزابث وغزو إنجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضي
المنخفضة ، وتنصيب ماري على العرش . وكتب بابنجتون إلى ماري بهذا ، وأبلغها
أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من معتصة العرش ، وسألها
إقرارا للخطة . وفي خطاب مؤرخ في ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت ماري مقترحات
بابنجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة
عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذي عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد
عميلا سريا لولسناهم . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى لولسناهم ، وأرسل
أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفي ١٤ أغسطس قبض على بابنجتون وبللارد ،
وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلثائة من أبرز الكاثوليك ، واعترف الزعيان ،
وأغرى سكرتير ماري بالاعتراف بصحة خطبائها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ،
وأطلقت الصواريخ النارية في سماء لندن ، ودقت النواقيس . وأنشد الأطفال
التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة اليزابث . ودوت الصيحات في إنجلترا البروتستانتية
تطالب بأوت ماري :

.. وفكشت حجرات ماري ، وجمعت كل أوراقها ، وفي أكتوبر نقلت إلى قلعة
فوذرنجاي Fotheringay . وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة وأربعين
من النبلاء . ولم يسمح لها بالدب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها في عزم
وإصرار . وأقرت باشتراكها في مؤامرة بابنجتون ، ولكنها أنكرت إقرارها للقتل ،
واحتجت بأنها ، كإنسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق
في تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانها اللجنة بالإجماع . وطلب البرلمان إلى
اليزابث أن تصدر أمرا بإعدامها . ولكن هنري الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للرافة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت
آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ،
ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث ارتاب في أنها أنكرته وتبرأت منه
في وصيتها لأنه بروتستانتى . وأوعز مثله في لندن إلى ولسنجهام إلى أنه - ابنها ،
جيمس السادس - ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهياً ،
ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه في أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد
اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المحاذر الحريص -
الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى إدنبره كانوا يطلقون
عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم في الشوارع (٦٤) . ولم يبق
بين مارى وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقصت قرابة أشهر ثلاثة تجر الأيام فيها أذيالها متناقلة ، قبل أن تحزم اليزابث
المنهكة المنزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السباحة والرحمة :
ولكنها سئمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل في أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً
في عرشها ، كما وضعت في اعتبارها خطر غزو إنجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا
وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت في إمكان موتها هي ، ميتة
طبيعية أو بيد أئيمة ، وفي وقت يتيسر فيه لمارى ولللكاثوليكية أن ترثا إنجلترا .
وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعد بأن يتحمل هو كل
مسئولية نتائجه ، وفكرت في أن تنفدى هي الحسم في الموضوع بالإلماح إلى سير
أمياس بولت Amias Paulet . المعين لحراسة مارى ، بأنه يمكنه أن يضع جداً لهذا
الارتباك . بأن يأمر بإعدام مارى ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها
يرغبان في ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً
وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى
أرسله في الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما مارى التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم
تصدق النبأ في بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،
(١٢-٢)

سألها فيها أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين ». أن ينقلوا رفاقى
ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا ، : وقبل لأنها فى صباح اليوم
الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة
والرشاقة اللتين تنسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أمل فىك

أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،

إنى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إنى أضرع إليك ،

متلهفة باكية راکعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك

أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكي ، فلم تجب
إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلامنه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت
الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصفقت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها
بخمار أبيض ، وتدلّى من عنقها صليب ذهبي ، كما كان فى معصمها صليب من العاج ؛
وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقبل لها لأنهن قد يجلثن اضطراباً ،
فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال ؛
وسمح لنحو ثلثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن
فودرنجاي (٨ فبراير ١٥٨٧) وسأها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها
منها . ولما بدأت وصيفتاها فى الصراخ والعويل منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة
عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار
عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن
الرابعة والأربعين .

الصفح والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة لما رأى التى بذلت الجهد بشجاعه
لتكون ملكة عادلة بهيجة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت
طويلاً على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ،
ويمكن أن نصف عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شئ مقابل حب مهماً كان

طائشاً ، وينبغي أن نرثي للمرأة البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ، والتي قدمت إلى
انجلترا تلتمس ماعجاً وملاذاً ، فلاقت بدلا منه تسعة عشر عاماً في غيابة السجن ،
ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر
للملكة العظيمة (إليزابث) التي أصر مستشاروها على أن احتجاز ماري بين جدران
السجن ، أمر حيوي بالنسبة لأمن انجلترا وسلامتها ، والتي رأت أن حياتها وسياستها
مهدتان دوماً بالمواعرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، ماري ، وإعادةنها إلى
العرش ، والتي أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسي ، والتي لم تقنع نفسها بإنهائه
بالتصديق على إعدام ماري . وكانتا امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة
الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شيء من التردد . وترقد كلتاهما
الآن في انسجام ، الواحدة قرب الأخرى ، في كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات
بينهما ، في ظل الموت والسلام :

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ - ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلند ١٥٦٧ - ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلند (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان نمره ثلاثة عشر شهرا ، حين كانت أمه سجينه في لوكليفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلى الذى يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة ، ولم تعد له إلا اسماء وخيال تغشيه وتلطخه مأساة بعيدة مزرية . وتربى على أيدي لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقسروا أكبر مما ينبغى في اللاهوت ، وقدروا ضئيلا جدا في الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين في الشراب في أوربا .

وتولى الحكيم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالى - مورى ، لنوكس ، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفي ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، في قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريه الكاثوليكي ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام العملية للملك ، وكان شاذا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة ، وصوته عاليا ، وكان حديثه مخنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحدلة المفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكونون له كثيرا من الحب : « كانت معزفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده^(١) » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السفة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لا يستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولا بد أن يتحلى بشئ من الدكاء المتمد ليحفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى إنجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المتصارعة فى أيامه . فان أسرة جيز فى فرنسا ، والملك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلنده إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهددة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر^(٢) . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبته ، وأثرت فيه البروتستانتية الطافرة فى إنجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوسها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من عسوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحوا الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفي جلسات الكنيسة وفي الجامعات الإقليمية وفي الجمعية العامة . حظى الكليروس الحديد بقوة تنافس تلك القوة التي كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحي من عند الله ، ومن ثم فإنهم معصومون من الخطأ في ناحية العقيدة أو في الناحية الأخلاقية ، فإنهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس أوجهاة المذهب القديم المتراخين . وفي كثير من المدن فرضوا غرامات على الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفي بعض الأحيان عقوبات بدنية ، على مايضبط من خطايا^(٣) . وروعوا بانتشار للفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، في أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى الجامعات الكنسية البروتستانتية عند انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور في المسرح الإنجليزي فسعوا إلى تحريم التمثيل المسرحي في سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ، وفعلوا ما فعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الإعدام . وتعقبوا السحرة في حماسة بالغة وأقروا لإعدامهم حرقاً^(٤) . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداس ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحة سانت برثلميو ، دعت الكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحة مماثلة للكاثوليك في اسكتلنده ، ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء^(٥) .

وباستثناء ادعاء نزول الوحي على القساوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية في عصرها . وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والجامع والجمعية العامة . وأهاجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الارستقراطي والملك الممسوح بالزيت . ولما كان جيمس يفكر ويجادل - وربما يعتقد ويؤمن - في أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهي ، فانه شكك من أن جماعة من القساوسة الملتهمين حماسة وغيرة

في الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلذذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون في شكل ديمقراطي ... لقد شوهوا سمعتي وافترخوا على في مواضعهم ، لالاية رذيلة في شخصي ، بل لأنني ملك اعتبروه أكبر رذيلة (٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أوحلة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء - وهذا تراث كاثوليكي للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية - يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصي أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيرادات الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة في الكتب المقدسة سندا أو أساسا للنظام الأسقفي ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه في اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبي السائد في الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا غنيفا متحمسا هيأته الطبيعة ليرث عبادة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعي في سانت أندروز ، تابع دراسته في باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Bèze في جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو في التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا لجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية في إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفي ١٥٧٨ أسهم في جمع « الكتاب الثاني لقواعد الانضباط والسلوك » الذي قدد بالنظام الأسقفي باسم المساواة الكهنوتية . ودافع عن الفصل النهائي بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره في الفصل بينهما في الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة في تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله (٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنري الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضروري للإدارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة .

وفي ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإنسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها « حماقة من ابتداء الإنسان ». وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين؛ ونُذرت الحكومة « الكتاب الثاني لقواعد السلوك والانضباط » ، وتمسكت بأن الحرمان من الكنيسة لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة. وفي ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتجمري رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامته ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتجمري وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة)، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أُدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى إنجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعن أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدني ، وندخل القساوسة في شتون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لا يرخص الملك بعقدها : فآثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل في منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمئاعاً بها ، إلا أن أمعن في حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل إخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بهمة التآمر .

وقام ريجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد في الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوّهت النشرات التي لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغاني بطغيانه والعار الذي لحق به من أجله ، وحتى النساء كنّ له نقداً ساخراً لاذعاً يذمرنه فيه بالبحيم وسوء المصير . وأقصى شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأكل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضمهضه سنة بعد أخرى ، وأقر برلمان ١٥٢٩ ، بموافقة التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطاتها في الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة :
وعاد المتقيون .

وإذا اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب
الأبلة » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التي لا ريب فيها ، في ١٥٩٦ ، بمثل الثبات
ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك
بخمسةمئة عام (١٠٧٧) فقال : « إن فى إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك
يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو
يملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو (٨) » . وقال — دافيد بلاك — وهو
قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ،
وأن الزباث كافرة ملحدة . وأن جيمس هو الشيطان بعينه (٩) . واحتج السفير
الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، نأبى أن يذهب قائلاً إن
الجرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لحكمة الكنيسة ، هذا فضلاً عن أنه
تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمة غيائياً . فذهبت إليه لجنة من
القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن
تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم
عام ، وأعلنوا مندرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شيء « فلنهم أبرياء من
دم جلالته (١٠) » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقطن فيه جيمس (١٧ ديسمبر
١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر إدنبره مع كل
حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد ينطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون
عاصمة ، وأنه لن يعود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل
الأكليروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ،
تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع
الحاشية . وتساءل المواطنون فى دهشة : هل كان الزاع يستحق الاستشهاد
الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة في برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألا يعين أى قسيس في المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة في خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجروا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كئيبة منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت في الأدب الإسكتلندي تلك في الحقبة شخصيتان عظيمتان : الملك نفسه ، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد في سترلنجشير في ١٥٠٦ ، ودرس في باريس ، وخدم العلم في فرنسا واسكتلندا ، ونهل الحماة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندا هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونتاني يمثل في إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات في كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (في فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندا وفرنسا ، ثم اسكتلندا حيث تولى تعليم ماري ملكة إسكتلندا (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضي » واتهم بتزييف قسم منها (١١) . وأدان - ماري بلا هوادة ولارحمة في كتابه « كشف النقاب عن حكم ماري » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتحلى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد في كتابه « تاريخ إسكتلندا » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندي » : وأكد من جديد في رسالته « الحكم الشرعى في إسكتلندا » - على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً - أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يرتكز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التي يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله (١٢) . فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعي ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجيء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندي كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبثي الوحيد الذي أنجبته اسكتلنده (١٣) . وأسبغ هيوم ، في تواضع ، هذا الامتياز على نابيير (عالم رياضيات اسكتلندي ١٥٥٠ - ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندي كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أما جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة في هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخورا بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفي ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير ، الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدي إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « إلهية الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنري في فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثاني وهو « القانون الحقيقي للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه في فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العاية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز الطق به ، مثلهما في ذلك مثل أى سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق في أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة ، وجريمة ، وإثما من شأنه أن يفضى إلى الضرر أكثر من أى طغيان . إن هذا الذي كان بالنسبة لاليزابث أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص . ومهما يكن من أمر فإن انجلترا لم تتنبأ في ١٥٩٨ بما حدث في ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نخب البروتستانتية. وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى الملكة اليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طريقت أمه ماري . وبعد مضي أربعة أيام على وفاة اليزابث ، بدأ جيمس (٥٠ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مرحلة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متمهلا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى لندن التى أخذت زخرفها وأزينت للترحيب به — انحنى الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عثم اليزابث نافعا مشمرا ؛

٢ — جيمس الأول ملك إنجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذا رجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة وبنطلونا محشوين أو مبطنين حتى يمنعا وصول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخدها متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياب والحزن ، وكأثما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فأثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على اليزابث ، وكانت اغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمم ويتلعم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جانا مخادعا ، لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متساعها وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالخرافات ، كما كان عالما . وكان سخيلا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون . يحسد العلماء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكاً أنه منج جامعتي أكسفورد وكمبرج حق إرسال ممثلين لها إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلي صاحب قانلاً : « لو لم أكن ملكاً لآثرت أن أكون جامعياً ، ولو قدر لي أن أسجن ، وكانت لي الخيرة من أمري ، لما آثرت مكاناً أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازماً لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم (١٤) . وصفوة القول انه كان رجلاً يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان في قرارة نفسه «محاوذاً» ، يسخر منه الأذكياء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام :

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيراً إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح في بعض حفلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال في الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهي الأمر إلى ثمل عاطفي . ودرجت الحاشية على الاسراف في الملابس وفي الحفلات ، إسرافاً لم يسبق له مثيل في بلاط اليزابث . وكانت اليزابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها اللوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الحسراف الغريب غير الواقعي بلغ الآن ذروته . وبلغ الاستهتار والخلاعة . والفساد في البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة في إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أنني إذا لم أجد من يحبني غير زوجي المسكين ، فلسوف أشق نفسي (١٥) » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم في الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة (١٦) . وروى بسند ضعيف ، أن رجلاً حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً (١٧) .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً في شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذي يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذي يرأسه روبرت سيسل الذي عينه إرل سالسبورى (١٦٠٥) : وورث سيسل كل شيء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحدب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة ماهرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين . وعمل أفراد أى بلاط أجنبي . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه إرل سومرست ، فهى له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلًا وعلماً ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيدا للقانون ، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرت محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورأى فى ١٦٠٣ ، والمشاركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ ، وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطفى القانون العام على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة ؛ لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل . . . أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو يقضى عليه بالبطلان (١٨) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا رأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى ؛ وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعج الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطلقة فى مذكرات لادعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه بكونه بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك ؛ وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه ؛ ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً في القضاء الإنجليزي(*) .

وفي نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التي كان لا بد أن تتمخض في عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التي كان هنري الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتدمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية ؛ فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

إن مقام الملكية هو أسمى شيء على الأرض ؛ لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ؛ فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً ؛ : : : إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم في صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة في شخص الملك ؛ إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة ؛ لأنهم يصنعون رعاياهم أو يخطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفي كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة في أن يجعلوا : : : من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا — فاليبدق يطيح

(*) بردي (أما ؛ ي أن رجة كوك الثانية - وهي أرملة سيروليم هاتون كانت حاملاً عندما بنى بها كوك ؛ وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلحظ جنيناً يتحرك ؛ فسألها : « ما هذا ؟ لم في اليوم » . البت ، إلا لما تزوجت طباعها (هذا تلاعب باللفاظ في الإنجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيئ أنها كانت قد رفضت الزواج من منافسه ليكون .

بأسقف أو بفارس — فيرفعون أيًا من رعاياهم إلى عنان السماء
أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون في أموالم (٢٠) .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسية في العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض : ولكي نضفي على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان في العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية في الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعي لا يتأتى إلا بأن يغرس في نفوس الناس ، إجلال تقليدي للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن إضعاف الإصلاح الديني للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة في المقام الأول ، أو في النهاية ، عن النظام الاجتماعي . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدى : إلى درجة أنها لا تقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية في الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحية الاقتصادية . ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الإلهي ، جنباً إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون في ألمانيا ، السلطات الروحية التي كانت للكنيسة القديمة في بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون في أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الإلهية التي اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعي . وأخطأ جيمس في التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغي ، وفي أشد صيغة تطرفاً .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولاً نظرياً (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع إليزابيث وهي في أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضي — الذين كانوا مدينين لملوك السويد بأعمال جليلة بطولية . ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضواً ، كثيراً من ممثلي الطبقات التجارية الناشئة الذين لا يستطيعون سيطرة ملكية بلا حدود على أموالم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه في أن يحكم ديانتهم . وحدد المجلس حقوقه في إغفال جرى لألوهية جيمس ، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل في صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم في أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع في المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك في الفصل في مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق الجمع الكنسى الأنجليكانى في الفصل في الأمور الكنسية ، على أن تخضع قراراته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس في بونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرماننا هى حقوقنا وراثتنا القانونية : : وليست بحال من الأحوال أقل شأنًا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون في ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها (٢١) » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية إنجلترا ، بعد مائة من للسنين توالى فيها الانتصارات والهزائم :

٣ - مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجدور عميقة . وكانت معظم النشرات التى سممت الجو ، عبارة عن حملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة الليبوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة إنجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوافق شبه ودى » بين البيوريتانيين والانجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ يناير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى (م - ١٤)

وبراعته في الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد » ،
وديانة واحدة شكلا وموضوعا (٢٢) » ، وأعلن أن النظام الأسقى أمر لا معدى
عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثيل
منذ عهد المسيح (٢٣) » . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه
طرف في الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شيء
إلا القرار التاريخي الذي لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة
للبكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسي الانجليكاني في ١٦٠٤ بعض القوانين
التي تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصل
الذين رفضوا الامتثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر
إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزي والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين
يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك في ألوهية المسيح ، برغم البراهين
التي قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا في أنه لم يخز بعهد ذلك
الاعدام بسبب الخلاف الديني ، فكان هذان الاثنان آخر من أتى حتفه بتهمة الكفر
في إنجلترا . وباطراد التحسن في الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود . في بطاء ،
الفكرة القائلة بأن التسامح الديني ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ،
وتغزو ما كان راسخا في الأذهان . بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام
الاجتماعي يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ليونارد بوشر في كتابه
« السلام الديني » (١٦١٤) أن يدلل على أن الاضطهاد الديني يوسع هوة الخلاف
ويؤدي حتما إلى النفاق . ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين
والأتراك المسلمين متسامحون في القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مساؤون ،
ويعيشون في سلام (٢٤) » ، على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم
شائبة الخيانة - ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك - ينبغي
أن يحرم عليهم عقد الاجتماعات ، أو الإقامة في أبعد من عشرة أميال من
مدينة لندن .

كان جيمس في أغلب الأحوال دوجماتيا متسامحا (الجذمية ، الدوجماتية : تأكيد الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيا على مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية في أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا . وكان ميالا إلى إرخاء قبضة القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس في الدور الخاصة . وعلى طريقته الفلسفية غير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية في العالم المسيحي^(٢٥) . ولكن عندما تكاثرت عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من النور والأمل ، وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين الزبائث المعادية للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد للدراسة في جامعة أو معهد لاهوتى في الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارساليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكي ، وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة قدرها عشرون جنيها في الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثل هذه الغرامات مصادرة الممتلكات الأصبية أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية في أرض المقصر في الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج^(٢٦) .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعد أمامهم الآن من علاج لهذه الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبي قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان في عهد الزبائث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن في مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، في الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة المالكة . واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه في المؤامرة توماس ونتر ، وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Guy Fawkes ، وتعاهد الرجال الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس من يد مبعوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة للمقصر ، وظلوا يعملون ستة عشر ساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع في مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى . تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلاً مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب في صدورهم ، فكم خامرهم الشك في فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك بلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبي ، رغبة في إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين - سأل هنري جارنت أسقف الجزويت في إنجلترا : هل يجاز في الحرب الاشتراك في أعمال قد تودي بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارنت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبي من أية مؤامرة على حياة العاملين في الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمره بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة (٢٧) . وأفضى كاتسبي إلى رجل آخر من الجزويت - اسمه أوزوالد جرينواي - « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التي تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك في إنجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواي زميله جارنت بالموضوع « وحار الرجلان الجزويتان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم .

وسعى كاتسبي - ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم - إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، في صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمنستر . وأندر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات في أماكنها ، وفي ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نفس البرلمان في اليوم التالي ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة
الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسي ، ورايت ، بجروح
قتالة . وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن . وعندما قدم المسجونون للمحاكمة
اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملهم على توريط القساوسة
الجزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن
إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل اليوم
٥ نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل
تمائيل أو صور جى والطواف بها في الشوارع .

وفرجيرارد وجرينواى إلى القارة ، ولكن قبض على جارنت ومعه جزويت
آخر يدعى أولد كورن . وفي السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ما حساه سبيلا
لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها ، واتهم كل منهما
على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارنت ، وأقرها أولد كورن . فاعترف
جارنت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان دلى علم بالمؤامرة ، ولكن
بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على أنها سر من أسرار
« الاعتراف » . فإنه لم يشعر بأنه حر في افشائها ، ولكنه على أية حال بذل كل
ما في طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة
سنة أساييع في التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذبا أن جرينواى في سجن
لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارنت عما إذا
كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة
لشخص في سبيل إنقاذ حياته . وفي ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً (٢٨) .

وأحسن البرلمان أنه على حق في تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فنعوا من
مزاولة الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدامهم أوصياء أو حراساً قضائيين ،
وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن
يؤدوا قسماً جديداً ، لا ينكر سلطة البابا في خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه
كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

ديستوجب اللعنة (٢٩) . وحرم البابا بول الخامس تأدية — مثل هذا القسم ، وامتنل للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفي ١٦٠٦ أعدم ستة من التساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامي ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم ستة عشر آخرون (٣٠) . وامتلأت السجون بعدة مئات من التساوسة وعدة آلاف من الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت لى دخول إنجلترا ، ففي ١٦١٥ كان يوجد منهم ٨٠ على لأقل ، وفي ١٦١٣ ، كان منهم ٢٨٤ (٣١) . وشق بعض الجزويت طريقهم لى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم — جون أوجيلنى — فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقت رجلاه فى « الدهق » (آلة التعذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بلياليها بغرز الدبابيس فى لحمه (٣٢) . وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى والسلطات الجديدة .

٤ — المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة إنجلترا مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . ولبنى لأنسب لى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ، ومعظم روائع جونسون ، ووبستر ، ومدلتنون ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفاتشر ، وفى الشعر دون ، وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك جيمس ، وتلك أعجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك ينادى المسرحية . وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى . وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمسة سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ — ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلافى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ، ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هوميروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للدراسات الإنجليزية مجالاً جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسى الحديث فكرة رواية Bussy d'Ambois (١٦٠٧) - خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلفظ من عنفها شىء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التهكمية العسيرة الهضم قدره هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوذا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خائق ، وإن قراءة رواياته اليوم لى ضرب من الجهد المضى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن نبتهج كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقيا على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيق فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أحياناً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية - حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدة . ولا بد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلاثمائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعه إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلاً عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس ذكر ، وسيريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمعون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقّه .

فانه فى ذروة مجده (١٦١٢ — ١٦٢٥) رفعتة انجلترا ، فى مجال المسرحية ، الى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ، وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فرضع الشعر وتربى على القوافى ، وأضاف هو إلى هذا التراث ما كسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير فى « هنرى الثامن » ، « القريبان النبيلان » ، ومع ماسنجر فى « الخورى الأسباني » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطرز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، وإخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت فى إتمام دراسته فى أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه فى شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر فى كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيان الواحد منهما الآخر ، فى الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والخليلات والأفكار ، أو كما قال أوبرى « كانت ثمة امرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب فى أفكارهما وصورهما الذهنية » (٢٣) . وتعاون الاثنان على مدى عشر سنوات فى إخراج روايات مثل The Maids' Tragedy, Loves Liesa-Bleeding, Philaster The Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا . وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فإن هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن — كان لها فى أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير (٢٤) .

وتوفى بومونت فى سن الثلاثين ، فى العام الذى توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التى جر عليها النسيان ذيوله ، ونبتت ملهاة من رواياته التى قامت على دسائس ملتوية صاخبة مرحة ، نبتت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها — بتركيزها على الزنى — مهدت للمسرحية فى « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج فى (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث
المشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ ريفى بسيط
بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها الباردين ،
أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ،
وهكذا أحبي جدك ، وأوى بندورى الأولى ، وأقدم نظرات
الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبي . وهكذا
أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع
كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتر بها الرعاة . ولن يتوج
بعد الآن جيبى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصدر حلبة
الرقص . ولن أفرح أو أبتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات
والرعاة المرحين ، ولا بصوت المزمارة ذى الأنغام العالية السارة فى
واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون
بمناى عن هذا كله ، مادمت أنت نأيت عني ، يامن كنت أجلس
كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصفى ملكة
الصيف ، على حين يرتدى صببية الرعاة اللون الأخضر الزاهى
المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة
من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه
كلها معك ، لقد فنى كل شئ ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ،
التي سوف تبقى من بعدك ، والتي سوف تنمو وتنتعش ، طالما
كانت هناك مزامير تصرخ أورعاة مبهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحدة ثم اختفت من المسرح . وأى
حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسيبحة ، فى عصر لايزال يجيش بانفعالات
عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين في عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، ومعنى في الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الإيمان « بأن الأنفاس التي تخرج من الجمهور العاجز كفيلا بأن تسمم أعرق مسرحية مأسوية . والرواية هي قصة فكتوريا أكورامبوني ، التي هزت آثامها ومحاكماتها كل إيطاليا (١٥٨١ - ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . وتحسن فكتوريا بأن دخل زوجها لايتفق مع جمالها ، فتستجيب للملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقتراح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى الموسوع عنايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية في الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها تدافع عن نفسها في جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفرغ من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته . ثم اختطفها براتشيانو من بين يدي العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة سنة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أو كريهة ، والمناظر العصبية قوية . وارتفع الشعراء - ين إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالذمة للدوق الذى أصابته المادية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوهم فظاظة فلامنيو المتكلمة . وحيته الحقيرة البائسة ، كما شوهمها اللامعات واشتهم إلى اسباب حتى من أرق الشفاه . « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة في اليوم الواحد ، وأفل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا » (٣٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » في كل صحيفة : أخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما خجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المحضبة بماء القتلى في رواية « دوق لوى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كالابريا ، يحرم على دوقه أمانى . أخته الشابة الأرملة الزواج

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثي الدوقة للطهارة المكلفة التي أكرهت عليها :

إن الطيور التي تعيش في المروج وفق هوى
الطبيعة الجاحمة ، تحيا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تختار رفيقاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع (٣٦) .

واستبدت بها الشهوة والحرمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سرّاً ،
وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفي الفصل الأخير نرى شخصاً
يقتل في كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ،
ولم يتدرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار
الأوغاد في الرواية — الذي قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خليلة ثم
قتلها — فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد
توريات في صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاد ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار
وحشي مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبيل أو الإخلاص أو الرقة في الأركان
السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويتسم بالشفقة لبعض
الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التي لا تزال جميلة في رقدة الموت .

« غطيا وجهها ! عيناى تنهران ! لقد ماتت في عنفوان شبابها (٣٧) !

ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنأمل في شيء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذي كتب « اشربي من
أجلى أنا وحدي ، بعينيك » . Drink to me only with thine Eyes

٥ - بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ - ١٦٣٧

ولد في وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ؛
وأسقط من اسمه حرف الباء تمييزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولأنه مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معانة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثاني بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التي ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثري ولیم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات القديمة ، مع عداء أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، وواضح أنه على حق — « أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء انجلترا جميعهم » (٣٨) على أن « مرحة » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الحشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبريدج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر (٣٩) » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صهى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأباً ، وهو يرص الطوب ويفسك في الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق في تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم في الأراضي الوطیئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، فصره ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالاً ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته ، فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كاليو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعمق حين نعلم أنه أصبح ممثلاً (١٥٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة في رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك في أنه حمل نصيبه من المستوية في « المادة المثيرة للفتنة والتي تتضمن قلداً وتشويهاً للسمعة » التي وجدها مجالس الشورى في الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أ.أ. ناش الذى كان خبيراً

عتيقاً يمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه فى يارموث . ووجد جونسون نفسه فى السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد اقترض أربعة جنيهات من فيليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها فى مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحى العظيم (شكسبير) لم يستغ مقدم الرواية التى اقترحت - على الرغم من النموذج السائد - اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقاليد القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

تجعل طفلاً . ملفوفاً الآن فى قفاه ، ينهض حتى يستوى رجلاً
ويطوى ، بلحية وملايس حداد . ستين عاماً مضت ، إنك
سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثلها كل
الروايات . رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ،
ولا عرش ينهار . مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ،
ولغة مثل تلك التى يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب
أن تنتقيهم الملهة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلي
الناس بنجاحات الإنسان لا بالجرائم .

وهكذا أثار جونسون ظهوره للمزاح أو الهزل الارستقراطى فى ملهيات شكسبير الأولى ، والجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى الخارقتين فى المسرحية « الرومانتيكية » . وأقرباً بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلى عن ثقافته ، ومعرفته الواسعتين للخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لهجات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية رومانسكارياً أكثر منه ابتكارات فلسفية معقدة ، ولكنهم يعيشون . وكانوا ناهيين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قلة ولا سناجين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعني « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة Humor لتدل على أربعة سوائل في الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعا لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد في جسم الانسان، كان يقال إنه ذو « مزاج » دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد) ، أو سوداوى (مكتئب) ، أو صفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تمتلك إنسانا صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه

وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها في اتجاه واحد — فهذا

ما يمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour) (٤٠)

وظهرت الكلمة في التصوير المرح للكاتبين بوباديل ، وهو تحدر مباشر من رواية باريس « المحاربون الأجماد » ، ولكنه يثور مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوما شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون في نعمده .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان في مقدور بن الآن أن ينغمس في حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات في أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الحليلة » (٤١) — وهجر التمثيل ، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيليات التنكيرية للبلط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التي نظمها مع المناظر التي صممها جوز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . ففي عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جبرييل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . وما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية في السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الاكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم إسمه بجديد محمى بحرف T ، حتى يمكن في الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضائها مطاق السراح أعيد إلى السجن من أجل دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هنساو . وفي ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقدح ، البيويتانيين الذين « كان الدين بين طيات ثيابهم ، والذين حلتوا شعر رءوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون « وحدات أرسطو » . وبدلاً من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للنحن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذى تمثل عليه ،
واسوف يرون فيها علل العصر ونقائضه . مثرحة تشرىحا
دقيا مفصلا فى كل ناحية فيها ، فى شجاعة لاتلين
ولا تفتقر . وفى ازدراء لأى خوف (٢٠٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب فى مسرح الجلوب ، فإنه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من « ثلثين الشبان ونحبة صغيرة من الجمهور فى مسرح « Black Friars » ، وأحسن دكرودارسون أن الرواية تناولتهما بالهجاء . ولما استشاطت فرقة تسميرلين غضبا لمنافسة أولاد مسرح « Black Friars » لها ، أخرجت فى ١٦٠٢ رواية ذكر « Satiromastix » (ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء فاه مغرور متحذلق ، جسمه ملئ بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء : وابتسم الحظ

لبعض الوقت. واستضاف أحد المحامين النابهن بن جونسون في بيته وأرسل ارن
بمبروك إلى الشاعر عشرين جنيا « ليشتري بها كتباً » (١٣) . وما أن أصبح في أمان
من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم محاولاً تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها
« سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيبيريوس . واعتمد في روايته بدقة
على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديوكاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة
ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلاً) وأبيات من الشعر
الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقي الممل
النادر عن شخصيات تعوزه الحيوية . وسرعان ما سحبت الرواية من المسرح .
وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات
باللاتينية . وتأثر لورد Aubigny ، فهياً للمؤلف المخزون مأوى آمناً لمدة
خمسة سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبة في ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو
الثعلب » ، هاجم فيها ، في دجاء مقنع شهوة المال التي اجتاحت لندن : وكما هو
مألوف في الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton —
فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى
سيد البخيل فولبون (الثعلب) الذي يدعى أنه مريض مرضاً شديداً ، مجموعة من
صيادى الميراث الوصيصة — فولتوز : نر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم
كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ،
على أمل أن يسي وريثاً له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بمنع جشع ، إلى حد
استعارة زوجة كورباتشيو للياة واحدة . وينتهى الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده
فولبون حتى يعينه هو وريثاً وحيداً له . ولدين بوناريو (الطبيعة الطيبة) ،
يكشف الحياة ، ويرسل مجلس السناتو في البناديقية كل الممثلين تقريباً إلى
السجن . وجعلت هذه المسرحية ، آخر الأمر . رواد مسرح الجلوب يركعون بين
يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشامان في

سرحية *Eastward ho* (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقون بقطع أنوفهم وأذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمسوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — في المأدبة التى أقامها الثالث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ . استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المهر الرئيسى كاتسبي ، قبل ذلك بشهر ، فانه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ . دعى إلى المحكمة بوصفه متمردا مخالفا للقانون . ولما كان فقيرا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فان المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكانى ، فى حماسة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس النبذ حين جلس إلى « العشاء الربانى » (٤٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « *The Alchemist* » ، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالشوذة . إن سيراييقرور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

« الليلة سأحول كل مافى يبنى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعوني مالدتهم من هذا وذلك ، وأرسل إلى لوثرى من أجل كل مافيا من نحاس ولسوف أشتري ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فلئى أريد أن يكون لى من الزوجات والخليلات مثل ماكان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل إكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هر كيوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتخلقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما ألسنة الشبوط (سمك نهري) ، والسنجاب ،
وكعوب الأبل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخزيرة سمينية حامل ، واللى قطعت لتوها :... فسأقول عنها
لطبائى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا (٥٥) :

وقلما كان سيرايقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان
كلامهم بغیضا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو
إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهذا الغناء وتلك النفاية ، وبلغه
الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ،
فانتقم منهم جونسون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ساخرة فى رواية
The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممتلئة بالعكارات
وتتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيتها الحسنة ، فى مسرحية « الراعى
الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :
إن وطء أقدامها لا يثنى ورفقة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعمّت جذور الأزهار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة (٥٦) .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته ، على أغنيات رقيقة تناثرت في ملهاواته ، مثل الجواهر وسط
القاذورات ، من ذلك أنه في ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass »
(١٦١٦) ، يغنى فجأة :

هل شهدت الـا سوسنة متألفة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟
هل شهدت إلـا تساقط الثلوج
قبل أن تلتطخها التربة ؟
أولم تلمس فراء السمور
أوريش البجعة قط ؟
وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أورائحة الناردين ودويحترق ؟
وهلا تذوقت شهد النحلة ؟
أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنية « إلى سـليا To Celia » التى سرقها
من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحوّلها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا
رحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشعراء .
وأصبح شاعر البلاط غير المتوج فى إنجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن
الحكومة اعترفت به فى معظم الأحوال ، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية ،
وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله فى حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الخاففة تخفى
وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهياؤوا له أن يلعب
دور الزعامة كما كان الحال مع سميـه فى القرن التالى .

ركان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سميـه صمويل جونسون فيما بعد ،
وما كان أكثر وسامة ولارشاقة ، وكـم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجمد

المملوء بالبشور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفي ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » في شارع فليت . وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل . ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ، وكان لجونسون مقعد مرتفع في أحد طرفي الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك . الذين سموه القديس بن (٤٧) .

وكان جونسون في حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض في السنين التي كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتي جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتضور جوعا طيله الأيام التي لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شيء من الحاسة أو الخبرة المالية التي جعلت شكسبير خبيرا في إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه في ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين» جونسون في أيام مرضه وفااته (٤٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحبهم ، وما جاءت ستة ١٦٢٩ حتى عاش وحيدا قعيداً ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعاني من المرض والفقر ثماني سنوات أخرى ، ودفن في وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر . العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزي مثقف . تعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون دون ١٥٧٣ — ١٦٣١

في مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتاني ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن الترجمات الموجودة صالحة تماماً . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء في كلتا الجامعاتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها في كل الكنائس (١٩) . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالماً آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم في سبع سنين (١٦٠٤ - ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة « رسمية في ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث في إنجلترا . ودخل إلى اللغة الإنجليزية من هذه الترجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً في هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه في إنجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة على أسلوب الأدب الإنجليزي مفيداً كل الفائدة ، فقد وضعت حداً للتعقيدات الطويلة الغريبة في النثر الإنجليزي في عهد الزباث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظاً أنجلوساكسونية واصطلاحات إنجليزية مفعمة بالحياة . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية في الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة في النثر الإنجليزي .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالي « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما في الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكآبة Anatomy of Melancholy » (١٦٢١) (*) - وهو المرجع الضخم الذي وضع فيه قسيس سان توماس في أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بعض النثر العادي منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التي كانت تبدأ في لندن في أيام جيمس ، والتي تدرجت في ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة إنجليزية باسم « الانباء الأسبوعية » "The Weekly News"

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح في حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاعة بحارة الزوارق في نهر التاميز^(٥٠) . وللتخلص من كآبته « التهم » « بيرتون » « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفي هذه الكتب وفي مخطوطه وفي علم التنجيم وفي الخدمات الكهنوتية : قضى أيامه الكثيرة ولياليه المستلثة بالنجوم . وحسب طالعه الخاص ، وتنبأ باليوم الذي سيوافيه فيه الأجل انحتم بدقة : إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا في أنه شنق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب^(٥١) .

أنه نشيط مفعم بالحياة في كتابه . ولما شرع في فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراء أطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذي يشبه مرح رابليه في موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شيء عن غير قصد كما كان يفعل مونتاني ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشيء من اللاتينية واليونانية ، ويغري قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شيء ، وهو لا يدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة : « ما أرانا نقول إلا ما إذا من لفظنا مكرورا . وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب^(٥٢) . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التي تنسرب إلى اكسفورد فحسب .

أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ، وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطيفاف والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التي تم الاستيلاء عليها . والمد التي حوصرت في فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبولنده الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيره ، مما يتم في هذه الأيام الاصفه : فتتشب المعارك ، وينبع كثير من الرجال : كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة والمعارك البحرية ، ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم خدع حربية وإنذارات جديدة ، أنها فوضىائلة من العهود

والرغبات والأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البيئات
والدفوع والقوانين والتصريحات والآراء والانشقاقات
والهرطقات والأعراس ، والمسرحيات التنكيرية وشعرات
الرياء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل والحنازات (٥٣)

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها
ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير في الأدباء والتواريخ . وهو
يرتاب في أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لسوف أصنع
يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بي ... أتحكم فيها بمحض حريتي » ويصفها في تفصيل
خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب في هدوء في
مكتبه ، أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل
مؤلفي العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا
مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل
إلى أسباب الكتابة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجائعة ، والافراط ، والشياطين .
والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسى ، وأعراضها (أى
الكتابة) ومن بينها : « ريح تقرر في البطن وتجشوات كريهة وأحلام
مزعجة (٥٤) » . وبعد أن أكمل مائتي استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكتابة :
الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، المليينات ، إدرار البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ،
الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصعبة المرحية ، النبيذ ، النوم ، فصد
الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو نجية للآمال
ومفرحة معا — إذا توقف سير الزمن .

أما في الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة » :
ريتشارد كروشو ، أبراهام كاوى ، جون دون ، جورج هربرت — الذين عبروا
في جبال وديع ، عن الهدوء والتقوى في بيت الكاهن الأنجليكاني ، ولقد سبهم
صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى
الفلسفة واللاهوت والجدل ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلي ، أوجونجورا ، أو
البلياد — أساوبا يتميز بالبدع والتزوات اللغوية ، والدكاء اللفظي والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : ففي عهد إليزابيث كتب في الحب ، وفي عهد جيمس عن التقوى ، وفي عهد شارل عن الموت ، ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدي الحزويت وفي أكسفورد وكبردرج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهداة الاختفاء . واعتقل أخوه هنري لإيوانه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنري نحبه في السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه في بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دي جرانادا الروحية . ولكن في ١٥٩٢ نبذ عقله الفتي النابض بالحياة ، ما ورد في ديانته من معجزات وكرامات ، وحام في العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك .

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسي غير المشروع صراحة ، ففي القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التي تعروها الكتابة ، امتدح « أحلى شيء في الحب : التنوع (لذة الهوى في التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا في الزمان الأول
أولئك الذين لم يجدوا في تعدد العشاق جرماً (٥٥) .

وفي قصيدته التأملية رقم ١٨ سبح في « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس في صدرها » وفي القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهي تأوى إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفي خيال واسع ، طلب إليها : اسمحي ليدي « أن تجوسا حيث تشاءان » : واخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فإنه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان في نشوة لا إثم فيها (٥٦) : ولكنه أنغم بالمظاهر فسممها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التي كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبني على الجلال ، سريع الفناء مثل الجلال » (٥٧) ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضربة قاتلة .

وفي ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد في الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية في ١٥٩٧ إلى جزر الآزور وأسبانيا. ولما عاد إلى إنجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجرتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠) ، ونشط في أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التي واثته بها القوافي . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم ، وساءت صحة زوجته ، وكتب يدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجرتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت دروري مسكناً في قصره (١٦١٠) في Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان *An Anatomy of The world* ، وفيها ضحك من موت اليزابث دروري تضخيماً حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون بأسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى

وتدعو الفلسفة الحديدية كل الناس إلى الشك .

وخمد عنصر النار ،

وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان

أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .

ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد وُلت ،

على حين أنهم في الكواكب وفي القبة الزرقاء

يلتمسون الكثير من الحديد ثم يرون أن كل هذا

قد انهار من جديد

لقد تنبت كل شيء ، وضاع التماسك ،

كل الزاد الكريم ، وكل علاقة (٥٨) .

وهكذا. حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الحديد ، مجرد « ضاحية » للندى . وفى إحدى حالاته النفسية نراه يمجّد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى يتساءل متعجباً هل سينتهى العلم بالجنس البشرى إلى الدمار

إننا نحارب أنفسنا بالأمراض الجديدة

وبالفيزياء الجديدة هناك آلة جديدة للحرب أسوأ كثيراً (٥٩) .

وكذلك تحول إلى الدين . فان تكرار صابته بالأمراض والعلل ، والموت المشوم لأصدقائه الواحد بعد الآخر ، أنهى به إلى خشية الله فانه . ولو أن عقله ظل يحاول فى اللاهوت : فانه كان قد تعلم ألا يثق فى العقل كذلك ، على أنه عقيدة أخرى . وقرر أن المذهب القديم يجب قبوله دون مزيد من النقاش ، إذا كان يوفر هدوء البال ولقمة العيش . وفى ١٦١٥ صار قسيساً إنجليكانياً ، ولم يقتصر حينئذ على إلقاء المواعظ فى نثر كتيب مؤثر . ولكنه نظم كذلك بعضاً من أكثر الأشعار الدينية تأثيراً فى اللغة الإنجليزية . وفى ١٦١٦ عين قسيساً خاصاً بخيمس الأول ، وفى ١٦٢١ أصبح رئيس كهنة سانت بول . ولم ينشر قصائده الغنائية الخمسية التى نظمها فى شبابه ، ولكنه كان قد سمح بتداول نسخ مخطوطة منها ، أما الآن فانه — كما روى جونسون « يندم أشد الندم ، ويسعى إلى إعدام كل قصائده (٦٠) » . وكتب بدلاً منها « قصائد مقدسة من نوع السونيت » . وتحدى الموت . وهو يصفر فى الظلام .

أيها الموت . لا تزه ولا تتكبر . ولو أن بعضهم قد أسموك

جباراً رهيباً ، لأنك لست كذلك .

لأن هؤلاء الذين تظن أنك صرعتهم

لا يموتون . أيها الموت الحقيقى ، إنك كذلك لن تستطيع أن تصرعنى ...

لقد انقضت غفوتنا القصيرة ، وسوف نكون فى يقظة أبدية .

ولن يكون ثمة موت بعد الآن ، وسوف تموت أنت أيها الموت (٦١) .

وبعد أن أبل من مرض شديد ، كتب فى مذكراته فى ١٦٢٣ ، سطوراً مشهورة :

« إن موت أى رجل يهد من كيانى لأنى جزء متشابك فى الجنس البشرى ، ومن ثم لأرسل

أحدًا لأستفسر عن تنعى النواقيس ، إنها تنعاني أنا (٦٢) . وني أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التي بادر الناس فقالوا إنها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثنوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قل صديقه المخلص ايزك والون) أن علمته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم (٦٣) ، وما أن انتهى من إلقاء موعظته التي كان فيها فصيحًا في التعبير عن الإيمان بالبعث ، « مبهتجا أشد الابتهاج لأن الله أعانته على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذي لم يغادره ... إلا محمولا على أيدي رجاله الأتقياء إلى قبره (٦٤) » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعي أمه التي كانت قد احتلمت صابرة آثامه ، كما استمعت في حنان وعطف إلى عظامه .

لقد كانت حياة حافلة متوترة ، انتظمت كل انعطاف من شهرة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت في عزاء دقي ، هو عزاء الإيمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لتجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعي الخيالي على نحو عجيب ، هذا الروح الوسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراد : إنه نبذ اللطائف المتكلفة في حديث الالزبيين واستطاب الألفاظ التي لم تبلى جنتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشئة المتنافرة التي يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شيء مبتذل في شعره بعد أن تخرج في المواخير . إن هذا الرجل الذي صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة في العبارة والعاطفة ، ما لم يضارعه فيه شاعر آخر في ذلك العصر ، أهم إلا شكسبير نفسه .

٧ - جيمس يثير العاصفة ١٦١٥ - ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفينا شيمتهما الخيانة والندر . ففي ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فليير Villiers ، الشاب الوسيم البحرى الثرى ، ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم مركز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه في توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع للطغوس الإنجليكانية في الظاهر ، ولكنها في أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الحائز أن تقنعه بصداقة أسبانيا .

إن الملك جيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة لتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للحروب الأولى التي كانت لإنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) - وزوج ابنة جيمس المحبوبة إليزابث - أمارته في بداية « حرب الثلاثين عاماً » ، راود جيمس الأمل في أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هسبرج) استرضاء جادا كريماً ، قد يؤثر على امبراطور آل هسبرج فرديناند الثاني ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار جيمس استياء الشعب واشمئزازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقي رالي نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالي يعارض سراً لارتقاء جيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند جيمس ووثيده . وسرعان ما وصل جيمس إلى لندن حتى فصل رالي من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط في عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه بريء وحاول الانتحار . وحكم ، وأدين بناء على آلة مشكوك في صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، في ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ . وقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفي ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة نفيس رقة وتقى - لم يشهدهما العالم فيه من قبل . ورفض جيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفاً مصلتا على رأسه ، وسمح لزوجته رالي بالإقامة معه في بيت صغير بناه في تخوم البرج (السجن) . وأمدّه أصدقائه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب - كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملّة - ، فكشف عن عقل منهوك شديد الاضطرابات والخلل . وبدأت القصة

بنيوى ، و انتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلميا واليونان وقرطاجه ،
وانتهت برومه الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة
« لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لا ينجو من الأذى ،
وتحسن أسلوبه بمتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ،
وبلغ الندوة فى المناجاة الختامية » للموت البليغ العادل الجبار (٦٨) .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، فى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠
جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك (٦٩) ، ووعده ، فى حال إطلاق
سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى
جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخرانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا
مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى
عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام
نافذ المفعول لإغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسباني كونت جوندومار إلى أن
هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكرو صفوهم . فما كان من
جيمس الحريص على السلام ، وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى —
تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان
والأسبانية منها بوجه خاص (٧٠) ، ووافق رالى كتابة على هذه التحذيرات (٧١) ،
واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فما كان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم
الإعدام إذا خالف رالى تعليماته (٧٢) .

وجهاز رالى بمعونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧
إلى مصب نهر الأورينوكو . ولسكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت
الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ، وتلك مسألة أسطورية تماما . وزل رجال رالى
إلى البر — وبقي هوعلى ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها .
وفترت همه القوة المهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها
المنشودة فى الذهب ؛ وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجة لذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به ، وتخلت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى إنجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشد الغضب ، أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش . ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جون دومار ، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سُم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادىء ، جعل منه بطل شعب يمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعتي ، ولن أدع أعدائي يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البليطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء (٧٣) » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم على السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا على حياته . اللهم احفظ على عقلى وألهمنى الصبر (٧٤) » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الإفلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء — هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « إنجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ — ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيو فونلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون وليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسي . وبعد ثلاثة

أشهر من المحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ ديسمبر) .

وفي آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة : حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التي كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية في أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، في الهند . وأنشئ وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (٤٠ ٦١) . لقد اتخذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية في الهند :

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية : ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام : وتوسل إليه مجلس العموم أن يدخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر في بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة : لامن أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بتاريخه في تنفيذ القوانين المعادية للكاتوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدي إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح (٧٥) .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والمملك في ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفي على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله في أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (في ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخي الذي أكد من جديد أن « الحريات والاعفاء والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هي التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء إنجلترا » وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التي تتناقض بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والمنافشة في البرلمان (٧٦) » . ومزق جيمس في غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التي دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثبتون ، سلدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام في التحالف العسكرى مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له في اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى إنجلترا خائباً ، فيكون أضحوكة أوروبا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسباني غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير في زواجها من أمير بروتستانتى ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى إنجلترا . وقام فيليب ووزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية كمظهر من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتدح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسى لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، في استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبى فيليب أن يلزم نفسه بشئ ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . ولنا لنلمس الجانب الإنسانى في الملك في رسالته إلى شارل (١٤ يونيو ١٦٢٣) : « أنا الآن أعرض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنى سمحت برحيلك . عنى أنا لا أعبأ بالزواج ولا غيره ، طالما أراك بين أحضانى ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى (٧٧) » أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك في إنجلترا

ورعايتهم^(٨٧) . وحيث انجلترا الأمير العائد بوصفه بظلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البندقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانيا وارتركب هذه الخباقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعتمد معها حلف مصاهرة ، وهى لأشارل الزواج من صغرى كريمات هنرى الرابع — وهى هنريتا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكي شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاح على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا . وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مديد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكي ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية ، ولم تكن الكتابات التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكم سلمى بحرب عقيمة .

وتسببته عليه العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصل والنقرس والحصى فى الكلى واليرقان والاسهال والبواسير ، وكان لا بد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى^(٨٨) . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمم بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك (١٦)

يزوه فى النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمة المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حدثها » وغالباً ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيراً من تسامح من خلفوه . وهياً جبه الجرىء للسلام لانهجترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانة ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه « سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلي Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه « أعقل البلهاء فى العالم المسيحى » ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبلة ، ولكنه كان عالماً يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب . إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أو فاتح .

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ - ١٦٤٩

١ - الخرافة .

هل الناس فقراء لأنهم جهلاء ، أم جهـ لاء لأنهم فقراء ؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطرى الموروث فى القدرة العقلية) ، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم وإتاحة الفرصة) . وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة . ومع ذلك فإنه حتى فى البلد المزدهر ازدهارا كبيرا — وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين — نجد أن الفكر يعيش فى متاهة من الخرافات : علم التنجيم ، حساب الجمل (دراسة المعانى السحرية أو التنجيمية للأعداد) ، قراءة الكف ، الأعاجيب ، الحسد ، السحرة ، الغيلان ، الأشباح ، العفاريت ، التعزيم لاستحضار الجن ، التعاويذ والرقى ، تفسير الأحلام ، الكرامات والمعجزات ، الشعوذة والدجل ، الخصائص الخفية ، الشافية أو المؤذية ، للمعادن والنباتات والحيوانات . فلتتدبر إذن الجواهر الخائقة الذى يسمم جذور العلم بثماره ، فى شعب ذى ثروة ضئيلة أو مركزة فى أيدي فئة قليلة . إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين فى قصيدة الحياة ، تضىء أيامهم الكثيرة بالأعاجيب المثيرة ، وتخفف من بوئهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية .

وفى ١٦٤٦ احتاج سير توماس براون إلى ٦٥٢ صحيفة ليعدد ويعالج فى إنجاز الخرافات المنتشرة فى أيامه^(١) ، إن كل هذا الإيمان بالقوى الخفية تقريبا ، نما وازدهر

بين البريطانيين في عهد اليزابث وأوائل عهد آل ستيوارت . ففي ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتاباً يعتبر مرجعاً « الإيمان بالشياطين » وهو من المروعات في الأدب . وفيه ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب والبغض في قلوب الرجال والنساء بعض لبعض ، ونقل المرض من شخص إلى آخر ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية من الشمع ، وإثارة العواطف المدمرة . وبرر عقوبة الإعدام للسحرة والمشعوذين — بل حتى لزبائنهم^(٢) . وعندما كادت زوبعة تودى بحياته في طريق عودته من الدنمرك مع عروسه ، أمر بتعذيب أربعة اشتبه فيهم حتى اعترفوا بأنهم كانوا قد تأمروا على القضاء عليه بوسائل سحرية . وأحرق واحد منهم حتى الموت ، وهو جون فين ، بعد أن عذب تعذيباً وحشياً^(٣) .

وانتفقت الكنيسة الوطنية الإسكتلندية مع الملك في هذا الشأن ، وهدد القضاء المدنيون الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة^(٤) . وفيما بين عامي ١٥٦٠ — ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من النسوة باعتبارهن ساحرات في اسكتلندا التي لم يكن عدد سكانها يبلغ المليون^(٥) . وكاد الاعتقاد في السحر في إنجلترا أن يكون عاماً شاملاً ، وشارك في هذا الاعتقاد أطباء علماء مثل وليم هارفي ونسبر توماس براون . ونصت اليزابث العنيدة في القوانين التي سنتها ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر جريمة عقوبتها الإعدام . وأعدم من أجلها إحدى وثمانون امرأة في عهدها^(٦) . وخفف جيمس السادس من تزمته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة . وفضح الاعترافات والالتمامات الباطلة وأنقذ حياة خمس من النسوة اتهمهن صبي مخبول^(٧) . وكادت المطاردة أن تنقطع بعد اعتلاء شارل للعرش ، ولكنها استؤنفت ، وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم في عامين اثنين (١٦٤٥ — ١٦٤٧) مائتان من السحرة^(٨) .

وفي وسط هذه الموجة العاتية من الضراوة والعنف ارتفع صوت واحد يناشد العقل ويتحكم إليه ، هو ريجنالد سكوت ، وهو إنجليزي على الرغم من اسمه ، وقد نشر في لندن ١٥٨٤ « الكشف عن السحر » . ولم يسبقه إلا جوهان فير في كتابه

« خدعة الشيطان » (بازل ١٥٦٤) في هذه المحاولة الخطيرة ، محاولة التخفيف من الخرافة البالغة القسوة . ووصف سكوت الساحرات بأنهن نسوة عجائز بائسات لا يستطعن الإضرار بأحد ، وأنهن ، حتى لو تصرف الشيطان عن طريقهن ، أولى بالثناء والإشفاق ، أكثر منهن بالإحراق ، وقال إن في نسبة المعجزات إلى هاتيك العجائز الشمطاوات ، امتهاناً لمعجزات السيد المسيح . وفضح سكوت ألوان التعذيب التي جعلت اعترافات السحرة غير ذات قيمة ، وإجراءات المحاكمة المجافية للعدالة ، والمشوبة بالمخالفات والتراخي . والشكوك التي يزدريها القضاة والمحققون . ولكن لم يكن ثمة أثر للكتاب .

وفي هذا الجرح حاول العلم أن يشب على قدميه .

٢ — العلوم

ومع ذلك ، فإن تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم . وكان من العسير أن تتسق النزعات الأفلاطونية والفنية في عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع . واشتدت الحاجة إلى نهج عقلي يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق . قدر ما يعالج النظريات والأفكار . ونشطت تجريبية أرسطو بعد تجريبها من أقنعة الفلسفة الهلينية المتأخرة في الأسكندرية ومن أقنعة فلسفة العصور الوسطى . وقد أفسح توكيد الفلسفة الإنسانية الإيطالية على أمجاد الآداب القديمة وعظمتها ، نقول أفسح الطريق لتركيز أقل دقة في الحاجيات العمالية الراهنة . وكان لزاماً على الناس أن تعد وتحصى ، وأن تقيس وتصمم أو تخطط . في دقة وسرعة تحكها المنافسة واحتاج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل . ونشأت المطالب التي تُمثِّق باختراع اللوغاريتمات والهندسة التمهيلية لحساب المثلثات والآلات . والشهير (الميكروسكوب) . وطرق البصريات ، والموجهات الملاحية . والأجهزة الفلكية ، وتوافرت الحياة في أوروبا الغربية منذ الآن فصاعداً . على مواجهة تلك الحاجيات .

واقترح جون نابير في إسكتلندا ١٦١٤ ، وجوست بورجى في سويسرا ١٦١٠ ، كل على حدة ، اقترحا طريقة للوغاريتمات (أى منطلق الأرقام) يمكن بواسطتها إجراء

عمليات الضرب والقسمة وإيجاد الحدود في سهولة ويسر من الجداول الرياضية (جداول اللوغاريتمات) بأساس معين. وفي ١٦١٦ عدل هنرى بروجز الطريقة من أجل الحساب العادى ، بجعل الأساس ١٠ ونشر جداول تعطى لوغاريتمات الأعداد من ١ إلى ٢٠٠٠٠. وللآن يمكن إيجاد حاصل ضرب عددين ، بأن يستخرج من مثل هذه الجداول العدد الذى يكون لوغاريتمه هو مجموع لوغاريتمى العددين المطلوب ضربهما. كما يمكن قسمة أعلى ب ، بإيجاد العدد الذى لوغاريتمه هو الفرق بين لوغاريتمى أ و ب . (لو أ ب = لو أ - لو ب . وأعد وليم أوترد Oughtred (١٦٢٢) وادموند جنتر (١٦٢٤) مساطر حاسبة يمكن بواسطتها إجراء العمليات الحسابية فى ثوان قليلة . وقد وفرت هذه المخترعات نصف الوقت الذى كان يصرفه الرياضيون والفلكيون ورجال الإحصاء والملاحون والمهندسون ، فى عملياتهم الحسابية ، وأطالت فى الواقع حياتهم^(٩) . ووجه كبلر ، الذى استخدم الطريقة الجديدة فى حساب حركات الكواكب ، مديحاً حماسياً إلى لورد مارشستون (فى إسكتلندة) ١٦٢٠ ، ولم يكن يدرى أن نابيير كان قد قضى نحوه قبل سنوات ثلاث ، وكان نابيير نفسه قد وقع فى خطأ يسير فى التقدير والحساب ، حين حدد أن العالم سينتهى فيما بين عامى ١٦٨٨ و ١٧٠٠ (١٠) .

وظل الرياضيون والفلكيون متكاتفين تكاتفاً وثيقاً من أجل حساب حركات الأجرام السماوية ، وحساب التقويم ، وتطلب توجيه الملاحة بارة معقدة للقياسات الفلكية . ووضع توماس هاريوت ، بوصفه عالماً رياضياً ، الشكل القياسى للجبر الحديث ، وأدخل علامات الجذر «أكبر من» و«أقل من» وأحل الحروف الصغيرة محل الكبيرة القبيحة المنظر ، لتدل على الأرقام ، وعثر مصادفة على الطريقة الناجحة ، وهى وضع كل المقادير فى المعادلة فى طرف واحد ، ووضع الصفر فى الطرف الثانى (المعادلة الصفرية) وبوصفه فلكياً اكتشف البقع الشمسية ، وقام بارساده اتوابع المشتري ، مستقلاً عن جاليليو . إن جورج تشابمان نفسه ، وهو من فحول العلماء ، قدر أن علم هاريوت « لا يباريه فيه أحد ، وأنه لا حدود له (١١) » .

وكان علم الملك لايزال ينضح بالتنجيم . وكان تنجيم « الساعة » يقرر هل تلاثم النجوم . مشروع الساعة أولا تلاثمه . وتنبا التنجيم « الشرعى أو القضاى » بالأحداث عامة ، فى تعميم غامض متسم بالحكمة عادة . أ ١ التنجيم « الطبيعى » فكان يكشف عن قدر الفرد وحظه من برجه — أى اختبار . وقع النجوم ساعة مولده — وكل هذا موجود فى روايات شكسبير (ولو أنه لايدل على إيمانه به) ، وفى أيمننا هذه . وتقول نظرية النجوم بأن القمر يحدث المد والجزر ، والبكاء ، والجنون ، واللصوصية (رواية شكسبير هنرى الرابع ١ — ٢ — ١٥) . وكانت كل علامة فى البروج تتحكم فى طبيعة وفى مصير أعضاء بعينها فى جسم الانسان (الليلة الثانية عشرة الفصل الأول ، ٣ — ١٤٦ — ١٥١) . واستخدم جون دى Dee الروز فى الزمن بادماج التنجيم والسحر والرياضيات والجغرافيا ، واشتغل بالعرفاء البللورية وكتب Treatise of the Rosie Crucean Secrets ، واتهم بممارسة السحر ضد الملكة مارى تيودور (١٥٥٥) ورسم خرائط جغرافية ومائية للملكة اليزابث . واقترح طريقا عبر الشمال الغربى إلى الصين . وابتدع عبارة « الامبراطورية البريطانية » وألقى محاضرات عن اقليدس أمام جواهر غنيرة فى باريس ، ودافع عن نظرية كوبرنيكس ، وأيد استخدام التقويم الجريجورى (قبل أن تروض إنجلترا نفسها على هذه البدعة البابوية بمائة وسبعين عاما) . ومات عن إحدى وثمانين سنة ، وكانت حياة حافلة . وعزز تلميذه توماس دجى Digges تقبل فرضية كوبرنيكس فى إنجلترا ، واستبق فكرة برونو عن الكون اللانهاى (١٢) . واستخدم توماس وأبوه ليونارد دجى « العدسات البللورية » ومن المحتمل أنها كانت بشيرا بظهور التلسكوب . واخترع وليم جاسكوان (حوالى ١٦٣٩) المصغر (الميكرومتر : أداة تستعمل مع التلسكوب أو فى الميكروسكوب لقياس الأبعاد والزوايا البالغة الصغر) الذى مكّن الراصدين من ضبط التلسكوب بدقة لم يسبق لها مثيل . أ ١٠ أرميا هوروكس ، وهو قسيس فقير من لنكشير مات فى سن الرابعة والعشرين ، فقال إن للقمر مدارا بيضاويا . وتنبا — كما رصد (١٦٣٩) لأول مرة سجلها التاريخ — انتقال الزهرة حول الشمس . وساعدت تأملاته فى القوى التى

تحرك الكواكب ، نيوتن فى نظرية الجاذبية الأرضية .

وفى نفس الوقت كانت دراسة المغناطيسية الأرضية تمهد الطريق أمام نيوتن .
فان جورج هارتمان ، وهو من رجال الدين الألمان (١٥٤٤) وروبرت نورمان :
وهو انجليزى يشتغل بصنع البوصلة (١٥٧٦) ، اكتشفا ، كل منهما بمفرده
بعيدا عن الآخر ، انحراف الابرة المغناطيسية ، حين تكون معلقة تعليقا حرا من
مركز ثقلها ، وميلها إلى الانحراف عن الوضع الأفقى إلى وضع يصنع زاوية مع
سطح الأرض . وذهب نورمان فى كتابه « الحديد الجذاب » إلى القول (١٥٨١) .
بأن « عامل الجذب » الذى تنحرف إليه الابرة يقع فى الأرض نفسها (١٣) .

وجاء بعد هذه الطليعة الباهرة ، ولیم جلبرت ، طبيب الزيايىث . وبعد سبعة
عشر عاما من البحث والتجربة — التى اعتمد فى تمويلها على ثروته الموروثة ، كما
عاونته الملكة أحيانا — نشر النتائج التى توصل إليها فى أول مؤلف انجليزى كبير
للعلوم : « فى المغناطيس ... والمغناطيس الأعظم وهو الأرض » (١٦٠٠) . لقد
وضع إبرة بوصلة محورية ، على التعاقب : فى نقط مختلفة ، على حجر مغناطيس
كروى . وسجل بخطوط على الكرة الاتجاهات التى اتجهت إليها الإبرة على التوالى ،
ومد كل خط ليشكل دائرة كبيرة حول الحجر ، ووجد أن كل هذه الدوائر قطعت
الكرة فى نقطتين متقابلتين تماما ، وكان هذان هما القطبان المغناطيسيان اللذان اعتبرهما
جلبرت خطأ ، فى حالة الأرض ، القطبين الجغرافيين . ووصف الأرض بأنها
مغناطيس : مخم ، وفسر ، بناء على ذلك سير الابرة المغناطيسية ، وأظهر أن أى
قضيب حديدى يترك لمدة طويلة فى وضع شمالى جنوبى لا بد أن يصبح مغناطيسا .
والمغناطيس الذى يوضع على أى من قطبي حجر المغناطيس الكروى . يأخذ وضعه
عموديا على الكرة . وإذا وضع فى أية نقطة متوسطة بين القطبين (وهى النقطة التى
تكون خط الاستواء المغناطيسى) يأخذ وضعه أفقيا . وانتهى جلبرت إلى أن انحراف
الإبرة يكون أعظم ، كلما وضعت أقرب إلى القطبين الجغرافيين للأرض . وعلى
الرغم من أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، فقد أكدته تقريبا هنرى هلسن فى اريتياده

المنطقة المتجمدة الشمالية (١٦٠٨) . ومن ملاحظاته الخاصة ، رسم اتجاهات لحساب خط العرض من درجة الانحراف المغناطيسى . وذهب إلى أنه « من حول جسم مغناطيسى تنتشر القوة المغناطيسية فى كل ناحية » . ونسب دوران الأرض إلى تأثير هذا المجال المغناطيسى . وانتقل جيلبرت من هذا إلى دراسة الكهرباء — ولم يكن قد تم فيها شيء يذكر منذ القدم — وأثبت أن ثمة مواد أخرى كثيرة — غير الكهرمان ، يمكن بحكها أن تولد كهرباء بالاحتكاك . ومن اللفظة اليونانية لكلمة Amber (كهرمان) . كون لفظة Electric (كهرباء) لتدل على قوة تحرف الابرّة المغناطيسية . واعتقد بأن كل الأجسام السماوية مزودة بالمغناطيسية ، واستخدم كبلر هذه الفكرة لتفسير حركة الاجرام السماوية . والحق أن معظم عمل جيلبرت كان مثالا يدعو إلى الاعجاب للنهج التجريبي ، وأن آثاره على العلوم والصناعة لا حدود لها .

وظهر تقدم العلوم أكثر إثارة فى جهود النفوس المغامرة أو المولعة بالتحصيل والكسب ، لاكتشاف « المغناطيس الأعظم » لأغراض جغرافية واقتصادية . وفى ١٥٧٦ نشر سير همفري جيلبرت (ولا يمت بصلة إلى وليم جيلبرت) « مقالا موحيا عن طريق جديد إلى الصين » . مقترحا الابحار فى اتجاه الشمال الغربى ، عبر كندا أو حولها . وفى نفس العام أبحر سير مارتن فروبشر بثلاث سفن صغيرة ليكتشف طريقا مثل هذا . وغرقت إحدى سفنه ، وهجر اثنتان ملاحوها ، وسار هوندا بالسفينة « جبرائيل » البالغة الصغر والتي لم تتجاوز حمولتها ٢٥ طنا . ووصل إلى بنف لاند ، ولكن الاسكيمو حاربوه ، فعاد إلى انجلترا طلبا لمزيد من الرجال والمؤن . وانحرفت رحلاته بعد ذلك عن الجغرافيا للبحث عن الذهب دون جدوى ، ثم تمسك جيلبرت بضالته المنشودة ، وهى الطريق الشمالى الغربى إلى الصين . ولكنه أغرق وهو يحاول ذلك (١٥٨٣) . وبعد ذلك بأعوام أربعة اندفع جون دافيز فى المضيق المسمى اليوم باسمه ، وحارب الأرمادا ، ثم انطلق إلى البحار الجنوبية مع توداس كافندش واكتشف جزر فولكلند ، وقتله القراصنة اليابانيون بالقرب من سنغافورة (١٦٠٥) وارثاد كافندش الجزء الجنوبى من أمريكا

الجنوبية وأكمل ثالث طواف حول الكرة الأرضية، ومات في البحر (١٥٩٢)، وسار هنرى هدسن فى نهر هدسن (١٦٠٩) ، وفى رحلة أخرى وصل إلى خليج هدسن ، ولكن بحارته الذين ذهب الصعب بعقولهم ، واشتد بهم الحنين إلى الوطن ، تمردوا عليه ، وأنزلوه هو وثمانية معه فى قارب صغير مكشوف ، (١٦١١) ولم يسمع لهم ذكر بعد ذلك قط ، واكتشفت ولیم بفن الخليج والجزيرة اللتين تحملان اسمه ، وغامر حتى وصل إلى خط عرض ٧٧ر٤٥ — وهو مالم يصل إليه أحد مرة أخرى قبل مضي ٢٣٦ سنة — وكان له امتياز آخر ، وهو إيجاد خطوط الطول لأول مرة برصد القمر . وشهد ريتشارد هاكلوت فى هذه السفن المأخوذة من خشب البلوط فترة من البسالة والرعب تفوق أية الياذة ، ونشر قصصها فى مجلدات ظهرت تباعا ، من أحسن ما عرف منها هو ما نشر تحت اسم « الابحارات الرئيسية ، رحلات الأمة الانجليزية وكشوفها » (١٥٧٩ ، ١٥٩٨ ، ١٦٠٠) ، وزاد صمويل بوركاس فى هذا السجل بكتاب « رحلات بوركاس (١٦٢٥) . وهكذا كان الطمع فى الحصول على الذهب ، والتحمس لمواجهة الأخطار ومشاهدة البلاد البعيدة سببا فى تقدم الجغرافيا دون قصد .

وكان أحسن ما حققه العصر فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا من عمل القارة . أما فى إنجلترا ، على أية حال ، فان سيركنلم دجى Kenelm Digby اكتشف ضرورة الأكسجين لحياة النبات ، كما أيد روبرت فلد Fludd ، وهو متصوف وطبيب ، فكرة التطعيم ، قبل جنر Jenner بمائة وخمسين عاما . واستمرت وصفات الدواء تعتمد على إثارة الاشتىزاز ليكون للأدوية أثرها . وأوصى الدستور الرسمى للأدوية فى لندن ١٦١٨ ، بالمر ، وعصارة النبات (الدم) وتشريط الجلد ، وعرف الديك ، والفراء ، والعرق واللعب وأنعقارب وجلد الثعبان وحمار القبان (حشرة) ونسيج العنكبوت ، على أنها وسائل للعلاج ، وكان فصد الدم أول شيء يلجأون إليه (١٤) — وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الحقبة تفاخر بتوماس بار « بار العجوز Old Parr » الذى قدم إلى شارل الأول ١٦٣٥ ، على أنه يتمتع بصحة جيدة مع أنه كان كما زعموا ، فى الثانية والخمسين بعد المائة من عمره . ولم

يدع بار أنه يعرف سنه على التحقيق ، ولكن ولاية الأمور في أبرشيته دونوا تاريخ ميلاده في ١٤٨٣ ، وادعى أنه التحق بالجيش في ١٥٠٠ ، وتذكر تفاصيل حل الأديار في عهد هنرى الثامن . (١٥٣٦) ، فقال له الملك شارل الأول « لقد عمرت أطول من أى أناس آخرين ، فإذا فعلت أكثر مما فعلوا هم ؟ » فأجاب بار ، بأنه كان عمره فوق المائة حين ضاجع فتاة فحملت ، وأنه كفر عن خطيئته بأشد كفارة . وكان بار قد عاش ، تماماً تقريباً ، على البطاطس والخضر والخبز الخاف واللبن الخفيض ، ونادراً ما ذاق اللحم . ولفترة من الوقت أصبح بار مشهوراً في ردهات لندن وحاناتها ، وكانوا يقدمون له فيها ما لذ وطاب ، حتى أنه مات في بحر عام من لقائه مع الملك . وفحص سير وليم هارفى جثته بعد وفاته فوجد أنه غير مصاب بتصلب الشرايين ، وشخص موته بأنه نتيجة لتغيير الهواء والغذاء (١٥) .

إن هارفى هو الذى هياً لهذا العصر ذروة المحل العلمى بشرحه للدورة الدموية ، وهو « أجل حدث في تاريخ الطب منذ عهد جالينوس (١٦) » . ولد في فولكستون (١٥٧٨) ، ودرس في كمبردج ثم في بادوا على فابريزيو دكوابندانت ، فلما عاد أقام في لندن ومارس الطب فيها ، وأصبح الطبيب الخاص بليمس الأول ثم شارل الأول ، وعكف صابراً مثابراً ، سنين طوالاً ، على إجراء التجارب والتشريح ، على الحيوانات والجثث ، ودرس ، بصفة خاصة تدفق الدم ومجره في الجروح . ووصل إلى نظريته الأساسية في ١٦١٥ (١٧) . ولكنه نشرها ، متأخراً ، في فرانكفورت ١٦٢٨ ، على أنها « تجارب متواضعة في تشريح الجثث ودماء الحيوان » . وهى أول وأعظم أثر في الطب في إنجلترا .

وإن الخطوات التى تدرج فيها الكشف الذى توصل إليه هارفى لتوضيح عالمية العلم . فإن وظائف القلب والدم ، ظلت لأكثر من ألف عام ، تفسر كما فسرها جالينوس في القرن الثانى الميلادى . وكان جالينوس قد افترض أن الدم يتدفق إلى الأنسجة من الكبد والقلب سواء بسواء ، وأن الهواء يمر من الرئتين إلى القلب ، وأن الشرايين والأوردة بها مجريان للدم ، يدفعهما ويستقبلهما القلب ، في حركة مد وجزر ، وأن الدم يجرى من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب عبر

مسام في الحجاب الحاجز بين التجاويف . وعارض ليونارد ودافنسي (حوالى ١٥٠٦) فكرة مرور الهواء من الرئتين إلى القلب ، وأنكر فيساليوس (١٥٤٣) وجود مسام في الحجاب الحاجز . وكشفت رسومه البارعة للشرابين والأوردة عن أن نهاياتها أو أطرافها دقيقة وتلاصقة حتى لا تسكاد توحى بالمرور والدورة . وأوضح فابريزيو أن الصمامات في الأوردة تجعل من المستحيل تدفق الدم الوريدي من القلب . وتلاشت نظرية جالينوس . واكتشف ميشيل سرفيتس (١٥٥٣) ، وريالدوكولومبو (١٥٥٨) ، الدورة الدموية الرئوية — أى مروره من الجانب الأيمن من القلب عبر الشريان الرئوى إلى الرئتين ومن خلالها ، وتنقية الدم هناك بوساطة التهوية ، وعودته عن طريق الوريد الرئوى إلى الجانب الأيسر من القلب . واستبق أندريا سيسالينو (حوالى ١٥٧١) — كما سئى النظرية الكاملة للدورة ، وتحولت النظرية إلى حقيقة واضحة جلية بفضل ما قام به هارفى .

وبينما كان فرانسيس بيكون ، المريض الذى يتولاه هارفى ، يمجّد الاستقراء ، توصل هارفى إلى النتيجة الرائعة عن طريق الجمع اللافت للنظر بين الاستنتاج والاستقراء . إنه بتقديره كمية الدم المنذفع من الباب فى كل انقباض أو تقلص بأنها نصف أوقية سائل ، حسب أنه فى ساعة ، لابد أن يصب القلب فى الشرايين ، ما يزيد على ٥٠٠ أوقية سائل ، وفى كمية تزيد على ما يحتوية الجسم كله ، فمن أين يأتى كل هذا الدم . وبدا من المستحيل أن مثل هذا القدر الكبير يمكن أن ينتج من ساعة إلى ساعة ، من هضم الغذاء . فاستنتج هارفى أن الدم الذى يخرج من القلب يعاد إليه ، وأنه ليس ثمة طريق آخر لهذا سوى الأوردة . وبفضل التجارب والملاحظات البسيطة . وعلى سبيل المثال ، الضغط بالأصبع على أى وريد سطحي — تبين فى الحال وبسهولة ، أن الدم الوريدي تدفق من الأنسجة نحو القلب .

عندما استعرضت مجموعة الشواهد التى لدى ، سواء ما استقيتها من تشريحات الأحياء وتأملاتى فيها ، أو من تجاويف القلب والأوعية التى تدخل إليها أو تخرج منها والتى كثيراً ما أمعنت التفكير فيها بشكل جدى ما عساها تكون كمية

الدم التي تنقل . . . ووجدت من المستحيل أن تكون مستمدة من عصارات الغذاء الذي يدخل إلى الجسم ، دون أن تجف الأوردة تدريجياً ، من جهة ، وأن تنفجر الشرايين لفرط امتلائها بالدم ، من جهة أخرى ، إلا إذا وجد الدم له ، بطريقة ما ، مخرجاً من الشرايين إلى الأوردة ، ومن ثم يعود إلى الجانب الأيمن من القلب . . . أقول إنى عندما استعرضت كل هذه البيانات والشواهد ، بدأت أفكر في أنه يمكن أن يكون هناك ، « حركة ، كما لو كانت في دائرة . . . » . . . والآن يمكن أن أستبيح لنفسى أن ألى بفكرتى عن الدورة الدموية (١٨) .

وتردد طويلاً في نشر النتائج التي توصل إليها ، لما كان يعلم من روح المحافظة التي سادت مهنة الطب في عصره . وتنبأ بأن أى فرد فوق الأربعين لن يقبل نظريته (١٩) . وروى أوبرى « سمعته يقول إنه بعد صدور كتابه : الدورة الدموية ، تدهور تدهوراً شديداً في عمله ، حتى أعتقد السوق أنه قد اختل عقابه (٢٠) . وحتى أثبت مالبيجي Malpighi (١٦٦٠) وجود الأوعية الشعرية التي تحمل الدم من الشرايين إلى الأوردة ، لم تكن دنيا العلم تسلم بأن الدورة الدموية حقيقة واقعة . إن الفكرة الجديدة أضاعت كل مجالات الفسيولوجيا تقريباً وأثرت على المشكلة القديمة ، مشكلة العلاقة المتبادلة بين الجسم والعقل . ويقول هارفى :

إن أى شعور في العقل ، مصحوب بألم أو لذة ، بأمل أو خوف ، هو سبب في إثارة يمتد أثرها إلى القلب . . . وفي كل عاطفة تقريباً . . . تتغير ملامح الوجه ، ويظهر الدم جانياً هنا وهناك . وفي حالة الغضب تنقذ العينان ، ويتقلص الإنسان العين . وفي حالة التواضع تغمر الوجنتان حمرة الخجل . أما في حالة الشهوة فما أسرع ما يتضخم أو ينتفخ العضو بالاسدم (٢١) .

وظل هارفى فى خدمة شارل حتى الخاتمة الألفية التى منى بها الملك تقريبا ، فقد رافقه حين طوحت الثورة بالملك إلى خارج لندن ، كما رافقه فى معركة ادجهل Edgehill ، حيث نجا من الموت بأعجوبة (٢٢) . وفى نفس الوقت نهب الثوار داره فى لندن ، وعبثوا بمخطوطاته ومجموعات التشريح التى كان يحتفظ بها . وربما كان هارفى قد جلب على نفسه عداوة كثير من الناس نظرا لحدة طبعه وآرائه . ولم يعتبر هارفى الانسان « لإقردا ضحفا شريرا كريها » كما قال أوبرى ، وذهب إلى « أننا نحن الأوربيين لم نعرف كيف نسوس نساءنا ونحكمهن ، وأن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يستخدمهن بحكمة (٢٣) . ولما كان محتفظا بنشاطه وحيويته وهو فى سن الثالثة والسبعين ، فانه نشر رسالة فى « علم الأجنة » (١٦٥١) ، نبذ فيها الاعتقاد السائد فى التوالد التلقائى لكائنات دقيقة من أجسام متحللة . واعتقد هارفى « بأن كل الحيوانات حتى هذه التى تنتج صغارها أحياء ، بما فى ذلك الانسان نفسه — تتطور وتخرج من بيضة ، وصاغ عبارة « كل حيوان يخرج من بيضة » . ومات بعد ذلك بست سنين بسبب شلل أصابه ، واهبا معظم ثروته التى تبلغ عشرين ألف جنيه لكلية الأطباء الملكية ، وعشرة جنيهات لتوماس هوبز « رمزا للمحبة » .

٣ — صعود فرانسيس بيكون وسقوطه : ١٥٦١ — ١٦٢١

نحن الآن أمام أكبر عقل وأنشطه وأكثره مدعاة للفخر ، لقد وقفنا على مولده ونسبه ، ودراسته للأدب والدبلوماسية والقانون ، وفقره غير المتوقع ، والتماسه للوظيفة ، دون أن يسمع به أحد ، وتحذيره لصديقه المحسن الخبير المحرم ، ومناقضاته أياه على كرهه منه . ولقد استنفد العلم والمعرفة والطموح كل طاقته ، حتى لم يعد به ميل إلى النساء ، على أنه على أية حال ، كان يحب الشبان (٢٤) . وفى سن الخامسة والأربعين (١٦٠٦) تزوج من أليس برنهام Barnham التى هيأت له ٢٢٠ جنيهات فى العام . ولكنه لم ينجب أطفالا .

وعندما اعتلى جيمس الأول عرش إنجلترا بعث إليه ليكون بكتاب مسرف فى

الزنى والملق ، يعرض فيه نفسه على الملك على أنه صالح لتقلد المناصب وأهل لها ولما كان ابن حامل أختام الملك ، وابن أخ لآل سيسل أو من أبناء عمومهم أو خوؤلهم ، فإنه أحس بأن طول انتظاره للوظيفة الحكومية يعكس شيئا من روح العداء من جانب الوزراء المتربعين على كراسى الحكم ، وربما كانت انتهازيته المتبرمة ، نتيجة ، وفي نفس الوقت سببا في تأخر تعيينه في أحد المناصب . وكان قد خدم بالفعل في البرلمان لمدة تسعة عشر عاما ، دافع فيها عادة عن الحكومة ، واشتهر بسعة الاطلاع ، والفكر البناء ، والعبارة الواضحة الأخاذة . وكان يرسل بين الحين والحين . إلى الملك « مذكرات » تفيض بالآراء السديدة في كيفية النهوض بالتفاهم المتبادل والتعاون بين مجلس العموم واللوردات ، وتوحيد برلمانى انجلترا واسكتلنده ، وإنهاء الاضطهاد الدينى للمخالفين ، وتهدئة أيرلنده باستمالة الكاثوليك فيها ، واعطاء الكاثوليك فى انجلترا مزيدا من الحرية دون فتح الباب للمزاعم البابوية ، وإيجاد وسيلة للتوفيق بين الانجليكانيين والبيوريتانيين . وقرر مؤرخ درس الشئون السياسية فى تلك الحقبة دراسة مستفيضة — قرر « أن تنفيذ هذا البرنامج لم يكن يعنى الا تغيير كل مساوئ النصف الثانى من هذا القرن (٢٥) » . وطرح جيمس هذه المقترحات جانبا على أنها غير عملية فى ظروف التفكير السائدة . واكتفى بضمم ييكون إلى طبقة الفرسان الثلاثمائة الذين وزعهم ١٦٠٣ ، وتذرع ييكون بالصبر وظلى يبنى نفسه .

وعلى الرغم من كل شئ ، فان براعته بوصفه محاميا لم توفر له الغنى والثراء إلا فى شئ من البطء . وفى ١٦٠٧ قدرت ثروته بنحو ٢٤,١٥٥ جنيه (٢٦) . وفى ضيعته التى زودها بكل ألوان الترف ، فى جورهامبرى ، كما هى لها نخبة من العاملين المرتفعى الأجور والسكرتيرين اليقظين مثل توماس هوبز ، نقول انه فى هذه الضيعة استطاع أن ينعم بالجمال والراحة اللتين أحبهما فى حكمة أكثر مما ينبغى ، ورعى صحته بالعمل فى الحديقة التى بنى فى وسطها ركنا فاخرا يأوى إليه ليخلو إلى نفسه يتفرغ إلى الدرس والبحث ، فكتب كما يكتب الفلاسفة وعاش كما يعيش الأشراء ،

اله لم يجد سببا يبرر أن يكون العقل مفلسا ، ويبرر ألا يكون « سليمان » (أى الحكيم) ملكا .

إن يكون لم يطل به الأمد حتى يبلغ الهدف ، فإن الملك جيمس الذى قدره حق قدره آخر الأمر عينه فى ١٦٠٧ مساعدا للنائب العام وفى ١٦١٣ نائبا عاما ، وفى ١٦١٦ عضوا فى مجلس شورى الملك ، وفى ١٦١٧ حاملا للأختام ، وفى ١٦١٨ قاضيا للقضاة . وخلعت عليه ألقاب كريمة جديدة لتزين مواهبه وقدراته : فى ١٦١٨ عين بارون فيرولام الأول ، وفى يناير ١٦٢١ فيكونت سانت ألباز . ولما غادر جيمس إنجلترا إلى اسكتلندة ، ترك قاضى قضائه ليحكم البلاد . « واستقبل بكون السفراء يحف به الجلال والعظمة » وعاش فى جورهامبرى ثموة الفخامة والأبهة « حتى بدا أن البلاط الملكى هنا (فى قصر جورهامبرى) ، وليس قصر هويتول أو فى قصر سان جيمس (٢٧) » .

لقد حظى بكون بكل شىء إلا الشرف . فى سعيه وراء المناصب كثيرا ماضى بالمبادىء ، فاستغل نفوذه ، كمساعد للنائب العام ، لاصدار الأحكام القضائية على الصورة التى يرغب فيها الملك (٢٨) ودافع ، وهو حامل للأختام الملكية ، عن أشد الاحتكارات تعسفا وظلما ، وحماها ووضح أنه فعل هذا ابقاء على رضا بكنجهام . وقبل ، وهو قاض ، هدايا ثمينة من المتقاضين أمام محكمته . ولم يكن كل هذا إلا شيئا من فساد هذا العصر ورخاوته ، ان الموظفين العامين كانوا يتقاضون رواتب هزيلة ، فعوضوا عنها « بالهدايا والعطايا » ممن يساعدونهم . واعترف جيمس قائلا : إذا كان لا بد لى من معاقبة الرشوة ، لما تركت واحدا من الرعايا » . ان جيمس نفسه كان يقبل الرشوة (٢٩) .

وثارث ثائرة البرلمان الذى اجتمع فى يناير ١٦٢١ ضد الملك — وكره بكون ، لأنه أكبر مدافع عنه ، وأنه هو الذى قضى بشرعية الاحتكارات ، وإذا لم يكن فى مقدور البرلمان بعد أن يخلع الملك ، فان فى مقدوره تخرج وزيره ومساءلته . وفى فبراير عين لجنة لتقصى الحقائق فى دور القضاء خاصة . وفى مارس قامه لجنة تقريراً

أثبتت فيه أنها وجدت مخالفات كثيرة ، لاسيما في تصرفات قاضى القضاة وسلوكه ، وأتهمته بثلاث وعشرين حالة محددة من حالات الفساد . وأهاب بيبكون بالملك أن ينقله ، متنبأ بأن « هؤلاء الذين يطعنون قاضى القضاة الآن ، سرعان ما يطعنون التاج بعده (٣٠) » . وأشار عليه جيمس باقرار الاتهام ، ومن ثم يضرب مثلاً يحول دون الفساد في الوظائف العامة مستقبلاً ، وفي ٢٢ أبريل أرسل بيبكون اعترافاً إلى مجلس اللوردات . وسلم بأنه أخذ هدايا من المتقاضين ، كما فعل سائر القضاة ، وأنكر أن أحكامه تأثرت بها — فانه كان قد أصدر في قضايا كثيرة أحكاماً ضد مقدمى الهدايا ، وحكم عليه مجلس اللوردات « بدفع غرامة قدرها أربعون ألفاً من الجنيهات . وبالسجن في برج لندن لمدة يرضها الملك ، ولا يكون له إلى الأبد الحق في تولي المناصب العامة ، وألا يدخل البرلمان في الدولة بأسرها » . وسبق في ٣٠ مايو إلى برج لندن ، ولكن أفرج عنه بعد أربعة أيام بأمر من الملك الذى ألغى كذلك الغرامة التى تبهظ كاهله . وآوى قاضى القضاة المعاقب إلى جورهامبرى ، وحاول أن يحيا حياة أكثر بساطة . ووجد راوى Rawley وهو أول من كتب سيرة حياة بيبكون — على ورقة كتبها عند وفاته ، بالرمز « كنت أعدل قاض في إنجلترا في هذه السنوات الخمسين ، ولكنه كان كذلك أعدل تزريع من البرلمان في هاتين المائتين من السنين » (٣١) وكانت لهذا الاتهام والمحاكمة آثار طيبة ؛ ذلك أنها خففت من الفساد في الوظائف العامة ؛ ولاسيما في دور القضاء ، كما وضعت سابقة مسئولية وزراء الملك أمام البرلمان . كما أنها صرفت بيبكون عن ميدان السياسة ، الذى كان فيه متحرراً في التفكير ؛ رجعياً في التنفيذ ؛ وردته ثانية إلى مجال بديل ؛ هو مجال العلم والفلسفة حيث أمكنه « أن يدق الناقوس لتجتمع العبقريات معا » وأن ينادى في نثر رائع بثورة العقل ومنهجه .

٤ — التجديد الكبير

كانت الفلسفة لأمد طويل ، الملجأ الذى يلوذ به بيبكون هرباً من عناء العمل ، لأن لم تكن حبه الدين الذى يطوى عليه جوانحه ، وأسعد ما يصبو اليه ويقبل عليه ؛ وكان بالفعل قد نشر في ١٦٠٣ — ١٦٠٥ مؤلفاً عظيماً The Proficiency (١٧)

and Advancement of Learning (إتقان المعرفة والمهوض بها) ولكن بدا له أن هذا مجرد برنامج تمهيدى وليس انجازا . وفى ١٦٠٩ كتب إلى أسقف إلى Ely : أرحو أن يأذن الله لى فى أن أكتب كتابا مستفيضا منصفيا فى الفلسفة ... (٢٢) » ، وفى ١٦١٠ كتب إلى كازوبون (عالم لاهوتى وكاتب فرنسى معاصر له) : « إن ما أهدف إليه هو أن أحدث تنظيما أفصل لحياة الانسان ... بفضل التأمل الصحيح الصادق (٢٣) » .

وفى أثناء السنوات التى أزعمته فيها المناصب ، كان ييكون قد أبصر — فى افتراض طائش فى أيام السعة والثراء — بخطة وقورة لتجديد العلم والفلسفة . وقبل سبعة شهور من سقوطه ، أعلن الخطة فى كتاب باللاتينية موجه إلى كل أوربا ، أسماه فى جرأة « التجديد الكبير » . وكانت صحيفة العنوان نفسها تحديا ، ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعته أعمدة هرقل إلى الأطلسى ، ووضع بين الأعمدة أحد شعارات العصور الوسطى « لا تذهب إلى أبعد من ذلك » وكتب ييكون « إن كثيرين سوف يمرون عبره ، ولسوف تزداد المعرفة والعلم » . وأضافت المقدمة المزهوة « إن فرانسيس فيرولام (ييكون) قد تدبر هذا بينه وبين نفسه ، وحكم بأنه من مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة أن تتعرف على أفكاره (٢٤) » .

ولما وجد أن « مايجرى فى مجال العلم الآن ليدى إلا مجرد دوران حواه ، وحركة دائبة تنتهى إلى حيث تبدأ ، خلص إلى أنه » :

ليس ثمة إلا سبيل واحد أمامنا وهو أن نحاول الأمر كله من جديد ، وفق خطة أفضل ، وأن نشرع فى أن نقيم من جديد ، إقامة تامة ، صرح العلوم والفنون العملية ، وكل المعرفة الانسانية ، على أساس سليم
وفضلا عن ذلك فإنه لما لم يكن يعلم كم من الزمن قد ينقضى قبل أن تيسر هذه الأفكار لأحد غيره فإنه

عقد العزم على أن ينشر على الفور كل ما يستطيع انجازه ،
حتى يبقى ، في حال وفاته ، موجزا أو خطة لما كان قد
فكر فيه . إن كل المطامح بدت لناظريه هزيلة ضئيلة
إذا قورنت بالعمل الذي هو بصدد (٢٥) .

وجعل إهداء المشروع برمته إلى جيمس الأول مع رجاء المعذرة « لأني سرقت
من الوقت المخصص لانجاز المهام التي وكلتها إلى ، وقتا اقتضاه هذا العمل » ،
ولكن مع أكبر الأمل في « أن يكون في نتيجته تخليد للذكرى اسمك وتشريف
لعهدك » — وهذا ما حدث ، فان جيمس كان رجلا معروفا بسعة الاطلاع والنوايا
الطيبة ، فلو أمكن اقناعه بتمويل الخطة ، فأى تقدم كان يمكن تحقيقه ؟ وكما كان
روجر بيكون قد أرسل قبل ذلك بزمان طويل (١٢٦٨) إلى البابا كليمنت الرابع
« العمل العظيم » يلتبس منه العون على تنفيذ اقتراح بالتهوض بالعلم والمعرفة ،
فان سمية أهاب الآن بالملك أن يأخذ على عاتقه « مهمة ملكية » هي تنظيم البحث
العلمي ، والتوحيد الفلسفي لنتائجه ، من أجل الخير المادي والأدبي للجنس البشري.
وذكر جيمس « بالملوك الفلاسفة » — نرفا ، تراجان ، هادريان ، أنطونينوس ،
بيوس ، ماركوس أوريليوس ، الذين هيأوا للإمبراطورية الرومانية حكومة فاضلة
لمدة قرن من الزمان (٩٦ — ١٨٠) بعد الميلاد . فهل كان من أجل حاجته إلى
الاعتمادات الحكومية وأمله في الحصول عليها ، أنه أيد الملك بمثل هذا العناد
والاصرار ، وبشكل جر عليه الخراب ؟ .

وفي مقدمة أخرى طلب بيكون من القارئ أن يلتقي نظرة على العلم السائد وقد
هلهلته الأخطاء ، وركد بشكل مخز . لأن :

« العباقرة العظام ، على تعاقب العصور ، كانوا يرغبون
على الانحراف عن طريقهم ، إن الرجال ذوي القدرة
والفكر ، فوق مستوى السوق ، كان يسرهم ، من أجل
الشهرة ، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجهالين ، وهكذا

فإن أى تفكير من مستوى رفيع ظهر فى أى مكان ، كانت تعصف به رياح الأفكار السوقية (٢٦) .

ولكى يهدىء من روع رجال اللاهوت الذين كانوا متساطين على الشعب أو الملك ، فإن سيكون حذر قراءه من أن « يقصروا معنى » ما يضطلع به « فى حدود الواجب ، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية » . وتنصل من أى قصد له فى التعرض للعقائد أو الشئون الدينية . « إن المهمة التى بين يدي ليست رأيا يجب اعتناقه ، بل هى عمل يجب اقيام به . . . لافى لا أكد وأنصب فى وضع أساس أى مذهب أو نظرية ، بل أساس منفعة الانسان وقوته (٢٧) » . واستحث الآخرين أن يقبلوا عليه وينضموا إليه فى عمله ، ووثق فى أن الأجيال المتعاقبة ستواصله .

وفى نشرة تمهيدية رائعة عرض سيكون خطة للمشروع :

فأولا ، يمكن أن يحاول تصنيفا جديدا للعلوم القائمة أو المرغوب فيها ، ويفرد لها مسائلها ومجالات البحث فيها ، وهذا هو ما أنجزه فى ” النهوض بالمعرفة ” ، الذى ترجمه ووسع فيه فى كتاب (التوسع فى العلوم) ١٦٢٣ ، حتى يصل إلى القراء فى القارة .

ثانيا : ، يمكن أن يتحصن مواطن الضعف فى المنطق المعاصر ، ويسعى إلى ” استغلال أدق وأكمل للعقل البشرى ” مما صاغه أرسطو فى رسائله المنطقية ، المعروفة فى جملتها باسم Organon ، وهذا ما فعله ليكون فى كتابه Novum Organum (١٦٢٠) .

ثالثا : يمكن أن يشرع فى ” تاريخ طبيعى ” لظواهر الكون “ — اقلك ، الفيزياء ، البيولوجيا .

رابعا : يمكن أن يعرض فى ” سلم الفكر ” نماذج من التحقيق العلمى ، طبقا لطريقته الجديدة .

خامسا : يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء ، بوصفها بشائر ، ” كما كشفتها أنا بنفسى ” .

سادسا : يمكن أن يشرع في تفسير تلك الفلسفة التي تعقبها في مختلف العلوم على هذا النحو ، ومن ثم يجب إيضاحها وإثبات صحتها . « ان اكمال الجزء الأخير . . . فوق طاقتي وأكثر مما أصبو إليه » . ويبدولنا ، نحن الذين نتخبط ونلهث اليوم في خضم المعرفة والتخصصات ، ان برنامج يكون عقيم أشد العقم . ولكن المعرفة لم تكن آتئذ بمثل هذه السعة والدقة ، وأن روعة الأجزاء التي أنجزت لتغفر جراءة الكل . وعندما أفضى ببيكون إلى سيسل بقوله « انى ضمنت كل المعرفة إلى نطاق ولايتي » ، فإنه لم يكن يقصد أنه في مقدوره أن يستوعب كل العلوم تفصيلا ، ولكنه قصد أن يستعرض العلوم ، وكأنما يمسخها أو يلقى عليها نظرة عامة « من عل » ، بغرض تنسيقها وتشجيعها . وقال وليم هارفى عن ببيكون إنه « كتب الفلسفة ، على نهج قاضى القضاة فى الكتابة (٢٨) » ، بل وخططها كما يخطط القائد الامبراطورى معركة .

وانا لندرك اتساع مجال العقل وحدة الدهن عند ببيكون إذا نحن تتبعناه فى كتاب «النهوض بالمعرفة» ، لأنه يعرض أفكاره فى تواضع غير مألوف ، على أنها « ليست أفضل كثيرا من الصوت ... الذى يحدثه الموسيقيون حين يضبطون آلاتهم (٢٩) » . ولكنه يعزف هنا كل نغماته المميزة ، إنه يدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية ، وتدعيمها جميعا ، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين ، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية ، وإلى اتصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوروبا (٤٠) . انه ، فى تقديسه أو عبادته للعلم ، لم يفقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة ، فهو يدعو إلى تعليم عام متحرر ، يشمل الأدب والفلسفة ، لأنه يهيم للوصول إلى حكم سليم على الغايات التى تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمي (٤١) . وهو يحاول أن يصنف العلوم فى ترتيب منطقي ، ويحدد مجالاتها وحدودها ويوجه كلا منها إلى أمهات المسائل التى تنتظر الفحص والحل وتحقق كثيرا من مطالبه عن طريق العلوم — تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض ، إطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية ، الفحص الدقيق « للظواهر النفسية » ، والنهوض بعلم

النفس الاجتماعى . حتى لقد استبق دراستنا المعاصرة فى وسائل النجاح (٤٢) .

أما القسم الثانى والأكثر جراءة من « التجديد الكبير » فكان محاولة لصياغة منهج للعلم . لقد عرف أرسطو الاستقرار ، ودعا اليه أحيانا ، ولكن الأسلوب الغالب فى منطقته هو الاستنباط ، والمثل الأعلى فيه هو القياس . وأحس بىكون بأن المنهج القديم Organon قد أبقى العلم راكدا ، بتوكيده على الفكر النظرى أكثر منه على الملاحظة . الواقعية . أما « المنهج الجديد » فقد عرض فيه بىكون نظاما وأسلوبيا جديدين للفكر — الدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها ، عن طريق الخبرة والتجربة . وهذا الكتاب أيضا ، ولو أن بىكون تركه دون أن يكمله ، وعلى الرغم من كل عيوبه ، هو أروع إنتاج فى الفلسفة الانجائزية ، وأول دعوة صريحة واضحة إلى عصر العقل . ولقد كتب باللاتينية ، ولكن فى عبارات مشرقة بليغة ، جرى نصفها مجرى الحكم وجوامع الكلم . إن السطور الأولى جمعت أطراف فلسفة . . . تعلن الثورة الاستقرائية ، وتؤذن أو تنذر بالثورة الصناعية ، وتضع مفتاح التجريبية فى يد هوبز ولوك ومل وسبنسر .

إن الانسان بوصفه خادما للطبيعة ومفسرها ، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير، والكثير حقاً من مجرى الطبيعة ، مادام قد لاحظ الطبيعة واقعيا ، أو بفكره . . . أما ما وراء هذا فهو لا يستطيع أن يدرك شيئا أو يعمل شيئا . إن المعرفة الانسانية والقدرة البشرية تلتقيان فى الانسان الواحد ، وحيثما لا يعرف مجرى الطبيعة ، لا يمكن إنتاج الأثر المطلوب . ولكى تسيطر على الطبيعة . ينبغى أن تمثل لها (*)

وكما اقترح ديكرارت بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، فى « بحث فى المنهج » : أن يبدأ الفيلسوف بالشك فى كل شيء ، فإن بىكون هنا يتطاب تنقية الفكر « كخطوة أولى فى التجديد » . ذلك أن « المعرفة الانسانية كما نعهدها فى انفسنا ، ان هى إلا خليط وأكاداس

(*) العبارة المشهورة « المعرفة قوة » لا ترد بهذه الصيغة فى مؤلفات بىكون الوجودية الآن . ولكن فى نبذة من « التأملات المقدسة » كتب يقر « المعرفة اقسطها قوة » (٤٣) والفكرة ، بطبيعة الحال ، سائدة فى كل كتابات بىكون .

لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السداجة وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الأفكار الصبغانية التي تشربناها في أول الأمر (٤٤) . ومن ثم يجدر بنا ، منذ البداية ، أن نخلى أذهاننا ، قدر الطاقة ، من أية انشغالات سابقة وتحيزات وافتراضات ، بل يجدر بنا حتى أن ننصرف عن أفلاطون وأرسطو ، ونكتسح من أفكارنا « الأصنام » أو الأوهام الخالدة التي ولدها فينا فرط الحساسية في الحكم على الأشياء أو المعتقدات والتعاليم التقليدية السائدة في مجتمعاتنا ، ويجب أن نفلد الحيل المنطقية التي يملها التفكير لمجرد الرغبة في شيء ما ، والحقائق اللفظية للتفكير الغامض ، ويجب أن نخلف وراء ظهورنا ، كل طرق الاستنباط الفخمة ، تلك الطرق التي عرضت أن نستنبط ألفاً من الحقائق الباطنة من بضع بديهيات أو مبادئ قليلة . وليس في العلم قبة سحرية ، وكل ما يؤخذ من القبة لخدمتنا يجب أن يوضع أولاً عن طريق الملاحظة أو التجربة . ولكن لا يقصد هنا مجرد الملاحظة العابرة ، أو « السرد البسيط » للمعطيات ، ولكن « الخبرة المطلوبة للتجربة » . وعلى هذا نجد أن يكون الذي غالباً ما انتقص من قدره على أنه يتجاهل المنهج الحقيقي للعلم ، يتقدم ليصف المنهج الفعلي للعلم الحديث :

إن المنهج الصحيح للاختبار ، يشعل النور أولاً (بالافتراض) ، ثم بوساطة هذا الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيباً سليماً . ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » ، (النتائج المؤقتة) ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة نفسها هي التي تستقر وتحكم (٤٥) .

ومهما يكن من أمر فإن يكون كان على حذر من الفرضيات . حيث كانت في الكثير الغالب توحى بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة ، أي توحى بها (مرة أخرى) « الأصنام » . فكان يرتاب في أي نهج تقليدي تصطفي الفرضية فيه ، قصداً أو عن غير قصد من التجريب معطيات مثبتة أو مؤكدة لها ، وتفسر تفسيراً خاطئاً أو تتعاضد عن الشواهد العكسية أو المضادة . وتجنباً للوقوع في هذا الشرك ، اقترح ليكون استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها

وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم « بعملية صحيحة من « الاستبعاد والنبد » أى التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، حتى يمكن الكشف عن « الصيغة » أو القانون الأساسى الضمنى وجوهر الظاهرة (١٦) . إن معرفة « الصيغة » سوف يهيئ تحكماً متزايداً فى الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وأحسن سيكون بأن هذا هو الهدف النهائى — أى أن منهج العلم سوف يطبق على التحايل البالغ الدقة للشخصية الإنسانية ، والصميم على إعادة تشكيلها . ويحث ليكون على دراسة الغرائز والعواطف ، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر (١٧) . ولكن هنا بصفة خاصة ، لا يكون الخطأ فى مجرد التماس المعرفة ، بل فى نقلها . ويمكن إعادة صنع الإنسان عن طريق التعليم المستنير ، لو أننا كنا نريد أن تجذب إلى ميدان التربية عقولا من الطراز الأول بمنهجهم الرواتب الكافية وتكريمهم (١٨) . ويبدى ليكون إعجابه بالجزويت ، وتمنى لو أنهم « كانوا على مذهبنا وفى صفنا » (١٩) ، ويستنكر المخصصات ، ويحبد التمثيل فى الكليات ، ويدعو إلى مزيد من العلم فى البرامج ، فلماذا نظارنا إلى العلم والتعليم على هذا الأساس ، فإنهما (كما جاء فى « قارة أطلنطس الجديدة » لن يكونا من خدم الحكومة وأدراهما . بل مرشدها وهدفها ؛ ويختتم قاضى القضاة الأمين بقوله « لى أراهن بكل شئ فى سبيل نصرة الفن على الطبيعة فى سباقها » .

٥ — فلسفة رجل الدولة

هنا نحس بعقل جبار آتى — رجل واحد على مدى قرن ، متمكن من الفلسفة ومن السياسة على حد سواء . وقد يشوقنا أن نقف على تفكير الفيلسوف فى السياسة ، وتفكير السياسى فى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه كان لىكون منهج فى الفلسفة ، وأنه ترك عرضاً حسن الترتيب لفكره ، باستثناء المنطق ، فإن اتجاه أفكاره كان واضحاً ، ولو أنها اتخذت شكلاً يدل على رجل كان لازماً عليه كثيراً أن يخرج عن هدوء الفلسفة لينظر فى قضية

قانونية ، أو ليقف في وجه المعارضة في البرلمان ، أو ليمحض رأى والنصح ملكاً لا يجدى معه الرأى والمشورة . ويجدر بنا أن نجمع آراءه من تعليقاته العابرة ومن نبذه الأدبية ، بما في ذلك « مقالاته » (١٥٩٧ ، ١٦١٢ ، ١٦٤٥) . وفي إهدائه هذه المقالات إلى بكنجهام ، وفي غرور صناعة الكتابة ، كتب بكون ، « إلى أرى أن الأثر قد يبقى ما بقيت الكتب » . وكان أسلوبه في رسائله متكلفاً ملتوياً ، حتى لقد اعترفت زوجته : « إلى لا أفهم كتابته الملفوفة المليئة بالألغاز (٥٠) » . وبذل في « المقالات » جهداً أكبر ، وراض قلمه على الوضوح ووصل إلى قوة هائلة في التعبير ، لا تباريه فيها إلا صحائف معدودة في النثر الانجليزى ، من حيث المادة ذات المغزى الهام الزاخرة بالتشبيهات المشرقة الواضحة في صياغة دقيقة ، وكأنما أولع تاسيتس (مؤرخ روماني — القرن الأولى الميلادى) بالفلسفة ، وتنازل ليكون واضحاً .

إن حكمة بكون دنيوية إنه ينصرف عن الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) إلى الخفى أو الطائش من الأمور ، وقليل ما قفز طموحه الوثاب من الجزء إلى الكل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أحياناً أنه يخوض في مادية حتمية : « لا يوجد في الطبيعة حقاً ، شئ عدا الأجسام الفردية التى تؤدي أعمالاً فردية صرفة طبقاً لقانون محدد (٥١) » . وإن البحث في الطبيعة لباتى بأحسن النتائج حين يبدأ بالفيزياء وينتهى بالرياضيات (٥٢) ولكن " الطبيعة " هنا قد تعنى العالم الخارجى . لقد أثر بكون الفلاسفة المتشككين قبل سقراط ، على أفلاطون وأرسطو . وامتدح ديموقريطس الفيلسوف المادى (٥٣) . ولكنه حينئذ يرتضى تمييزاً دقيقاً بين الجسم والنفس (٥٤) ، ويستبق انتقاد بيرجسون للفكر على أنه « مادى أساسى » . إن إدراك الإنسان يتأثر برؤية ما يجرى في الفنون الميكانيكية ومن ثم يتخيل أن شيئاً شبيهاً بهذا يجرى في الطبيعة الأشياء (٥٥) » . ويرفض مقدماً البيولوجيا الميكانيكية عند ديكارت .

ومع ما يعتمل في نفسه من عواطف متصارعة نحو الدين ، نراه « يتبل » في حرص ، فلسفته « بالدين ، وكأنما يتبل بالملح (٥٦) » « الأفضل عندى أن أصدق الخرافات التى

في حياة القديسين وفي التلمود وفي الكتب المقدسة ، على أن يكون هذا العالم بلا عقل (٥٧) » . ويضع الالحاد في مكانه في قطعة تكررت مرتين (٥٨) . وإن تحليله لأسباب الالحاد لتوضح فكرة هذا الكتاب : —

إن أسباب الالحاد هي الانقسامات في العقيدة ، إذا كانت كثيرة ، لأن أي انقسام أساسي يلهب حماسة الفريقين كليهما وغيرتهم ، ولكن الانقسامات الكثيرة تفود إلى الالحاد ، وثمة سبب آخر ، وهو أعمال القس الخزية . وأخيراً ، عصور المعرفة ، وخاصة إذا سادها السلم والرخاء ، فإن الماعب والعداوات تزيد في اتجاه عقول الناس إلى الدين (٥٩) .

إن بيكون يؤكد قاعدة أن ” الدين يحد من كل ألوان المعرفة (٦٠) “ . وطبقاً لما رواه قسيسه راوولي « كان يذهب كثيراً إلى الصلاة في الكنيسة ، إذا سمحت ظروفه الصحية » ولقى ربه على العقيدة الصحيحة للكنيسة الانجمازية » (٦١) وعلى الرغم من ذلك ، فانه أفاد ، مثل خلفه العظيم وليم أوكهام ، من التمييز بين الحقيقة اللاهوتية والحقيقة الفلسفية ، فقد يحسك الدين بمعتقدات لا يمجده العلم والفلسفة عليها دليلاً ، ولكن الفلسفة يجب أن تعتمد على العقل فقط ، كما أن العلم ينبغي أن يلتزم تفسيرات دنيوية صرفة ، على أساس سبب ونتيجة ماديتين (٦٢) .

وعلى الرغم من تحمس بيكون للمعرفة ، فانه يخضعها أو يضعها في المحل الثاني من الأخلاق . فليس ثمة نفع للإنسانية إذا لم يؤد التوسع في المعرفة إلى الخير . « إن طيبة النفس هي أهم مزايا العقل ومنازله الرفيعة (٦٣) » ومهما يكن من أمر فان حماسه المألوفة تفر حين يتحدث عن الفضائل المسيحية . ومن الواجب ممارسة الفضيلة باعتدال ، لأن الأشرار قد يخذعون الاختيار غير الحكام (٦٤) . وقليل من الخدع أو الرياء ضروري للنجاح ، إن لم يكن المدنية . والحب ضرب من الجحون ، والزواج نوع من الشرك أو الفخ : « إن الذي له زوجة وأولاد ، يضع عقبات في سبيل النجاح ، لأنهم عوائق في سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة

إن أفضل الأعمال وأعظمها أثرا على الناس نبتت من إناس ليس لهم زوجة ولا أولاد . ” وأقر بيبكون — مثل اليزابث وهلدبراند — عزوبة رجال الدين .
إن حياة العزوبة تصلح لرجال الكنيسة ، لأن الصدقات لا تكاد تروى الأرض ،
إذا كان لزاما عليها أولا أن تملأ بركة (٦٥) ” (لاحظ نزعته إلى الاستعارة والمجاز
والإيجاز الأنجلوسكسوني) . إن الصداقة خير من الحب : وإن المتزوجين ليكونون
صدقات غير مستقرة . إن بيبكون يتكلم عن الحب والزواج بأسلوب رجل ضحى
بالعواطف الرقيقة في سبيل الطمّوح ، ورجل أمكنه أن يحكم مملكة أفضل من أن
يحكم بيته .

أما فلسفته السياسية فقد واجهت حالات وظروفا أكثر مما واجهت نظريات .
وأوتى من الشجاعة ما امتدح معها ما كيا فلي . وارتضى صراحة المبدأ القائل بأن
الدول ليست مقيدة بالقانون الأخلاقي الذي تلقنه لرعاياها . وأحس — مثل نيتشه ،
بأن الحرب الجيدة ترحب بأي سبب ، » ويجب ألا نستمع إلى رأى أساتذة وفلاسفة
العصور الوسطى الذي يقول بأنه ليس من العدل أن تشن الحرب إلا إذا سبقها
وقوع الضرر أو الاستفزاز ... إن الخوف الحقيقى من خطر محدد ، ولولم تحدث
آية ضربات ، سبب مشروع للحرب . » وفى أية حادثة « فإن الحرب العادلة
الشريفة هى الطريقة المثلى » للمحافظة على الأوضاع السليمة للأمة (٦٦) . وإنه لمن
أقصى درجات الأهمية ، من أجل الامبراطورية والعظمة ، أن تؤمن الأمة بأن
« سلاحها هو مناط شرفها ، وهو هدفها وشغلها الشاغل » . والبحرية القوية ضمان
لاحترام الجيران . « والسيادة على البحار هى الرمز الحقيقى للملكية (٦٧) » . وفى
شباب الدولة تزدهر الأسلحة ، وفى وسط عمر الدولة ، تزدهر المعرفة ، ثم تزدهر
الأسلحة والمعرفة كلتاهما معا لفترة من الزمن ، وفى عصر اضمحلال الدولة تنتعش
الأعمال التجارية والتجارة (٦٨) . وسكان المدن محاربون ضعاف ، والفلاحون أو
القرودون أفضل منهم فى الحرب ، ولكن صغار ملاك الأرض الأحرار أفضل
الجميع . ومن ثم فإن بيبكون — مثل مور ، استنكر المساحات الزراعية الكبيرة

المسورة ، لأنها تقلل من نسبة ملاك الأراضي في السكان . واستنكر تركيز الثروة على أنه سبب هام من أسباب الفتن والثورات :

وأول علاج أو مانع لهذه ، هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة ، السبب المادى . . . وهو الحاجة والفاقة . . . ونهتم بكل ما يخدم التوسع في التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة والقضاء على الخمول ، والتبديد والتبذير ، بسن قوانين الحد من الانفاق وتنظيمه . وتحسين التربة وعدم إرهاقها وتحديد أسعار الحاجيات المبيعة وتخفيف الضرائب . . . وفوق هذا كله ، انتهاج سياسة حكيمة في عدم تجميع ثروات الدولة . وأموالها في أيدي قليلة . . . إن المال مثل السماد ، لاخير فيه ، إلا إذا انتشر (٦٩) .

وارتاب بيكون في البرلمان ، بوصفه مشكلا من ملاك الأراضي والتجار غير المتعلمين المتعصبين أو وكلائهم ، وفكر في أن جيمس الأول ، بالمقارنة بهؤلاء ، متعلم يتحلى بروح إنسانية ، بل إن نظرية الملك في " الحكم الاستبدادى المطلق " بدت في نظره خيرة كبديل عن الزمر الجشعة والمذاهب العنيفة . واعتبر — مثل معاصره ريشيليو — أن تركيز السلطة في يد الملك ، وانخضاع كبار ملاك الأراضي له ، خطوة ضرورية لإقامة حكومة منظمة . وذهب ، مثل فولتير : إلى أن تعليم رجل واحد أيسر من تعليم الجماهير . إن الثروة الهائلة الخاصة لم تزعج الملك . وكان جيمس مشدودا في عناد بالغ إلى التبذير والضرائب والسلام .

وسخر بيكون من « الفلاسفة » الذين « يسنون قوانين خيالية لدول خيالية » ، إن مقالاتهم أو محاضراتهم ، كالنجوم التي لا تعطى إلا قليلا من الضوء لأنها على ارتفاع شاهق . ولكنه في أيام سأمه ، أغرى بأن يصور نوع المجتمع الذى يريده للناس ليعيشوا فيه . ولاريب في أنه كان قد قرأ " يوتوبيا " مور (١٥١٦) ، وكان كامباللا قد نشر لنوه كتابه " مدينة الشمس " (١٦٢٣) ، والآن في ١٦٢٤

كتب بيكون " القارة الجديدة " (The New Atlantis) " أبحرنا من بيرو التي كنا قد قضينا فيها سنة كاملة إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبي " : هدوء تام ، أرزاق محدودة ، جزيرة تحوطها العناية الإلهية ، شعب يحيا حياة سعيدة في ظل قوانين سنّها لهم المغفور له الملك سليمان . وبدلا من البرلمان . مجلس سليمان — مجمعة من المراسد والمعامل والمكتبات وحدائق الحيوان والنبات ، مزودة برجال العلم ورجال الاقتصاد والفنيين والأطباء وعلماء النفس والفلاسفة ، مختارين (كما هو الحال في جمهورية أفلاطون) بعد اختبارات متكافئة بعد فترص تعليمية متكافئة ، ثم (دون إجراء انتخابات) يحكمون الدولة ، أو بالأحرى ، يحكمون الطبيعة ، لمصلحة الانسان . ويشرح أحد هؤلاء الحكام للمتبررين القادمين من أوروبا فيقول : " إن غاية مؤسستنا هي معرفة أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع حدود " امبراطورية الانسان ، من أجل التأثير في كل الأشياء الممكنة (٧٠) " ، وفي هذه " الفتنة " التي تقع في جنوب المحيط الهادئ اخترع سحرة سليمان بالفعل الميكروسكوب والتلسكوب والساعات الذاتية الملء ، والغواصات والسيارات والطائرات ، واكتشفوا المسكنات والتنويم المغناطيسى ، ووسائل المحافظة على الصحة وإطالة العمر ، ووجدوا طرق تطعيم النبات وتوليد أنواع جديدة ، وتحويل المعادن الحسيسة إلى معادن نفيسة . ونقل الموسيقى إلى أماكن بعيدة . وفي مجلس سليمان ترتبط الحكومة والعلم معا . وكل الأدوات وتنظيم البحث ، وهو ماكان بيكون قد توسل إلى جيمس أن يزود به البلاد ، موجودة هنا ، في القارة الجديدة ، كجزء من عدة الحكومة وأدواتها . والجزيرة تتمتع باستقلال اقتصادي ، وهي تتحاشى التجارة الخارجية لأنها شرك ينصب الحرب . لأنها تستورد المعرفة لا السلع . وهكذا يحتل الفيلسوف المتواضع مكان رجل الدولة المزهو بنفسه ، كما أن نرس الرجل الذي كان قد نصبح بالحرب أحيانا عند الاقتضاء ، بوصفها دواء مقويا أو منشطا اجتماعيا ، نراه الآن ، وقد آذنت شمس حياته بمغيب ، يحلم بجنة من السلام .

٦ - صيحة العقل

استمر بيكون يعمل حتى النهاية . فنشر بعد عام واحد من تقاعده ، " تاريخ

حكم هنرى السابع ، سجل به مستوى جديدا لكتابة التاريخ ، فهو تفسير واضح صريح ، فى نثر رشيق قوى ، للقضايا والسياسات والأحداث ، وصورة وصفية أدبية متصفة نزاهة أخاذه لحاكم بعيد عن المثالية ، حقيقية إلى حد بعيد (٧١) . وأعقب هذا مجموعة من الرسائل : ” دراسة فى الرياح ” ” دراسة فى الكثافة والتخلخل ” . ” دراسة فى الحياة والموت ” ، وأبحاث أخرى ، لقد تهيأ له الآن من الفراغ مالم يكن يتوقعه ، فليس ثمة دار ولا أهل ولا أصدقاء ، فان كل طلاب المنافع الذين كانوا يزدحجون على بابه أيام نفوذه وسلطانه ، تمسحوا الآن بأعتاب أخرى . وسأل مرة أحد من يتبادل معهم الرسائل : ” من معلنك من الزملاء فى عملك ؟ فأجاب اننى الآن فى وحدة تامة (٧٢) ” .

وفى ما كان يحاول أن يختبركم من الوقت يمكن أن يحفظ الجليد اللحم من التعفن والفساد ، قطع الرحلة ذات يوم من أيام الربيع ليشتري دجاجة ، وذبحها وحفظها فى الجليد ، فوجد أنه أصيب بقشعريرة . فلجأ إلى دار لورد أرونديل Arundel المجاورة ، حيث وضعوه فى الفراش ، وظن أنه سقم عارض لا يلبث أن يزول ، وكتب أن التجربة ” نجحت نجاحا تاما ” ، إنه حفظ الدجاجة ، ولكنه فقد حياته . وقد قضت عليه الحمى ، وخنقه البلغم فى ٩ ابريل ١٦٢٦ . ومات فى سن الخامسة والستين . وانطفأت الشمعة المتوهجة نجاة .

لم يكن سيكون ، كما ظن بوب ” أحكم وأذكى وأحط بنى الانسان (١٣) ” . فان مونتاني كان أحكم ، وفولتير أذكى ، وهنرى الثامن أحط ، وقال أعداء سيكون عنه إنه كان عطوفا نافعا ، يبادر إلى الصفح والمغفرة . وكان أنانيا إلى حد الخنوع والاستسلام ، ومزهوا إلى حد اغضاب الآلهة . ولكننا نشاركه هذه الأخطاء إلى حد نعتفر معه طبيعته البشرية من أجل الأضواء التى نشرها . إن غروره كان القوة الدافعة فيه . وإذا كنا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا لثبات حركتنا وتوقفنا عن العمل .

ولم يكن سيكون من رجال العالم أو الأفراد العلميين ، ولكنه كان فيلسوف علم . وكان مدى قوة الملاحظة عنده هائلا ، ولكن مجال تأمله وتفكيره كان فسيحا إلى

حد لا يهيء له الوقت الكافي للبحث الخاص . وحاول شيئا من هذا دون نتيجة تذكر وتختلف كثيرا عن تقدم العلم المعاصر . ونبد آراء كوبرنيكس الفلكية ، ولكنه أورد أسبابا وجيهة لذلك (٧٤) . وتجاهل كبلر وجاليليو ونايير . وكثيرا ما تنبه (كما حدث في " القاره الجديدة ") إلى دور ملكة الخيال والافتراض والاستنباط في البحث العلمي ، ولكنه ظل ينتقص من أهميته ، وأتى اقتراحه بطول الأناة في تجميع الحقائق وتصنيفها ، بأحسن النتائج في علم الفلك ، حيث زودت الأرصاد النجمية والتسجيلات التي قام بها آلاف الباحثين - زودت كوبرنيكس بمادة استقرائية ، لاستنباطاته الثورية ، ولكنها لم تكن قريبة الشبه بالطرق الفعلية التي كشفت في عصره قوانين حركات الكواكب وتوابع المشتري وجاذبية الأرض والدورة الدموية .

ولم يزعم بيبكون أنه اكتشف الاستقراء ، وعرف أن أناسا كثيرين مارسوه من قبل . ولم يكن أول من " أطاح " بأرسطو . فان رجلا مثل روجر بيبكون ، وبتروس راموس ، فعلا هذا لعدة قرون خلت . ولكن أرسطو الذي أطاحوا به (كما تحقق بيبكون أحيانا) لم يكن أرسطو الاغريق الذي كان كثيرا ما استخدم وامتنح الاستقراء والتجريب ، ولكن أرسطو الفيلسوف الذي صنعه العرب وأتباع الفلسفة السكولاستية (الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى) . إن الذي أراد بيبكون أن يقضى عليه هو المحاولة الخاطئة لاستنباط عقائد العصور الوسطى من الميتافيزيقا القديمة ، لقد ساعد بيبكون على أية حال ، على تخليص أوروبا النهضة من الاذعان البالغ التزمتم للقديم .

ولم يكن بيبكون أول من أكد أن المعرفة طريق القوة . فقد فعل روجر بيبكون هذا من قبل ، وقال كامبانالا ، في بلاغة بيبكون : " إن قوتنا تناسب مع معرفتنا (٧٥) " . وربما أفرط رجل الدولة في الالحاح على الغايات النفعية (طبقا للمذهب المنفعة) للعالم . ومع ذلك فانه أقر بقيمة " العاوم البحثية " بمقارنتها " بالعاوم التطبيقية " - تمييزا " لنور العلم " عن " ثماره " . وحث على دراسة الغايات والوسائل بقدر سواء ، وأدرك أن قرنا من الاختراع لابد أن يخلق مشاكل كبرى ،

أكثر من أن يحل المشاكل القائمة ، إذا ترك الدوافع الانسانية على حالها دون تغيير :
وربما تبين سيكون ، في انحلاله الخلقى هو نفسه ، الهوة التى خلقها تقدم المعرفة إلى
ما هو أبعد من تهذيب الخلق :

ترى ماذا تبقى بعد ما أسلفنا من استنتاجات متأخرة ؟ يبقى أن يكون كان أقوى
أهل الفكر والذكاء وأعظمهم أثرا في زمانه . لقد بزه شكسبير بطبيعة الحال في
الخيال والفن الأدبى . ولكن عتل بكون خلق في الكون كله ، مثل نور كشاف
يحدد ويحقق مستطعا ، في كل الزوايا والخفايا ، فتمثلت فيه كل حماسة النهضة
المتقدمة اليقظة ، وكل الانارة والزهو اللذين تملكا كولمبوس وهو يبحر مسعورا إلى
عالم جديد . استمع إلى هذه الصيحة المرححة من الديك روبين Cock Robin وهو
يؤذن بانبلاج الفجر :

وهكذا انتهت من هذا القسط من التعليم الذى يمس المعرفة
المدنية ، وهذه المعرفة المدنية ختمت الفلسفة الانسانية ،
وهذه الفلسفة الانسانية ، انتهت من الفلسفة بصفة عامة .
والآن وقد توقفت قليلا ، أنظر إلى الوراء ، إلى ما مررت به
أو تصفحته ، فانه يبدو لى ، قدر ما يستطيع الانسان أن يحكم
على نفسه ، أن هذه الكتابة ليست أفضل كثيرا من الصخب
أو الصوت الذى يحدثه الموسيقيون عند ضبط آلاتهم ، مما
لا يطرأ الانسان لسماعه ، ومع ذلك فان هذا الضبط سبب
في حلاوة الموسيقى فيما بعد . وكذلك قنعت أنا بضبط آلات
الوحي والتأمل حتى يكون العزف أفضل والأيدى أقدر . وحقا ،
أنى إذ أضع أمانى حالة هذه الأزمان التى قامت فيها المعرفة
بزيارتها أو جولتها الثالثة ، بكل خصائصها ، مثل تفوق
عبارة هذا الزمان وحيويتهم ، والمساعدات والأنوار التى
حصلنا عليها من أعمال الكتاب القدامى ، وفن الطباعة الذى ينقل
الكتب إلى كل الناس من جميع المستويات ، وانفتاح العالم بفضل

الملاحظة التي كشفت الزئباج عن تجارب لاحتضارها ، وعن قدر كبير من التاريخ الطبيعي ... أقول حقا إنى إزاء هذا كله ، لأملك إلا أن أصل إلى الاقتناع بأن هذه الحقبة الثالثة من الزمن تفوق كثيرا عهد المعرفة اليونانية والرومانية ... أما عن جهودى وأعمالى ، إذا كان ثمة جهود وأعمال لى ، فانه إذا عني الانسان أن يسر نفسه أو يسر الآخرين بالانتقاص من قيمتها أو نفعها ، فانها ستعود إلى المطلب القديم المتسم بالصبر والجلد « اضربنى إذا ما أردت ، ولكن اسمعنى فقط » فلينتقد الناس وليقرعوا ماشاءوا ، فانهم بذلك سوف يلاحظون ويقدرّون (٧٦) .

إن يكون عبر عن أنبل مشاعر عصره — لتحقيق حياة أفضل عن طريق التوسيع في المعرفة — ومن ثم فإن الاعقاب خلدوا ذكره بتدكار حى ، هو تأثرهم به ، لقد حركت روحه — لاطريقته — العلماء وبعثت فيهم القوة والنشاط . فكما أنعشهم وشحذ عزائمهم ، بعد قرون كانت العقول فيها حبيسة قواعدها ، أو واقعة في شرك عناكب من نسج الرغبات والحقائق ، أن يصادفوا رجلا أحب صوت الحقيقة مهما كان عنيفا ، وأحب جو البحث والكشف ، وهو جو يبعث على الحياة ، رجلا وجد متعة في القاء ظلال الشك على دياجير الجهل والخرافة والخوف . وظن بعض رجال ذاك العصر ، مثل دون ، أن العالم في طريقه إلى الاضمحلال والانحلال ، وأنه يسير بسرعة إلى نهاية الفناء والتحطيم ، فأعلن بكون إلى عصره أنه مرحلة شباب عالم ، زاخرة بفورات الحياة .

ولم يكن الناس لينصتوا إلى بكون في بداية الأمر ، فانهم في انجلترا وفرنسا وألمانيا آثروا تحكيم السلاح في صراع العقائد ، فلما خفت حدة هذا الصراع ، فان هؤلاء الذين لم يكونوا مغلولين بقيود الحقائق ، احتشدوا ، تحذوهم روح بكون ، ليزيدوا من سيطرة الناس ، لا على الناس ، بل على ظروف حياة الانسان وما يعتورها

من عقبات . وعندما أسس رجال من الانجليز « الجمعية الملكية في لندن للنهوض بالمعرفة الطبيعية » (١٦٦٠) ، كان تكريما لفرانسيس بيكون وتخليدا للذكراه ، أن يكون مصدر وحى الجمعية وملهمها ، ومن الجائز أن : « مجلس سليمان » في « القارة الجديدة » هو الذى حدد هدفها (٧٧) . وحيا لبينتز بيكون باعتباره خالقا للفلسفة من جديد (٧٨) . وعندما تكاتف فلاسفة عصر التنوير لتأليف دائرة معارفهم التى هزت العالم (١٧٥١) فانهم أهدها إلى فرانسيس بيكون . وكتب ديدرو في نشرتها التمهيدية : « إذا كنا أدينا مهمتنا بنجاح ، فاننا نكون مدينين بأكبر الفضل لقاضى القضية بيكون الذى اقترح خطة قاموس عالمى للعلوم والفنون ، في عصر لم يوجد فيه — إذا صح التعبير — علوم ولا فنون ، وأن هذا العبقرى الفذ ، كتب في عصر كان من المستحيل فيه كتابة تاريخ لما هو معروف — كتب تاريخا أو دراسة لما هو ضرورى أن نتعلمه أو نعرفه » . وفي غمرة الحماس قال دالمبرت عن بيكون « إنه أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأكثرهم شمولا » . ولما تمخضت جماعة التنوير عن الثورة الفرنسية قررت نشر مؤلفات بيكون على حساب الدولة (٧٩) . ونهج الفكر البريطانى في مغزاه ومبناه ، من هوبز إلى سبنسر — باستثناء بركللى وهيوم والميجليين الانجليز — منهج بيكون ، فان نزعته إلى إدراك العالم الخارجى على أساس من المذهب الذرى عند ديموقريطس ، هى التى حركت هوبز إلى المادية ، وتوكيده على الاستقراء هو الذى وجه هوبز إلى علم النفس التحريبي الذى تتحرر فيه دراسة العقل من ميتافيزيقا النفس ، كما أن تركيزه على « المنافع » و « التطبيقات » أسهم مع فلسفة هلفشيوس في توجيه بنتمام إلى تعيين « النافع والصالح أو الحسن » . وأخيرا فان روح بيكون هى التى هيات انجلترا للانقلاب الصناعى .

ومن هنا جاز لنا أن نضع بيكون في قمة عصر العقل . لأنه لم يكن مثل بعض من جاءوا بعده ، يحب العقل حبا أعمى ، فانه ارتاب في أية أفكار أو خطط لم يتحقق منها التجريب الفعلى ، وفي كل النتائج التى شابها الرغبة . « إن الإدراك الانسانى ليس ضوءا جافا ، إن الارادة والعواطف تنفخ فيه ، ومن ثم تنطلق العلوم التى يمكن تسميتها : بعلوم يريد بها الانسان ، لأن ما يرى الانسان أنه يكاد يكون

حقيقيا ، يصدقه ويؤمن به على الفور » (٨٠) . وآثر ييكون ” ذلك العقل المنزع من الحقائق ، ومن تحالف أوثق وأتقن بين هاتين القوتين : التجريبية والعقلانية ، يمكن أن نأمل في خير كثير (٨١) “ .

كما أن ييكون لم يقل ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، بأن العقل عدو الدين أو أنه بديل عنه ، إنه أفسح لكل منهما مجالا في الفلسفة وفي الحياة . ولكنه كره الاعتماد على التقاليد والنصوص والمراجع ، وطالب بتغييرات عقلانية طبيعية بدلا من الافتراض أو الحدس العاطفي ، ومن الاعتراضات الخارقة للطبيعة ، والأساطير الشعبية المألوفة . إن ييكون رفع راية كل العلوم ، وجذب للانضواء تحتها أشد العقول تلهفا في الأجيال القادمة . وسواء شاء أو لم يشأ ، فإن العمل الذي دعا إليه — التنظيم الشامل للبحث العلمي ، والتوسع في المعرفة ونشرها في العالم بأسره — نقول ان هذا العمل يحوى في طياته بذور أعمق مسرحية في الأزمنة الحديثة : المسيحية ، كاثوليكية أو بروتستانتية ، تناضل من أجل حياتها ، ضد انتشار العلم والفلسفة وقوتيهما وكانت المسرحية الآن قد ألفت مقدمتها على العالم .

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ - ١٦٤٩

١ - الاقتصاد المتغير

إن الثورة التي سودت برلماناً وقتلت ملكاً - قبل أن يكفر لويس السادس عشر عن ذنوب أسلافه ، بمائة وأربعة وأربعين عاماً - كانت لها جذورها في الصراع الاقتصادي والخلاف الديني ،

كان الإقطاع تنظيماً يعتمد كل الاعتماد على الزراعة . وكانت الملكية تنظيماً بلغ بالإقطاع ذروته . وكانت مرتبطة أشد الارتباط باقتصاد يقوم على الملاك والأرض . وحدث في إنجلترا تطوراً اقتصادياً قطعاً هذه الجذور الإقطاعية . أحدهما نمو طبقة كرام المحند ذوي الملكيات الصغيرة من غير ذوي ألقاب النبالة (Gentry) ، وهم في موقف وسط بين الأشراف أو النبلاء ذوي الألقاب ، وبين صغار مالكي الأرض الأحرار أو المزارعين الذين يملكون أرضاً . وكانت أيديهم مغلولة في ظل ملك وحاشية ومجموعة من القوانين لا تزال تفكر أو تصاغ بعقلية النظام الإقطاعي . ولدوا اشتروا المقاعد في مجلس النواب أو استولوا عليها عنوة ، وتطلعوا إلى حكومة خاضعة لبرلمان خاضع لهم هم أنفسهم . أما التطور الثاني فهو نمو ثروة البرجوازية - أصحاب المصانع والمحامون والأطباء - ومطالباتها بتمثيل سياسي يتناسب مع قوتهم الاقتصادية ، ولم يكن لهذه الدوافع الثورية مصلحة مشتركة ، بل تعاونوا لمجرد أن يحاولوا كبح جماح الملاك ذوي النسب والحسب والحاشية المنتفخة الأوداج ، وملك اعتبر أن الاستمرارية الوراثة ، مصدر ضروري للنظام الاقتصادي والسياسي والاستقرار .

وكان النظام الاقتصادى يغير ، من عام لعام ، قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرك . وقبل ١٥٤٠ كان مصنع النحاس يتطلب توظيف ٣٠٠ دولار ، (بعملة الولايات المتحدة ١٩٥٨) وفى عام ١٦٢٠ ، ١٢٥ ألف دولار . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كانت المشروعات الرأسمالية التى تستلزم إنفاق اعتمادات ضخمة ، قد نهضت بمصانع حجر الشب فى يوركشير ، ومصانع الورق فى دارتفورد ، ومصانع صب المدافع فى برنديل ، والمناجم البعيدة العمق التى ازداد التهافت عليها للحصول على مزيد من الفحم والنحاس والزنك والحديد والرصاص . وفى ١٥٤٠ كان هناك عدة مناجم أنتج الواحد منها عشرين ألف طن . واعتمد الحرفيون والصناع الذين يستخدمون المعادن ، على التعدين والصناعات المعدنية التى تركزت فى أيدي الرأسماليين ، وزودت مؤسسات النسيج بالمواد اللازمة . الخوانيت التى كانت تستخدم ما بين ٥٠٠ وألف عامل ، والنساجين والخياطين الذين انتشروا فى آلاف الدور فى المدن والقرى . وكانت الزراعة تسهم فى التحول الرأسمالى فى الإنتاج . واشترى الرأسماليون مساحات كبيرة من الأرض وسوروها ، بغية إمداد المدن باللحوم ، والمصانع بالصوف داخل إنجلترا وخارجها . وارتفعت تجارة إنجلترا الخارجية إلى عشرة أمثالها فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦٤٠ .

ولم يدرك بخلد إنجلترا أن الهوة كانت سحيقة جداً بين الغنى والفقير ، و « انحطت تعويضات العمال إلى أدنى مستوى لها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن أسعار الطعام زادت على حين بقيت الأجور على ما هى عليه^(١) » . فإذا اتخذنا (١٠٠) كأساس ، فإن الأجور الحقيقية للتجارين الإنجليز كانت ٣٠٠ حوالى سنة ١٣٨٠ ، و ٣٧٠ فى سنة ١٤٨٠ ، ٢٠٠ فى عهد إليزابث ، ١٢٠ فى عهد شارل الأول — وهذا أدنى أجر فى بحر أربعائة سنة^(٢) . وفى ١٦٣٤ كانت البطالة فظيعة إلى حد أن شارل أمر بتدمير مصنع ميكانيكى لنشر الخشب أنشئ حديثاً ، لأنه عطل كثيراً من النشارين عن العمل^(٣) . وكانت الحرب مع فرنسا سبباً فى رفع الضرائب ، كما كانت الحرب فى فرنسا سبباً فى تعطيل تجارة الصادرات ، وسوء المحاصيل (١٦٢٩ - ١٦٣٠) سبباً فى تضخم الأسعار حتى صارت البلاد على حافة

الجماعة^(*) . وأخذ هذا الاقتصاد المتضخم في الهبوط فجأة (١٦٢٩ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٨) ؛ وتضافرت كل هذه العوامل مع الصراع الدينى فى أن تدفع بكثير من الأسرات الإنجليزية إلى أمريكا ، وتوقع إنجلترا فى حرب أهلية غيرت وجه الأمة ومصائرنا .

وكذلك أصبحت حرب الطبقات صراعاً بين المذاهب الدينية والقوانين الأخلاقية . وكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة ، وكاثوليكياً فى معظمه ولوفى الخفاء . أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد . وعلى حين تعلقت قلوب طبقة رجال الأعمال الجديدة باحتكاراتها وبتعريف الحماية البحرية . فإنها فى نفس الوقت طالبت باقتصاد حر تتحدد فيه الأجور على قدر العمل والسلع ، وحيث لا تكون ثمة سيطرة إقطاعية ولا حكومية على الإنتاج والتوزيع والربح والملكية ، وحيث لا توصم بوصمة العار ، الأعمال التجارية ، ولا تقاضى الفوائد على الأموال ، ولا المضاربة بالثروة . وتمسك البارونات وفلاحوهم بمفهوم الإقطاع عن الالتزام المتبادل والمسئولية الجماعية ، وتنظيم الدولة للأجور والأسعار ، وضوابط العرف والقانون لشروط الاستخدام والربح . واحتج البارونات بأن الاقتصاد التجارى (المركنتلى^(*)) الحديد ، الذى ينتج لسوق وطنية أو دولية ، كان يمزق العلاقات بين الطبقات ويقوض الاستقرار الاجتماعى . وأحسوا (كما أحس صغار ملاك الأراضي والحكومة) أن قدرتهم على الوفاء بديونهم والتزاماتهم مهددة بخطر آثار التضخم على قيمة الرسوم والإيجارات والضرائب التى اعتمدوا عليها . ونظروا فى ازدياد غاضب إلى المحامين الذين أسهموا بشكل واضح فى الإدارة ، وإلى التجار الذين حكموا المدن ، وأوجسوا خيفة من سلطان لندن التى سادتها الروح التجارية (المركنتلية) ، والتى كان عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف نسمة ، من مجموع سكان إنجلترا البالغ خمسة ملايين ، ومن ثم كانت تستطيع تمويل جيش وثورة .

(*) Mercantile ، نظام اقتصادى نشأ فى أوروبا خلال تفسخ الإقطاعية لتعزيز ثروة البلاد عن طريق التنظيم الحكومى للاقتصاد واتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة . ولإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية .

٢ — مرآة الديانة ١٦٢٤ — ١٦٤٩

إن الملك الحديد الذي ارتقى العرش في ظل النظام الإقطاعي والاجتماعي العتيق المعتمد على الأرض ، والذي أحس باليأس والضيق في لندن بتجارها والبيوريتانيين فيها ، نقول إن هذا الملك لقي من التعب والنصب فوق ما يحتمل الصبر ، من جراء تعدد المعتقدات الدينية وحدتها . إن عملية الاجتهاد أو تكوين الرأي الفردي التي دعا إليها كل رأي جديد حتى سادت وسيطرت ، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس ، على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف ، حتى لقد أحصى منها أحد المؤلفين ٢٩ طائفة في ١٦٤١ . وأحصى آخر ١٨٠ منها في ١٦٤٩ . وفضلا عن الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان هناك الانقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكانيين ومسيحيين وبيوريتانيين ، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين كانوا يحملون بالجمهورية ، والكويكرز الذين يعارضون الحرب والعنف وحلف الأيمان ، والمؤمنين بالعصر الألفي السعيد — أو طائفة الملكية الخامسة — الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعا ليقم حكمه على الأرض ، والأنتينوميين (طائفة تقول بأن الإيمان وحده — لا الامتثال للقانون الأخلاقي — ضروري للخلاص) الذين كانوا يحاجون بأن المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية ، والانفصاليين أتباع براون ، والباحثين Seekers ، والمشايخ Ranters . وشكا أحد أعضاء البرلمان من أن « الرجال الميكانيكيين » (الحرفيين) كانوا يقيمون المناظر ويبشرون بألوان عقائدهم المتحمسة ، وكان كثيرون منهم يكسون مطالب الاقتصادية أو السياسية بنصوص من الكتاب المقدس ، وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط Anabaptists ، والمعمدان الذين انشقوا على الانفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٣) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية في القضاء والقدر ، ومعمدانين خاصين قبلوها .

(*) Presbyterians رجال كنيسة بروتستانتية يدير شؤونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعا

بمنزلة متدوية .

إن تعدد الطوائف والشيوع ، ومساجلاتها الحادة الجريئة ، أدت بنفر من الناس إلى الشك في جميع صيغ المسيحية وأشكالها . ورثى الأسقف Fotherby (١٦٢٢) « لأن الكتب المقدسة فقدت سلطانها على كثير من الناس ، وظن أنها لا تصلح إلا للجهلة والحمقى^(٥) » — وفي ١٦٤٦ تحدث الحبر الجليل جيمس جرانفورد عن « الجماهير التي غيرت عقيدتها إما إلى التشكك . . . أو الإلحاد ، ولم يؤمنوا بشيء^(٦) . » وفي كتاب عنوانه Hell Broke Loose « انفتحت الجحيم على مصراعها » : بيان بالأخطاء السائدة ، والمهرطقة والتجديف في هذا العصر ، (١٦٤٦) وكان على رأس قائمة المهرطقات ، الرأى القائل بأن الكتاب المقدس سواء كان مخطوطاً حقيقياً (نصاموثوقا) أم لم يكن . . : فإنه لا يعدو أن يكون من صنع الإنسان ، وأنه عاجز عن أن يكشف عن إله في السماء^(٧) » ، وجهرت هرطقة أخرى « بأن العقل السليم هو الحكم في العقيدة ، أو قاعدة الإيمان . . . ويجدر ألا نصدق بالكتب المقدسة ونظريات التثليث والتجسد والبعث إلا بقدر موافقتها للعقل ، وليس إلا^(٨) » . وأنكر عدد كبير من المتشككين وجود الجحيم والوهية المسيح . وسعى نفر متزايد من المفكرين الذين أطلق عليهم اسم « الربوبيين » إلى التوفيق بين مذهب التشكك والدين باقتراح مسيحية تقتصر على الإيمان بالله والخلود . وهياً إدوارد ، لورد هربرت شربرى لهذا « الطريق الوسط ، أساساً فلسفياً في بحث رائع عن الحقيقة^(٩) (١٦٢٤) . قال هربرت إن الحقيقة مستقلة عن الكتب المقدسة ، ولا يمكن أن تقررها كنيسة أو أية سلطة أخرى ، وإن أفضل اختبار للحقيقة هو موافقة الناس جميعاً عليها ، وتبعاً لذلك تكون أحكم ديانة هي ديانة « طبيعية » ، لا ديانة « موحى بها » ، تحصر نفسها في النظريات التي تتقبلها كل المذاهب : وهي أن هناك « كائناً » ، وأنه تجب عبادته بالحياة الفاضلة المستقيمة أساساً ، وأن السلوك المستقيم ، ثاب ، وأن السلوك السيء يعاقب عليه ، إما هنا في الحياة الدنيا ، أو هناك الحياة الآخرة . ويقول أو برى إن هربرت مات « في هدوء » بعد أن أبوا عليه الأسرار المقدسة^(١٠) .

وكان البرلمان أشد قلقاً وانشغالا بالكاثوليكية منه بالهرطقة . ففي ١٦٣٤ قارب الكاثوليك في إنجلترا أن يشكلوا ربع السكان^(١٠) ، على الرغم من كل القوانين والأهوال التي كان يقاسمها نحو ٣٣٥ من الجزويت ، واعتنق النبلاء البارزون المذهب القديم ، وفي ١٦٢٥ أعلن جورج كلبرت ، لورد بلتيمور تحوله إلى الكثلكة ، وفي ١٦٣٢ منحه شارل مرسوماً بإنشاء المستعمرة التي عرفت باسم ماريلاند . وفي ١٦٣٣ أرسلت الملكة الكاثوليكية هنريتا ماريا إلى رومه مبعوثاً يستجدي منصب الكردينال لأحد الرعايا البريطانيين . وعرض الملك الأنجليكاني أن يسمح بإقامة أسقف كاثوليكي في إنجلترا إذا أيد إربان الثامن خطة شارل في عقد بعض زيجات دبلوماسية (١٦٣٤) ولكن البابا رفض . وطالب الكاثوليك بالتسامح الديني . ولكن البرلمان — الذي يعي في ذاكرته تعصب الكاثوليك ، ومذبة سانت برتلميو ، ومؤامرة البارود ، والاشمزاز من إجراء تحقيق في مستندات ممتلكات بروتستانية كانت يوماً كاثوليكية — طالب ، بدلا من ذلك ، بالتطبيق الكامل للقوانين التي صدرت ضد الكاثوليكية . وساد شعور قوى شعاره « لا كثلكة » ، وخاصة بين طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى ، يعارض بالمثل ، تدفق القساوسة الكاثوليك إلى إنجلترا ، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية .

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة . وكانت العقيدة والعبادة الأنجليكانية إجباريتين قانوناً ، وجعلت المواد التسع والثلاثون قانوناً من قوانين البلاد ١٦٢٨ . وادعى الأساقفة الأنجليكانيون « الخلافة الرسولية » — أي أنهم كانوا قد رسموا بواسطة الرسول ، ورفضوا تأكيد المشيخين والبيوريتانيين أن يرسموا الكاهن شرعاً ، وكان كثير من رجال الدين الأنجليكانيين في ذاك العصر ، رجالا يتحلون بعلم واسع وشعور كريم . وكان جيمس أشر Usher رئيس أساقفة أرماج Armagh عالماً حقاً ، برغم حسابه المشهور (في كتابه Annales Veteris Testamenti ، ١٦٥٠) أن الله خلق العالم في ٢٢ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . — وهذه غلطة في الحساب الزماني جعلت شبه رسمية في طبعات الكتاب المقدس^(١٢) . ودعا جون

هيلز ، قسيس السفارة الإنجليزية في هولنده — إلى الشك والعقل والتسامح :

إن الطرق التي توصلنا إلى . . . أى علم أو معرفة ليست إلا اثنتين ، أولاهما الاختبار وثانيتهما الاستدلال المنطقي ، إن الذين يأتونك ليلقوا إليك بم يجب أن تؤمن وماذا يجب أن تفعل ، دون أن يذكروا لك السبب في هذا أو ذلك . ليسوا أطباء بل إنهم متطفلون دجالون . . . إن أهم مصدر وقوة للحكمة ليس من السهل التصديق بهما . . . إن تلك الأشياء التي نجلها لقدمها ، ماذا كانت في بداية نشوئها ؟ هل كانت زائفة ؟ إن الزمن لا يستطيع أن يضفي عليها حقيقة وصدقا . إن عامل الزمن . . . مجرد شيء خارج عن موضوع البحث . . . وليس تعدد الآراء ، ولكن إرادتنا الفاسدة الشريرة — التي تظن أنه من الملائم أن نتخيل كل شيء (من نفس الفكر) كما نتصوره نحن أنفسنا — هي التي أزعمت الكنيسة إلى هذا الحد . ألم نكن مستعدين لأن يعلن بعضنا بعضاً حين لم نكن متفقين في الرأي ؟ ويمكن أن تكون قلوبنا متحدة . . . هناك شيثان يصنعان رجلاً مسيحياً كاملاً — إيمان صادق وسلوك قويم . ولو أن الثاني يبدو أجدر بالاعتبار ، ونخلع علينا اسم المسيحيين ، ولكن الثاني في النهاية ، سيثبت أنه الأقوى والأرسخ ، وليس ثمة رجل . . . حتى ولو كان همجياً أو وثنياً ، لاتصل إليه أنسام الشفقة المسيحية (١٣) .

ولم يستجب بعض ” عبدة الأصنام ” لكرم هيلز . وكتب جزويتى بتوقيع ” إدوارد نوت نبذة عنوانها Charlt Mistaken (١٦٣٠) قال فيها إنه لن يكتب الخلاص لأى بروتستانتي ، إلا بمحض الصدفة (١٤) . ولكن أعاد الطمأنينة إلى قلوب البروتستانت الذين أدانهم المقال السابق ، ولیم تشلنجورث ، Chillingworth الذى كان كتابه ” العميدة البروتستانتية هي الطريق المأمون للخلاص ، ١٦٣٧ ” أشهر

بحث لا هوى في ذلك ، العصر ، لقد عرف تشلنجورث الفريقين كليهما ، فقد كان قد ارتد إلى الكاثوليكية ، ثم عاد إلى البروتستانتية ، وما زالت لديه تحفظاته ، وقال عنه كلارندون « إنه تعود الشك حتى أصبح شيئا فشيئا لا يثق في شيء قط ، ومتشككا على الأقل في أعظم الأسرار الدينية (١٥) » .

وكان جرمي تيلور أفصح الأنجليكانيين في عهد شارل ، ولا تزال عظاته تقرأ ، كما أنها أشد تأثيرا من عظات بوسويه ، حتى أنها هزت مشاعر أحد الفرنسيين (١٦) . وكان تيلور ملكيا متحمسا ، وفسيحا في جيش شارل الأول . وعندما سيطر المشيخيون والبيوريتانيون على البرلمان ، وأسأوا ، في تعصب شديد ، معاملة الأنجليكانيين الذين كانوا يوما متعصبين ، أصدر تيلور كتاب « حرية الوعظ » (١٦٤٦) وهو دعوة حذرة إلى التسامح : إن أى مسيحى قبل عقيدة الرسل يجب أن تتلقاه الكنيسة بين أعضائها ، ويجب أن يترك الكاثوليك أحرارا ، إلا إذا أصرروا على سيادة على إنجلترا وعلى الملوك (*) ، وقبض حزب البرلمان على تيلور وأودع السجن في الحرب الأهلية ، ولكن بعد عودة الملكية ، انضم إلى حكومة الأساقفة في الكنيسة ، وخف تحمسه للتسامح .

وظهر أثر الكاثوليكية المتزايد في الرجل الأنجليكاني البارز ذى النفوذ في عصره ، وهو وليم لود ، الذى كان رجل فكر وإرادة ، ولد ليسيتر ويحكم أو يموت . وكان متمسكا بأهداب الفضيلة أشد تمسك ، متزمتا أهد التزم ، وطيد العزم إلى حد العناد مع سرعة الغضب . ورأى لود — كأى رجل صالح من رجال الكنيسة ، أنه من القضايا المسلم بها أن المعتقد الدينى الموحد أمر لاغنى عنه للحكومة الناجحة وأن الشعائر المعقدة ضرورية لكل عقيدة مهددة مؤثرة ، وما كان أشد حزن المسيحيين والبيوريتانيين وأسفهم عندما اقترح لود إعادة الفنون إلى خدمة الكنيسة ، لتجميل المذبح والمنبر وجرن التعميد ، وإعادة الصليب إلى الطقوس ، والمدركة (الرداء الكهنوتى الأبيض) إلى الكهنة . وعلى هيئة جبل خاص للخطايا ، أمر بوضع مائدة

(*) فى ١٦٣١ ، فى مشمرة خليج ماسشوست نادى روجر وليم بالتسامح بلا حدود مع الكاثوليك واليهود والمسكرار .

العشاء الرباني التي كانت توضع حتى الآن وسط الهيكل (وكانت تستخدم في بعض الأحيان لوضع القبعات عليها) ، نقول أمر لود بوضع هذه المائدة خلف حاجز في الطرف الشرقى من الكنيسة ، وكانت هذه التغييرات في معظمها لإحياء لأعراف اليزابث وقوانينها ، ولكنها في نظر البيوريتانيين الذين أحبوا البساطة ، كانت تمثل رتدادا إلى الكاثوليكية ، وتجديدا للفصل الطبقي بين القسيس وجمهور المصلين . ويبدو أن لود أحس بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت على حق في أحاطة الديانة بالمراسم والشعائر ، واضفاء هالة من القداسة على النسيس (١٧) . وقدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أراءه إلى حد أنها قدمت إليه منصب الكاردينال (١٨) . ولكنه رفض رفضا مهنبا . ولكن يبدو أن هذ العرض أيد لوم البيوريتانيين وتأييهم ، وأطلقوا عليه النذير يقدم المسيح . وعينه شارل ١٦٣٣ رئيسا لأساقفة كنتربرى وعضوا وزارة الخزانة . وعين رئيس أساقفة آخر قاضيا للقضاة في اسكتلندة فشكا الناس من أن رجال الكنيسة يعودون إلى السلطة ، كما كانت الكنيسة في أوج عظمتها في العصور الوسطى .

وشرع كبير أساقفة إنجلترا ، من قصره في لامبث Lambeth في إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية ، وخلق مائة عدو جديد حين فرض عن طريق « محكمة اللجنة العليا » (وهي هيئة قضائية أقامتها اليزابث ، وهي الآن كنسية بشكل واضح) : فرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنى ، ولم تطب نفوس الضحايا باستخدامه الغرامات في اصلاح كاتدرائية سانت بول المتهمة ، وطرده المحامين والبائعين المتجولين والمثرتين من أهبائها (١٩) وحرّم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الحديدية من رواتبهم ، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مرارا وتكرارا . أو ارتابوا في العقيدة المسيحية ، أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون في آلة تعذيب خشبية ذات ثقب تيد فيها رجلا المذنب ويداه ، أو تقطع أذناه .

ويجب أن نتخيل بشاعة ووحشية العقوبات التي فرضت في عهد لود ، حتى ندرك مصبره . فان الكاهن البيوريتاني اسكندر ليتون Leighton ، حوكم أمام

محكمة قاعة النجم لأنه المؤلف المعترف به لكتاب يقول بأن نظام الأساقفة ، نظام شيطاني معاد للمسيحية . فقيّد في الاغلال وسجن في مكان موحش لمدة خمسة أسابيع في زنزانة شديدة البرد « مليئة بالجرذان والفيران ، معرضة للتلوج والأمطار » ، فتساقط شعر رأسه ، وتقشر جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستا وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العاري ، ووضع في المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين في صقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمّة العار في وجهه ، وشق أنفه وقطعت أذنه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (٢٠) . وفي ١٦٣٣ فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer ، الذي كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكي في دخیلة نفسه ، غرامة . ودمغ بسمّة العار ، وبترت أطرافه ، وشوه جسمه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (٢١) . واتهم وليم برين ، وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين في « أبناء من أبسوبك » (١٦٣٦) ، اتهم أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان (٢٢) ، وأوصى بشنق الأساقفة . فدمغ بسمّة العار على خديه كليهما وقطعت أذناه ، وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل (١٦٤٠) (٢٣) . وسجنت لمدة أحد عشر عاما امرأة أصرت على اعتبار السبت يوم راحة وعبادة (٢٤) .

واتفق ألد أعداء لود ، وهم البيوريتانيون ، معه على ضرورة التعصب أو عدم التسامح . وذهبوا إلى أنه حكم نهائي معقول من الأصل السماوي للمسيحية والكتب المقدسة ، فإن أى فرد يعارض عقيدة قامت على هذا الأساس ، لابد أن يكون مجرما أو معتوها ، وتجب حماية المجتمع من كثير من الخطايا واللغات التي قد تنصب على المجتمع من جراء تعاليمه . وناشد المشيخيون البرلمان -- (١٦٤٨) أن يشرع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون على نشر تعاليم الكاثوليك والمعمدانين والأرمينيين والكويكرز ، وعقوبة الاعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس ، أو التجسد . ولكن المستقلين أتباع كرومويل ، على أية حال ، عرضوا التسامح مع كل من يقبل أساسيات المسيحية ، ولكنهم استبعدوا الكاثوليك والموحدين والمدافعين عن حكومة الأساقفة (٢٥) .

وكان في البيوريتانيين شيع كثيرة إلى حد يصعب معه جمعهم في تعميم واحد

ينطبق عليهم جميعا . وتمسك معظمهم بكلمة صارمة ، وبحرية سياسية فردية ، ويحق جمهور كل كنيسة في إدارة شئونها دون إشراف الأساقفة ، وعبادة غير موسومة بالمراسم والشعائر ، متسمة بالمساواة ، وتخلوا عن الفن الديني الذي يلهي المصلين ويشتت أفكارهم ، واتفقوا مع المشيخين في اللاهوت ولكنهم رفضوا مجامعهم الكنسية ، لأنها تنزع إلى ممارسة سلطة الأساقفة ، وأصروا على تفسير حرفي للكتب المقدسة ، واستنكروا القول بحكم العقل على الحق الموحى به ، وكانوا يحملون العهد الجديد والعهد القديم بقدر سواء ، وطبقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية « شعب الله المختار » ، وعمدوا أطفالهم بأسماء بطارقة « العهد القديم » وأبطاله ، وفكروا في الرب على أساس « يهوه » الصارم القاسي ، وأضافوا إلى ذلك إيمان الكلفنية بأن معظم الناس هم « أبناء العقاب الإلهي » قضت عليهم الإرادة المتحكمة من لدن إله لا برحم بالخلود في الجحيم ، وعزوا خلاص القلة « المختارة » ، لا إلى صالح الأعمال ، بل إلى نعمة الهية ينعم الله بها على من يشاء متى شاء . وذهب بعضهم إلى أنه كلم الله ، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهماموا في الشوارع يثنون ويتأوهون ، استبقا لخلودهم في العذاب . وبدأ أن الله يسلط الصواعق دوما على رؤوس الناس .

وفي وسط هذا « الارهاب » الذي فرضته البلاد على نفسها كادت « إنجلترا : المرحية » أن يتقلص ظلها واستسلمت « انسانية عصر النهضة » و « طبيعية » عصر الزباث المفعمة بالحوية إلى شعور بالذنب وخوف من الانتقام الإلهي . وبهذا الخوف وذلك الشعور نظر الناس إلى مسرات الحياة وكأنها أرجاس من عمل الشيطان أو تحديات للاله . وعاودت قسما أكبر من الناس لم يعهد له مثل من قبل في التاريخ المعروف ، نقو عاودتهم المخاوف من الطبيعة البشرية والجسد ، التي كانت سائدة بين الرهبان في الأديار . وأعلن بريم Pryme أن كل عناق « دعارة » ، وكل رقص مشترك « فسق وفجور » (٢٦) . وفي نظر معظم البيوريتانيين كانت الموسيقى والزجاج الملون والصور الدينية والأردية الكهنوتية البيضاء والكهنة المسوحوون بازيت — كلها أمور تحول دون الاتصال بالله والاتجاه إليه . ودرسوا الكتاب

المقدس بعناية ناثقة ، واقتبسوا عباراته في كل حديث وفي كل فقرة تقريبا ، وطرز بعض المتحمسين المعصبين ثيابهم بنصوص مقدسة ، وأضاف المغالون في التقي والورع لفظة « حقا » لإشهادا على اخلاصهم أو صدقهم . وحرم البيوريتانيون الصالحون استخدام مستحضرات التجميل وترتيب الشعر ، على أنهما ضرب من الزهو والغرور والتفاهة . وحظوا بالاسم المستعار « ذوى الرؤوس المستديرة Roundheads » لأنهم قصوا شعورهم بشكل قصير جدا . ونددوا بالمرح على أنه مخز (وهكذا كان) ، وبمطاردة الدببة والثيران على أنها عمل وحشى ، وبأخلاق البلاط على أنها وثنية . كما استنكروا الاحتفالات والأعياد الصاخبة ، ودق النواقيس ، والتجمع حول عمود أول مايو المزدان بالأشرطة والأزهار والرقص حوله ، وشرب الأنخاب ، ولعب الورق . وحرموا كل الألعاب أيا كانت في يوم الراحة ، وقالوا انه يوم الرب ، ويجب ألا يسمى بعد الآن بالاسم الوثني « الأحد » . ورددوا صيحات الغضب — ومن بينهم ملتون — حين أصدر شارل الأول ولود — تجديدا لمرسوم جيمس الأول — « إعلان الألعاب » ١٦٣٣ ، أجازا فيه الألعاب في يوم الأحد بعد تأدية الصلوات . ومد البيوريتانيون تشدهم في تحريم الألعاب والملاهي وفي الانقطاع إلى العبادة والراحة في أيام الآحاد (قوانين الأحد الزرقاء) ، إلى يوم عيد الميلاد ، ورثوا لأسلوب الاحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص والألعاب ، وكانوا على حق في أنهم نسبوا معظم تقاليد عيد الميلاد إلى أصول وثنية ، وطالبوا بأن يكون عيد الميلاد يوما مهيبا للصوم والكفارة ، وفي ١٦٤٤ أقنعوا البرلمان بعد لأى ، باقرار هذه الفكرة بمقتضى القانون :

وكما أكدت البروتستانتية على العظة أكثر مما فعلت الكاثوليكية ، فان البيوريتانيين كذلك توسعوا فيها حتى إلى أبعد مما جرى عليه البروتستانت ومزق التعطش إلى المواعظ بعض القلوب ، وانتقل عمدة نوروك إلى لندن ليستمع إلى مزيد من الوعظ ، واستقال بزاز من الأبرشية لأنها لا تقدم إلا عظة واحدة كل يوم أحد ، وقام « محاضرون » خاصون لإطفاء هذا النظم — وهؤلاء عبارة عن رجال

عادين تستأجرهم الأبرشية لالقاء عظة يوم الأحد ، بالإضافة إلى مايلقيه الكاهن المعتاد . ونهض معظم الوعاظ البيوريتانيين بمهمتهم في جدية بالغة فأرهبوا مستمعيهم بأوصاف الجحيم ، واتهم بعضهم الآثمين علنا بالاسم ، وأفصح واحد منهم عن مدمنى الخمر في شعب الكنيسة ، وضرب ، وهو يتحدث عن البغايا ، مثلاً بزوجة أحد أهالى الأبرشية المشهورين ، وقال آخر لمستمعيه إنه إذا كان الزنى والحلف والغش واغفال طقوس يوم الراحة ، إذا كانت هذه كلها تؤدي بالانسان إلى الجنة ، فسيكتب الخلاص للأبرشية بأسرها (١٧) . وأحس القساوسة البيوريتانيون أن من واجهم أن يصفوا للناس — أو يحرموا عليهم — قواعد السلوك ، وأنواع اللباس ووسائل التسلية ، فحرموا الاحتفال بأيام العطلة أو الأعياد في الأعراف الوثنية أو الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك أضافوا نحو خمسين يوم عمل إلى السنة (٢٨) ، ودوت صيحة الواجب في الخلق البيوريتاني ، مقترنه بغرس الشجاعة والاعتماد على النفس والحزم والاقتصاد والعمل في النفوس ، وكان هذا نظاماً أخلاقياً يلتزم مع الطبقة الوسطى ، فانهضت على العمل الجاد النشط ، وأجاز من الوجهة الدينية المشروعات والمغامرات التجارية والملكية الخاصة . وكان الفقر ، لا الغنى ، في نظرهم ، هو الخطيئة ، لأنه ينم على الافتقار إلى الخلق الشخصى وإلى نعمة الله (٢٩)

وكان البيوريتانيون ، من الناحية السياسية ، يتوقون إلى حكومة دينية ديمقراطية ، لا يكون فيها بين الناس إلافروق أخلاقية ودينية ، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح . ولا قانون سوى كلمة الله . وكرهوا الضرائب الباهظة التى تعول الكنيسة الانجليكانية . وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم . وقال أحد المؤلفين « إن هذه الهاوية الأسقفية تلتهم تجارة الأمة » (٣٠) . ودافع البيوريتانيون عن الثراء . ولكنهم احتقروا الترف الحامل الذى كان يرفل فيه النبلاء ، وتمسكوا بالأخلاقيات إلى حد التطرف ، كما فعلت الأجيال التالية بالحرية . ولكن ربما كانت مبادئهم القاسية تصحيحاً ضرورياً للانحلال الخلقى في عصر اليزابث . وأنجبوا بعضاً من أقوى الشخصيات في التاريخ — كرمول وملتون ، والرجال الذين فتحوا الفيافي والقفار الأمريكية .

ودافعوا عن الحكومة البرلمانية ونظام المحلفين ونقلوها إلينا ، وإن إنجلترا المدينة لهم ، بشكل جزئي ، بالرصانة الحق في الخلق الإنجليزي ، واستقرار الأسرة البريطانية ، وزاهة الحياة الرسمية في بريطانيا . ولم تفقد شيئا .

٣ - البيوريتانيون والمسرح

إن أول انتصار أحرزه البيوريتانيون كان في حربهم ضد المسرح . فإن كل ما تميزوا به — من لاهوت قائم على « الاصطفاء » و « الرفض » وخلق متزمت ، ومزاج قاس ، وحديث انجيلي — كان يتناوله المسرح بالتجريح والتسخيف ، عن طريق الصور الكاريكاتورية الفاضحة التي لا تغتفر ، وكانت الطامة الكبرى في ١٦٢٩ : فإن ممثلة فرنسية تجاسرت على إسناد دور نسائي إلى شاب في رواية مثلت على مسرح Black Friars فقلدوها بالتفاح والبيض الفاسد .

وربما أَرْضَى الكتاب المسرحيون الجدد جماعة البيوريتانيين ، لأنهم كانوا في جملتهم مهلبين ، ولو أنهم ، من حين إلى حين ، حاولوا بالبذاءات ، لإرضاء جمهور الدرجة الثالثة ذوى الأذواق السقيمة واجتذابهم . إن رواية فيليب ماسنجر « طريقة جديدة لتسديد الديون القديمة (١٦٢٥) » لم تكن تهجو الفضيلة المتزمتة ، بل جشع الاحتكارات . ولم يكن ثمة شعري يخلق ، ولا ذكاء يدوى ، ولا مجازات وتخييلات صارخة ، ولكن الرجل المبتز المجرد من الضمير والمبادئ الخلقية وقع في يد العدالة آخر الأمر . وتعاقبت خمسة فصول دون أن تظهر واحدة من البغايا أو بنات الهوى . وتحايل جون فورد على تصيد الجمهور بأن جعل عنوان الرواية « يا حسرتاه إنها مومس » ، ولكن هذه الرواية ، ورواية « القلب الكسير » (كلتاها ١٦٢٣) احتفظنا بشيء من الاحتشام ، وربما أمكن تمثيلهما الآن لو أن الجمهور الحديث استطاع أن يتحمل العذاب في حل عقد الرواية .

وسدد البيوريتانيون أعنف ضرباتهم للمسرح ، حين أرسل أشد أنصارهم جراحة وشجاعة ، ولیم برين ، إلى الصحافة (١٦٣٢) مقاله « سوط الممثلين Players Seourge وكان برين محامياً ، ولم يدع الزاهة والتجرد ، وقدم إلى (١٩)

المدعى مذكرة من ألف صحيفة ، وبالاقتباس من الكتب المقدسة ومن كتابات آباء الكنيسة بل حتى من كتابات الفلاسفة الوثنيين ، أثبت أن المسرحية من عمل الشيطان ، فإنها بدأت كصيغة أو شكل لعبادته . إن معظم الروايات ممثلة بالتجديف والدعارة والفحش ، زاحرة بعناق العشاق ، والإيماءات الخليعة ، والموسيقى والأغاني والرقص الذى يثير الشهوة ، وإن كل أنواع الرقص من عمل شيطاني ، وكل خطوة فيه إن هي إلا خطوة إلى الجحيم ، وإن كل الممثلين مجرمون فجرة كفر « . » إن كنيسة الله ، لا المسرح ، هي المدرسة الوحيدة الصالحة ، والكتاب المقدس والعظات والكتب الدينية المخلصة الورعة . . . هي المحاضرات " أى القراءات الوحيدة الصالحة للمسيحيين . فإذا أرادوا التحول عنها :

فإن أمامهم مشاهد متعددة فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم وسائر المخلوقات التى لا نهاية لتعددتها وتنوعها ، ليمتعوا بها أنظارهم . وإن أمامهم تغريد الطيور ليشنفوا به آذانهم ، وإن لديهم الشذا الرقيق الحميل والروائح الزكية المنبعثة من الأعشاب والأزهار والفواكه لينعشوا بها أنوفهم . . . ولديهم المذاق الحميل لكل ما يصلح للأكل . . . والمسرات والمتعة التى تقدمها لهم البساتين والأنهار والحدائق والبرك والغابات ، والهبة التى يوفرها لهم الأصدقاء والأقرباء والأزواج والزوجات والأولاد ، والمقتنيات والثروة ، وسائر النعم الظاهرة التى أنعم الله بها على الإنسان (٣١)

وكانت الحجة قوية بليغة ، ولكنها وصمت كل الممثلات بالدعارة والبغاء ، وكانت الملكة لتوها قد استقدمت من أرنسا بعض الممثلات ، وكانت هى نفسها تتدرب على تمثيل دور فى البلاط ، وجرح شعور هنريتا ماريا واستاءت ، وأتهم لود برين باثارة الفتنة ، ودفع المؤلف بأنه لم يكن يقصد الطعن فى الملكة أو التشهير بها ، واعتذر عن عدم مراعاة الاعتدال فى كتابته . ولكن على أية حال ، فى قسوة عالقت بأذهان البيوريتانيين طويلا ، منع من الاشتغال بالحمامة وفرضت

عليه غرامة يستحيل دفعها ، ٥٠٠٠ جنيه (٢٥٠٠٠٠ دولار ؟) ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ووضع في المشهرة وقطعت أذناه كلتاها (٣٢) ، ومن سجنه أصدر (١٦٣٦) " أنباء من أبزوك " اتهم فيه الأساقفة الأنجليكانيين بأنهم خونة شيطانيون ، وذئاب ضارية ، وأوصى بشذوئهم . فعذب في المشهرة من جديد ، واستؤصلت بقايا أذنيه ، وبقي في السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل ١٦٤٠ .

وفي ١٦٤٢ أصدر البرلمان أمراً بإغلاق كل مسارح إنجلترا . وكان هذا في أول الأمر ، فن تدابير حرب ، بدا أنها محدودة بهذه الأوقات الفاجعة . ولكنها استمرت حتى ١٦٥٦ . وآذنت بزوال الحياة الطويلة للمسرحية الإليزابيثية ، وسط مسرحية أكبر لم يشهد لها المسرح الإنجليزي مثالا قط .

٤ - النثر في عهد شارل الأول

كان هناك في إنجلترا ، رجلا ن على الأقل ، يستطيعان أن يطلا على المشهد المضطرب في مقدرة وهذوء . وكان جون سلدن Selden واسع الاطلاع والعلم حتى قال عنه الناس : لا يعلم أحد أى شىء لا يحيط به سلدن علما . إنه كرجل مهتم بالآثار والتاريخ القديم ، جمع بيانات عن الدولة في إنجلترا قبل عهد النورمندين ، وسجلا موثوقاً عن « ألقاب الشرف » (١٦١٧) ، وبوصفه مستشرقاً ، ذاع صيته في كل أوربا . بدراسته في الشرك وتعدد الآلهة ، وبوصفه من رجال القانون شرح قانون الأحبار وكتب « تاريخ العشور » ودحض فكرة أنها فرضت من عند الله ، وبوصفه عضواً في البرلمان أسهم في اتهام بكنجهام ولود وفي صياغة « ملتمس الحقوق » . وأودع السجن مرتين . وشهد « اجتماع وستمنستر » كمنسوب علماني عادى « يشهد اقتتال الحمير المتوحشة » ودعا إلى الاعتدال في المنازعات الدينية . وبعد وفاته أصبح كتابه . « حديث المائدة » الذى سجله سكرتيره ، من الآثار الأدبية الإنجليزية ، نقمتطف هنا نموذجاً منه :

إنه لمن العيبث أن نتحدث عن هرطيق ، لأن الإنسان لا يعتد
إلا بما براه أو يفكر فيه هو نفسه . وفي العصور البهادية كان ثمة

آراء كثيرة ، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء ، ودمغت
سائر الآراء بأنها هرطقات . ولا يمكن أن يكون رجل
ما أعقل الناس من أجل علمه ومعرفته ، فقد يبيء هذا
موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الانسان
. . . . إن العقلاء لا يتفوهون بشيء في أوقات الخطر .
إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من
فمه ، فلما أجابت بالاجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية
حمقاء . فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفي ،
فزقه الأسد إربا لأنه متملق . وأخيرا نادى على الثعلب
وكرر عليه السؤال ، فتعجب وقال إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع
أن يشم (٣٣) .

وكان توماس براون « ثعلبا » . إنه ولد في لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه في
مدرسة ونشستر ، واكسفورد ومونبيليه وبادوا ولیدن ، واستزاد من العلوم
والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب في
نوروك . وهذب من « تحليلاته للبول » بتدوين ملاحظاته وأفكاره « عن كل
هذه الأشياء ، وعن قليل غيرها » On all things and a few others وأخفى
بلباقة نظريته في الدين في كتابه « الحب الديني » (١٦٤٢) ، وهو يمثل مرحلة
في تاريخ الفكر الانجليزي . وإنك لتجد في شخصه « مونتاني بريطاني » ، فهو
مثله في طرافته وخياله ، وفي تذبذبه وتعدد جوانبه ، وربما اقتبس عنه فيما كتب
عن الصداقة (٣٤) ، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الانجليزية مستسيغا
العقل ومعلنا إيمانه . وملا براون كلامه بالاشعارات والاشتقاقات التقليدية
ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها ، مستخدما أسلوبا كأنه دواء « مضاد
للبلبلى والفساد » .

وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك . وفي أطول مؤلفاته وعنوانه
« الأقوال الزائفة الشائعة » شرح وهذب مئات من « الآراء الفاسدة الشائعة » في

أوروبا — منها أن العقيق الأحمر يضيء في الظلام ، وأن الفيل لا مفاصل له ، وأن العنقاء تتوالد بذاتها من رفاتها ، وأن السمندر (نوع خرافى من الضفادع) يمكن أن يعيش في النار ، وأن وحيد القرن (حيوان خرافى له جسم فرس وذيل أسد) له قرن واحد في وسط الجبهة ، وأن البجع يغنى قبل موته ، وأن الفاكهة المحرمة كانت التفاح ، « وأن ضفدع الطين يبول وهذه الطريقة ينفث سمه (٣٥) » ولكنه كآى مهاجم للتقاليد والمعتقدات القديمة ، كان له معتقداته، فانه آمن بالملائكة والشياطين وقراءة الكف والسحرة (٣٦) ، وشارك في ١٦٦٤ في اتهام امرأتين بأنهما ساحرتان ، وشنقا بعد ذلك على الفور ، وهما تؤكدان براءتهما (٣٧) .

ولم يكن به ميل إلى النساء ، وذهب إلى أن « الجنس » أمر مرذول فقال

لم أتزوج غير مرة واحدة فقط ، وإنى لأمتدح أولئك الذين يعتقدون العزم على ألا يتزوجوا مرتين ، وإنى لأتمنى أن نتكاثر ، مثل الشجر ، دون اتصال جنسى ، أو أن تكون هناك وسيلة أخرى للبقاء على الجنس البشرى ، انه أقبح عمل يأتيه الرجل العاقل في حياته ، وليس ثمة شيء يوهن من عزيمته ويؤذى خياله أكثر من تفكيره في أية حماقة تافهة شاذة قد ارتكبها (٣٨) .

أما بالنسبة لموضوعه الرئيسى فانه مسيحي بحكم الدفاع عن المسيحية : أما من حيث ديانتى ، فانه على الرغم من الظروف الكثيرة التى قد تغرى العالم ، فليس لدى منها شيء قط (مثل الخزى العام في مهنتى ، التجربى الطبيعى لدراساتى وأبحاثى ، عدم التحيز في سلوكى وفي أحاديثى في الموضوعات الدينية ، فلا أتحمس في الدفاع عن دين ، ولا أعارض دينا آخر بمثل هذا العنف الذى اعتاد الناس أن يعارضوا به الديانات الأخرى) ، ولكن برغم كل شيء ، فإنى أتجاسر ، دون أى إكراه ، على اعتناق المسيحية الكريمة . لا لأنى أدين بلقبى لجرن المعمودية ، ولا من أجل

تعليمي ، أو المناخ الذي ولدت فيه ، ولكن لأنني
في أيام نضجي وحكمي السليم على الأمور ، عرفت كل
الأديان وخبرتها (٢٩) .

ويحس براون بأن عجائب الدنيا ونظامها تم على عقل إلهي — « إن الطبيعة
هي فن الإله (٤٠) » ويعترف بأنه ارتكب بعض الهرطقة ، وينزلق إلى شيء من
الارتياب فيما جاء بالكتاب المقدس عن الخلق والتكوين (٤١) ، ولكنه الآن يحس
بالحاجة إلى ديانة مقررّة ترشد الحائرين والمترددّين من الناس ، ويرثي لتفاهة
الهرطقة الذين يعكرون صفو النظام الاجتماعي بتفريقهم في عملهم (٤٢) . ولم يكن
يحب البيوريتانيين ، وبقي على ولائه وإخلاصه لشارل الأول ، أثناء الحرب الأهلية ،
وكافأه شارل الثاني على جهوده برفعه إلى مرتبة الفارس .

وفي سنواته الأخيرة أغراه بالتأمل والبحث في الموت ، الكشف عن بعض
المقابر في نورفولك ، وسجل ملاحظاته وأفكاره في تحفة من روائع النثر الانجليزي
غير ذات موضوع محدد : Hydriotaphia Urne - Buriall (١٦٥٨) . وينصح
بأحراق الموتى ، كأخف الوسائل عقبا لتخليص الأرض منسا . « إن الحياة بريق
صاف ، واننا لنعيش «بشمس» خفية فينا » ، ولكننا نومض ثم نخبو بسرعة مخزية.
وإن الأجيال لتمضي ، على حين يبقى الشجر ، وإن الأسرات العريقة لا تعمر قدر ماتعمر
ثلاث بلوطات (٤٣) » . ويحتمل أن العالم نفسه « يقترب من نهايته » في هذه الساعة
الفاصلة من الزمن . ونحن بحاجة إلى الأمل في الخلود ليثبتنا ضد قصر الحياة هذا ،
ولأنه لسند قوى لنا أن نحس بالخلود ، — ولكن يحزننا أشد الحزن أن تدفعنا
أطياف الجحيم في التياح إلى الاحتشام واللياقة (٤٤) . وليس الملائ الأعلى « فراغا
سماويا » ولكنه « في نطاق هذا العالم المحسوس » في حالة من الرضا والهدوء .
ولكن براون يستدرك بسرعة حتى لا ينزلق إلى هاوية الهرطقة ، فيختم تأملاته
الدينية بدعاء خاشع إلى الله :

اللهم أنعم على في هذه الحياة براحة الضمير ، وبالسيطرة

على عواطفى ، وامنعنى حبك وحب أصدقائى الأعزاء ،
وهذا أكون سعيدا إلى حد الاشفاق على قيصر . تلك ،
يا إلهى ، رغباتى المتواضعة التى يملها على طموحى المعقول .
وهو كل ما أجرؤ على القول بأنه السعادة على الأرض ،
التى لا أضع فيها قاعدة ولا حدا لنعمتك وعنايتك . وأمتنى
كما تشاء حكمتك فان مشيئتك سوف تنفذ ولو فى القضاء
على (٤٥) .

• - الشعر فى أيام شارل

وظهرت فى نفس الحقبة طائفة من الشعراء الثانويين الأقل شأنًا - الذين حظى
كل منهم بأعظم الحب لدى هـبذا أو ذاك من الناس - والذين أمتعوا الناس ،
وملأوا وقت فراغهم بقوافى الغزل وقصائد التقوى الرخيمة . وحيث أن الملك
كان يميل إليهم ويرضى عنهم لأنهم كانوا أبواقا له ولسان حاله فى كل التقلبات ،
فان التاريخ يعرفهم باسم « الشعراء الفرسان » . وكان روبرت هرك **Herrick**
يدرّب قلمه عند بن جونسون ، وظن لبعض الوقت أن قدحا من النبيذ يمكن أن
ينظم مجلدا من القصائد ، وكان يحتسى الخمر لعدة ساعات دون انقطاع ، من أجل
باخوس (إله الخمر والعريضة عند اليونان والرومان) ، ثم درس ليهي نفسه
للانخراط فى سلك رجال الدين ، وتلقى درسا فى العشق والغرام ، وقطع على نفسه
عهدا أن يؤثر التحليلات على الزوجات (٤٦) . وأشار على العذارى « بجمع براعم
الورد » عند تفتحها . أما عشيقته كورنا **Corinna** فانه يستحشها بقوة :

انهضى ، انهضى ، يا للعار إن الصبح المتفتح يمثل بأجنحته
قدرة الله كاملة . انظرى كيف أن الفجر ينبثق فى الجو عن
خيوط الضوء الحديد الحميل . انهضى أيتها الغادة النجوم
وانظرى كيف ترين قطرات الندى العشب والشجر تعالى ،
ولنذهب ونحن فى ريعان شبابنا لنسرح ونمرح فى اللهو البرىء

فى أيامنا . سوف يدركنا الهرم بسرعة ونفنى قبل أن نستمتع
بحريتنا . . . وعندما يسعفنا زماننا ، وقبل أن نذيل
ونذوى ، تعالى يا حبيبتى كورنا ، تعالى نعم بريـع
الحياة (٤٧) .

وهكذا فى كثير من قصائده الماجنة التى نشرها (١٦٤٨) فى مجموعة
Hesperides ، حيث نجد أنها ، حتى فى أيامنا الفاجرة ، فى حاجة إلى تهذيب ،
حتى تلائم كل الناس . ولكن كسب العيش ضرورى كذلك . ومن ثم غادر هرك
لندن الحبيبة إلى نفسه (١٦٢٩) - حاملامعه حبه للقصيد والقوافى - وقصد
وهو محزون ، ليعمل قسيسا ويقيم فى بيت متواضع فى ديفونشير النائية .

وسرعان ما شرع فى نظم قصائد تفيض بالتقى والورع ، بادئا بدعاء الغفران :
أما عن قصائدى المخافة للدين ، والتى كتبها فى أيام طيشي
ومجوفى ، عن كل جملة أو عبارة أولفظة فيها ، لم يرد فيها
ذكرك ، يا إلهى ، فتجاوز عنها يارب ، وامح من كتابى كل
سطر لم تلهمنى فيه الصواب (٤٨) .

وفى ١٦٤٧ عزله البيوريتانيون من وظيفته . وتصور جوعا ، فى خضوع
وولاء ، طوال الأيام السود فى حكم كرومول ، ولكنه عاد إلى أبرشيته بعودة
الملكية ، ومات هناك ، وهو فى سن الرابعة والثمانين ، وضاعت كورنا فى
زوايا النسيان .

ولم يعمر توماس كارو Carew مثلما عمر هرك ، ولكنه مثله ، وجد فسحة
من الوقت للخيالات والحظيات . وثمل كارو بالمفان التى تدق عن الوصف فى
المرأة . فتغنى بها فى تفصيل جذل نشوان فى « نشوة ARapture » ، وفى ازدراء
جرىء للظهر والعفة حتى أن الشعراء الآخرين شـاءا عليه دقته الفاسقة . ولم يغفر
البيوريتانيون لشارل الأول تعيينه فى المجلس الخاص . ولكن ربما تجاوز عن
الموضوع من الناحية الشكلية . لقد اقتبس الشعراء فى أيام شارل كل الرقة والأناقة

الفرنسيين في شعر رونسار وبنات أطلس ليزوقوا بالفن الرشيق مجنون الشهوات [وبعدها عن اللياقة والاحتشام .

وحظى سيرجون سكلنج Suckling بثروة طائلة في حياته القصيرة التي لم تتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا . ولد في ١٦٠٩ ، وورث في الثامنة عشرة من عمره أموالا كبيرة . وطاف بأنحاء أوروبا ليكمل دراسته ، وضمه شارل الأول إلى طائفة الفرسان ، وحارب تحت إمرة جوستافوس أدولفوس في حرب الثلاثين عاما . وعاد إلى إنجلترا (١٦٣٢) ، ليصبح بفضل وسامته وذكائه وثرائه الواسع من ذوي الخطوة في البلاط الملكي . ويقول عنه أوبري إنه « كان من أشجع أهل زمانه وأكثرهم شهامة وتودداً إلى النساء ، ومن أكبر المقامرين في لعبة البولنج (اللعب بالكرات الخشبية) ولعب الورق . . . وقد تأتى أخواته إلى . . . ساحة اللعب ، تتعالى صيحاتهن وصراخهن خوفا من ضياع أنصبتن في القمار (٩) . » وابتدع نوعا من لعب الورق Cribbage (كريج) . ولم يتزوج قط في حياته . ولكنه صاحب « عددا كبيرا من السيدات ذوات المكانة » . وفي إحدى الحفلات أهدى السيدات جوارب حريرية . وكأنها حلوى ، ثم مضى الحفل في بذخ هائل (١٠) . وأخرجت روايته أجلورا Aglaura في مناظر باذخة مسرفة ، دفع نفقاتها من جيبه الخاص ، وحشد قواته للقتال إلى جانب الملك ، وخاطر بحياته في محاولة لانقاذ سير توماس ونثورت ارل سترافورد ، وزير الملك ، من السجن (في برج لندن) . فلما أخفق هرب إلى القارة ، وهناك حين حرم من كل ثروته . تناول السم ومات .

كذلك خدم ريتشارد لفلاس Lovelace الملك في الحرب والشعر معا ، كما كان أيضا ثريا وسيا . رآه أنتوني وود في اكسفورد فقال عنه انه « ألطف وأجمل إنسان وقعت عليه عيناه » (١١) وفي ١٦٤٢ رأس وفدا من كنت يلتمس من البرلمان الطويل (وكان مشيخيا لأمد قصير) ، إعادة الطقوس الأنجليكانية . ومن أجل هذه الجراءة في التمسك بمعتقداته ، قضى في السجن سبعة أسابيع . ولما جاءت معشوقته أثلثا Althea تزوره وتواسيه في السجن ، خلدها بهذه الأبيات :

عندما يرفرف الحب بأجنحة طليقة حول الأبواب ، ويأتي
بملاكه الطاهر أثلثا تهمس من خلف القضبان . وعندما
أرقد متشابكا في شعرها لأحول بصرى عن عينيها ، فان
الطيور التي تسبح في الهواء لاتعرف حرية مثل هذه .

إن بعض الجدران لاتصنع سجنا ، ولا تصنع بعض
القضبان قفصا ، لأن العقول البريئة الهادئة تتخذ من
هذا وذاك صومعة . وإذا كنت أنعم بالحرية في حبس ، وإذا
كانت نفسى طليقة . فان الملائكة الذين يخلقون في السماء
هم وحدهم الذين ينعمون بمثل هذه الحرية (٥٢) .

وخرج إلى الحرب ثانية في ١٦٤٥ ، معتذرا إلى خطيبته (لوسى ساكفرل

To Lucasta, Going to the Wars : في قصيدة : Sacheverell)

لاتقولى يا عزيزتى انى قاس لأرحم ، لأنى من معبد
صدرك الطاهر وبالك الخالى ، أطيح إلى ساحة الحرب
وأمتشق الحسام

على أنك أنت نفسك سوف تقدسين مثل هذا التحول لأنى
لم أكن لأحبك ، إذا لم يكن الشرف أحب إلى منك (٥٣) .

ونطبقا لأنباء كاذبة عن موته في ساحة القتال تزوجت لوكاستا (لوسى الطاهرة)
من شخص آخر طلب يدها . ولما أن فقد لفلاس فتاة أحلامه وثروته في سبيل
الدفاع عن الملكية ، ساءت أحواله إلى حد الاعتماد على إحسان أصدقائه وبرهم
ليقيم أوده . وبات هذا الذى كان يرفل في ثياب موشاة بالفضة والذهب ، يرتدى
الآن أسمالا بالية ويأوى إلى الأكواخ . ومات من السل والهزال ١٦٥٨ ، وهو
في سن الأربعين .

وكان من الممكن أن يتعلم لفلاس فن البقاء من ادموند وولر Waller الذى
نجح في الاحتفاظ بنشاطه لمدة ستين عاما ، ممثلا جانبي الثورة الكبرى كإيهما ،

وأصبح أكثر شعراء زمانه شعبية ، وعمر بعد ملتون ، ومات في سريره ١٦٨٧ وهو في سن الواحدة والثمانين . ودخل البرلمان في السادسة عشرة من عمره ، وأصابته لווة من الجنون في سن الثالثة والعشرين ، ثم شفى وتزوج في سن الخامسة والعشرين من سيدة في لندن آلت إليها ثروة ضخمة ، واراها التراب بعد ثلاث سنوات من زواجهما . وسرعان ماتودد إلى ساكاريسا (ليدى دوروثى سدنى) ، بأسلوب جديد لموضوع قديم .

اذبحي أيتها الوردة الجميلة ، وأبلغني هذه التي تضيع وقتها وتضيعني ، إنها الآن تعرف حق المعرفة أنني إذ اشبهها بك ، كم تبدو هي جميلة فاتنة .
أبلغها ، وهي في ريعان الشباب ، وتتجنب أن يختلس أحد النظر إلى مفاتها ، أنك لو كنت (أيتها الوردة) ، نشأت في الصحراء ، حيث لا يقطن إلا سكان ، لأصابتك البول دون أن يتغنى أحد بجمالك
ثم تنفى تلك التي نقرأ فيها المصير المشترك لكل ماهو فاذ نادر ، وما أقصر الأيام التي نقضيها مع ربات الحسن الرائع والجمال المذهل .

وثمة شاعر آخر يكاد يكون من الشعراء الأقل شأنًا يدخل في زمرة شعراء هذه الحقبة ، وهو ريتشارد كراشو ، الذي امتلأ بالحماس الديني أكثر مما أغرم بمتاع الدنيا . وكتب والده ، وهو من رجال الكنيسة الأنجليكانية ، مقالات ضد الكاثوليكية ، وملأ قلب ابنه بالخاوف من البابوية . ولكن ريتشارد اعتنق الكاثوليكية . ووصل من كمبردج (١٦٤٤) لمناصرة الملك ، فهرب من إنجلترا إلى باريس . وهناك تعزى عن فقره « بتجليات الذات الإلهية » ، كان المتصوفة الأسبان في نظره كشفًا مقدسًا عن النشوة الدينية والورع . وحين وقف أمام صورة للقديسة تريزا غبطها على ماظفرت به من اختراق سهم المسيح لقلبها ، وتوسل إليه أن قبله تلميذا لها ، منكرا لذاته :

استحلفك بعمل ملكوت هذه القبلة الأخيرة التي أمسكت
بروحك الطاهرة ، وختمتك ملكا للمسيح ، وبكل
السموات التي لك فيه (يا شقيقة الساروفيم الجميلة) ،
وبكل مانجده فيك من صفاته ، ألا تتركى في شيئا من
نفسى ، وأن تدعنى أتأمل حياتك ، بحيث أموت عن
كل حياتى .

قدم كراشو للعالم هذه القصيدة وقصائد غيرها فى ديوانه « خطوات إلى المعبد »
(١٦٤٦) ، وهى خليط متناقض يجمع بين النشوات الدينية والنزوات الشعرية :
ولنا لندرك من خلال هذا الشاعر ، وشاعر آخر مثله متأخر عنه ، هو هنرى
فوجان ، أنه فى تلك الأيام العصبية المحمومة ، لم تكن إنجلترا منقسمة إلى
بيوريتانيين وكلفنيين ، بل وسط حرب الشعر واللاهوت ، وجدت بعض الأرواح
أن الدين ليس كامنا فى الأضرحة الضخمة والطقوس المنومة ، ولا فى التعاليم الرهيبة
والاختيار المرسوم بالكبرياء والزهو ، ولكن فى الاتصال البرىء الواثق ، للنفس
الحائرة الخاشعة ، بالله الغفور الودود .

٦ — شارل الأول يواجه البرلمان ١٦٢٥ — ١٦٢٩

أى طراز من الرجال كان هذا الملك الذى كان على إنجلترا بأسرها أن تقاتل من
أجله ؟ وقبل أن تنتزع العاصفة كل آثار الرحمة والشفقة من قلبه ، كان رجلا
فاضلا إلى حد معقول — كان ابنا عطوفا بارا ، وزوجا مخلصا بشكل غير عادى ،
وصديقا وفيا ، وأبا يحبه أبناؤه حب العبادة ، وكان قد بدأ صراعه فى الحياة
بعلة خلقية فى جسمه ، فلم يكن يستأيع المشى إلى أن بلغ السابعة من العمر . وتغلب
على هذه العاهة بالدأب على ممارسة ألعاب قوية ، حتى استطاع فى سن الشباب
والنضج أن يتقن ركوب الخيل والصيد على أحسن وجه . وعانى من عجز عن
النطق ، فكان حتى سن العاشرة لا يكاد يستطيع الابانة فى كلامه . وفكر أبوه فى
إجراء عملية له فى لسانه ، وتحسن شارل شيئا فشيئا ، ولكن ظل حتى آخر لحظة فى

حياته يتلثم ، وكان عليه أن يتغلب على هذه العقبة بالتزام البطء في الكلام (١٠) .
وعندما قضى أخوه هنرى نخبه ، وكان محبوباً لدى الشعب ، وتركه الوريث
الظاهر للعرش . حامت الشبهات حول اشتراك شارل في موته ، وكان اتهاماً ظالماً ،
ولكنه أسهم في اكتئاب الأمير وسوء حالته النفسية . فأثر العزلة المملة على المرح
الصاحب والإدمان على الحمر في بلاط والده . وبرع في الرياضيات والموسيقى
واللاهوت . وتعلم شيئاً من اليونانية واللاتينية ، وقليلاً من الأسبانية . وأحب
الفن ، فاحتفظ بمجموعة أخيه ، وزاد عليها ، فأصبح جامعاً للتحف مع التمييز بين
الغث والثن منها . وراعياً كريماً للفنانين والشعراء والموسيقين . ودعا إلى بلاطه
الرسام الإيطالي أورازيو جنتلسكى ، ثم روبنز وفانديك وفرانس هالز ، ورفض
هالز ، وجاء روبنز أساساً بوصفه سفيراً . ولكن العالم كله عرف شارل على أنه
الملك المزهو الوسيم ، مع فانديك بلحيته ، وكَم من لوحة للملك بريشة فانديك .
واستمر وليم دوبون . تلميذ فانديك يصور الأسرة المالكة .

وأسهمت أبوة شارل وزواجه في القضاء عليه . لقد ورث عن أبيه فكرته عن
الحق المطلق للملك . وسلطته في سن القوانين وتنفيذها ، والحكم بلا برلمان ،
والغاء القوانين التي يسنها البرلمان . وبدأ أن هذه الفكرة تبررها السوابق ، وكانت
قضية مسلماً بها في فرنسا وأسبانيا ، وكان يشجع شارل على اعتناقها ، بكنجهام
والحاشية والملكة جميعاً . نشأت هنريتا ماريا في البلاط الفرنسي في نفس الفترة التي
كان فيها ريشيليو قد جعل من أخيها لويس الثالث عشر حاكماً مطلقاً مستبداً على
فرنسا بأسرها . فيما عدا ريشيليو نفسه . وقدمت الملكة إلى إنجلترا ، وهي تجهز
عذها بالكاثوليكى . مصطحبة معها في ركب عرسها الكهنة الكاثوليك ، وزاد
من تشدها في التمسك بذهبها ما رأت من العنت الذي يلاقيه الكاثوليك في إنجلترا .
وتحاث الملك . بسحر الجمال والحيوية والذكاء ، وبكل نزوع آل مديتشي إلى
الاشتغال بالسياسة . ولم يكن بد من أن تحت زوجها المخلص على التخفيف من
آلام الكاثوليك في إنجلترا ، ولا ريب في أنها كانت تحلم بتحويل الملك نفسه إلى
الكنيسة . وأنجبت له ستة أطفال . ولابد أنه لقي عناء شديداً في مقاومة رغبتها في تنشئة

الأطفال على العقيدة الكاثوليكية . ولكنه كان قد انتهج نهجاً مخلصاً في التمسك بالعقيدة الأنجليكانية . وتحقق أن بلاده ، إنجلترا ، بروتستانتية إلى حد كبير ، معادية للبابوية التي تنذر بالأخطار .

في ١٨ يونية ١٦٢٥ اجتمع أول برلمان في عهد شارل : مائة من اللوردات — نبلاء وأساقفة — تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات ، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين^(٥٥) ، انتخبوا لمجلس العموم ، بمختلف طرق الاحتيال المالى والسياسى^(٥٦) ، ولم يزعم أحد بأنه كان ثمة ديمقراطية . ومن المحتمل أن مستوى الكفاية في هذا البرلمان أعلى مما كان يمكن أن يأتي به اقتراع البالغين ، فقد ضم كوك وسلدن وبيم وسيرجون اليوت وسير توماس ونورث . وغيرهم ، ممن خلد التاريخ ذكرهم . وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات^(٥٧) . وتكشفت نزعة مجلس العموم في مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكتلكة . وطلب الملك تخصيص أموال للنفقات الحكومية وللحرب مع أسبانيا ، فاعتمد المجلس مبلغ ١٤٠ ألف جنيه (٧ ملايين دولار ؟) ، وتعهد أن يكون هذا المبلغ غير كاف ، فإن الأسطول وحده كان يتطلب ضعف هذا المبلغ . وجرى العمل لمدة قرنين من الزمان ، على منح الملوك الإنجليز طيلة مدة حكمهم . حق فرض رسوم على الصادرات والواردات ، وكنت عادة شلنين أو ثلاثة شلنات عن كل برميل كبير Tun (وحدة سعة ٢٥٢ جالوناً عادة) ومن ستة إلى إثنا عشر بنساً لكل باوند . ولكن القانون الذى سنه البرلمان آنذاك « Tonnage and Poundage » سمح للملك بممارسة هذا الحق لمدة عام واحد فقط . واحتج بأن الاعتمادات السابقة كانت حاشية الملك جيمس تبدها في إسراف وتبذير . كما شكوا من أن الضرائب كانت تفرض دون موافقته ، وتقرر منذ الآن أنه لابد من دعوة البرلمان سنوياً ليفحص كل عام مصروفات الحكومة . واستاء شارل من هذه التدابير والنيات . ولما باتت لندن مهددة بالطاعون ، اتخذ من ذلك ذريعة لحل البرلمان في ١٢ أغسطس ١٦٢٥ .

كان بكنجهام يقبض آنذاك على زمام الأمور في الحكومة ، فإن شارل لم يرث عن أبيه الدوق اللطيف المستهتر فقط ، بل إنه كان كذلك قد تربى في أحضانته ، ورافقه في أسفاره ، في صحبة كان من الصعب معها على الملك (شارل) أن يرى في صديقه مستشاراً غير حكيم يجر عليه الكوارث . وكان بكنجهام ، بتأييد من البرلمان ، قد دفع جيمس إلى الحرب مع أسبانيا ، أما الآن فقد رفض البرلمان اعتماد الأموال اللازمة للحرب . وجهاز الدوق أسطولا ضخماً ليقمع ويهاجم البضائع والثغور الأسبانية ويسلبها ، ولكنه أخفق إخفاقاً تاماً ، أما الجنود العائدون ، الذين لم يتسلموا رواتبهم ، والذين ساءت روحهم المعنوية ، فقد أعمالوا السلب والنهب ونشروا الروح الانهزامية في المدن الساحلية الإنجليزية .

ولما اشتدت حاجة شارل إلى المال ، راض نفسه على دعوة برلمانه الذي ، وقويت المعارضة باشتداد حاجة الملك . وحذره مجلس العموم من فرض الضرائب دون إقرار البرلمان لها . ووصم اليوت الدوق (وكانا يوماً صديقين) بأنه رجل فاسد عاجز ازداد ثراء كلما أخفقت استراتيجيته البلد أو سياستها . وعين البرلمان لجنة لمساءلة بكنجهام . فأنبه الملك قائلاً : « أنا لا أسمح بأن يحقق المجلس مع خدemy ، فما بالكم برجل قريب مني إلى هذا الحد . » فأشار اليوت على المجلس بوقف أية اعتمادات حتى يسلم الملك بحق البرلمان في إسقاط أي وزير ، وذكر شارل البرلمان عاضباً ، بأن في مقدوره أن يفضيه في أية لحظة ، فرد المجلس على ذلك بمحاكمة بكنجهام رسمياً — متهمين إياه بالخيانة ومطالبين بعزله عن منصبه (٨ مايو ١٦٢٦) وأبلغ الملك بأنه لن يقر أية اعتمادات ، حتى يتم ذلك . فحل الملك البرلمان في ١٥ يونيه ، وترك البت في موضوع المسئولية الوزارية للمستقبل .

وبات شارل مرة أخرى معزولاً في ميسس الحاجة إلى المال ، وبيع مقدار كبير من الصحاف الملكية الفضية والذهبية . وطلب إلى البلاد بأسرها أن تبعث بالهبات والهدايا للملك ، ولكن ما جمع منها كان يسيراً ، فإن الثروات البريطانية كانت تناصر البرلمان ، وأمر شارل أعوانه أن يجمعوا رسوم الصادرات والواردات سالفة الذكر . برغم عدم حصوله على موازنة البرلمان ، وأن يستولوا على بضائع التجار

الذين يعجزون عن الدفع . وأمر الثغور بالانفاق على الاسطول ، وأمر وكلاءه بسوق الرجال إلى الخدمة العسكرية عنوة : وهزم رجال الامبراطور القوات الانجليزية الدنمركية التي كانت تقاتل من أجل البروتستانتية في ألمانيا شر هزيمة . فطالب الدنمركيون حلفاء انجلترا بالمعونة التي كانت وعدتهم بها . وأمر شارل بعقد قرض إجباري — فكان على كل دافع ضرائب أن يقرض الحكومة ١ ٪ من قيمة أرضه و ٥ ٪ من ثمن ممتلكاته الشخصية . وأودع الخصوم الأثرياء السجن ، وسبق المعارضون الفقراء إلى الجيش أو البحرية . وفي نفس الوقت حمل التجار البريطانيون المؤن والذخيرة إلى بوردو و لاروشيل للهيجنوت المشتبكين في حرب مع ريشيليو . فأعلنت فرنسا الحرب على انجلترا (١٦٢٧) ، وقاد بكنجهام أسطولا لمهاجمة الفرنسيين في لاروشيل ، ولكن الحملة أخفقت . وسرعان ما نفذ المبلغ الذي جمع من القرض وقدره ٢٠٠ ألف جنيه . وبات شارل مرة أخرى على شفا الانفلاس ، فدعا برلمانه الثالث .

اجتمع البرلمان في ١٧ مارس ١٦٢٨ ، وأعيد كوك واليوت وونتورث وجون هامدن . وأرسلت مدينة هنتنجدون لأول مرة أحد ملاك الأرض الأقوياء الشكيمة ممثلا عنها ، هو أوليفر كرومويل . وفي خطاب العرش طالب شارل بالاعتمادات متجهما ، ثم قال في وقاحة وبغير اكتراث : « لاتأخذوا هذا على أنه تهديد ، فاني احتقر أن أهدد إلا من هم أنداد لي (٥٨) » واقترح البرلمان اعتماد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه ، ولكن قبل التصويت على ذلك ، طلب موافقة الملك على « ملتمس الحقوق » (١٨ مايو ١٦٢٨) الذي أصبح أحد المعالم التاريخية في الطريق إلى « سيادة البرلمان » :

إلى صاحب الجلالة الملك المعظم

إننا في خشوع واحتشام نعرض على مليكتنا وسيدنا . . . أنه من حيث أنه قد أعلن وطبق بقانون . . . من ادوارد الأول ، أنه لا ضريبة ولا معونة يمكن أن توضع أو تفرض ،

بغير الارادة الخالصة لرؤساء الأساقفة والأساقفة وكل ارب
وكل بارون وكل فارس ، وممثل المدن والجامعات والأحرار
من العامة . وورث رعاياك هذه الحرية ، أى أنهم لا يجبرون
على الاسهام فى أية ضريبة أو رسوم أو معونة أو أى
تكليف آخر من هذا القبيل ، لا يكون قد وضع بموافقة
البرلمان موافقة عامة .

ومضى « الملتمس » يحتج على القروض الاجبارية ، وإهدار الملك لحق الفرد
فى التحقيق فى قانونية الاعتقال ، وحق المحاكمة أمام المحلفين كما وردا فى « العهد
الأعظم ١٢١٥ » . وقال كوك : « إننا سنعرف عن طريق هذا الملتمس ما إذا
كتب للبرلمان أن يحيا أو يندثر » . ووافق شارل على الملتمس موافقة غامضة ملتوية ،
وطالب البرلمان بربد أكثر صراحة ووضوحا . وظل على موقفه من وقف
الاعتقادات . فوافق الملك موافقة رسمية أو شكلية . وأحست لندن بأهمية هذا
الاستسلام ومغزاه ، وقرعت النواقيس بشكل لم يسمع له مثيل لعدة سنوات
من قبل .

ونخطا البرلمان خطوة أخرى ، فطالب الملك بعزل بكنجهام ولكنه رفض ،
وفجأة روع الطرفان حين وجسد أن هذه المشكلة خرجت من أيديهما . ذلك أن
جون فلتون — وهو محارب قديم جريح أثقلته الديون ، غاضباً من أجل متأخرات
معاشه ، متأثراً أشد التأثير بالنشرات — اشترى سكين جزار ، ومشى ستين ميلا
من لندن إلى بورتسموث ، وغمس السكين فى صدر بكنجهام ، وسلم نفسه
للسلطات (٢٣ أغسطس ١٦٢٨) . وانهارت أمام الحثة زوجة بكنجهام التى
كانت على وشك الوضع ، واستولى الشعور بالندم على فلتون فأرسل إليها باعتذاراته
وطلب منها الصفح ، فأجابته إلى طلبه . ولكنه أعدم دون تعذيب .

وحذر البرلمان الملك بأن استمراره فى تحصيل رسوم الصادات والواردات
إهدار للملتمس الحقوق ، فأجاب شارل بأن مثل هذه الرسوم لم يرد ذكرها فى
الوثيقة ، فشجع البرلمان التجار على الامتناع عن دفعها (٥٩) وتوكيدا لحق البرلمان
(٢٠)

في سن التشريع الديني ، برغم سيادة الملك الدينية ، نادى بكلفنية صارمة ،
وبتفسير مضاد لآراء أرمينيوس* للمواد التسع والثلاثين باعتبارها قانون انجلترا ،
واقترح ، استنادا إلى السلطة المخولة له ، فرض الخضوع للكنيسة الانجليزية على
هذا الأساس ، وفرض العقوبات على الكاثوليك والأرمنيين على حد سواء (٦٠) .
فأمر الملك برفض البرلمان ، وغادر رئيسه مقعد الرئاسة امتثالا لهذا الأمر ، ولكن
المجلس أبى أن يرفض الاجتماع ، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه . نحن الآن
في ٢ مارس ١٦٢٩ حيث قدم جون اليوت ثلاثة قرارات تنص على أن تكون
جريمة كبرى عقوبتها الإعدام : إدخال المذاهب البابوية أو الأرمنية أو أية أفكار
أخرى تخالف تعاليم الكنيسة القويمة الصحيحة ، والإشارة أو الاشتراك بأي شكل
من الأشكال في جمع رسوم الصادر والوارد التي لم يقرها البرلمان ، ودفع مثل هذه
الضرائب غير المعتمدة . ورفض رئيس المجلس أخذ الرأي على هذه الاقتراحات .
فقام أحد الأعضاء بهذه العملية ، وقابلها المجلس بالهتاف والتصفيق وأقرها .
ومنذ علم أعضاء المجلس بأن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس
وطردهم ، فانهم قرروا فض اجتماعهم ، وانصرفوا .

وفي مارس أمر شارل بسجن اليوت وسلدن وسبعة أعضاء آخرين بتهمة إثارة
الفتنة . وسرعان ما أطلق سراح ستة منهم ، وحكم على الثلاثة الباقين بغرامات
فادحة وبالسجن لمدة طويلة ، ومات اليوت في السجن وهو في سن الثامنة والثلاثين
(١٦٢٢) .

٧ - شارل حاكم مطلق : ١٦٢٩ - ١٦٤٠

ومضت إحدى عشرة سنة - وهي أطول فترة من نوعها في تاريخ إنجلترا لم
يجتمع فيها البرلمان . وبات شارل آنذاك حرا في أن يكون حاكما مطلقا . إنه من
الوجهة النظرية لم يطالب بأكثر مما ذهب إليه جيمس واليزابث وهنري الثامن ،

(*) جاكوب أرمينيوس (١٥٦٠ - ١٦٠٩) - وهو لاهوتي هولندي بروستانت عارض آراء
كالفن ، في القضاء والمقدرة وحرية الإرادة والخلاس .

ولكنه من الوجهة العملية ذهب إلى أكثر مما ذهبوا إليه ، لأنهم لم يبلغوا بسلطات الملك وحقوقه قريبا من حد التوتر والانفجار كما كان يفعل شارل ، بفرض الضرائب غير المقررة ، وعقد القروض الاجبارية ، وإيواء الجنود لدى المواطنين ، وإجراء الاعتقالات التعسفية ، وإنكار حق المسجونين في طلب التحقيق في أمر حبسهم وفي المحاكمة أمام المحلفين ، وتشجيع طغيان محكمة « قاعة المنجم » ، ومحكمة اللجنة العليا وقساوتها ، الأولى في المحاكمات السياسية ، والثانية في القضايا الكنسية ؛ ولكن غلطة شارل الأساسية هي عجزه عن أن يدرك أن الثروة التي يمثلها مجلس العموم أعظم كثيرا من الثورة التي يسيطر عليها الملك أو الثروة الموالية له ، وأن سلطة البرلمان لا بد أن تزداد تبعا لذلك .

وفي أثناء هذه الأزمة ، وقبل أن تستنزف دماء الأمة ، ازدهر الاقتصاد ، لأن شارل - مثل والده - كان رجل سلام ، وأبقى إنجلترا بعيدة عن الحرب طيلة معظم حكمه ، على حين أرهق ريشيليو فرنسا ، كما أصبحت ألمانيا خرابا بلقعا . وبذل الملك المنهوك أقصى الجهد في التخفيف من التركيز الطبيعي للثروة . فأمر بوقف المساحات المسورة وألغى ما أقيم منها في خمس مقاطعات داخلية بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٣٠ ، وفرض غرامات على ٦٠٠ من ملاك الأرض المتمردين (٦١) وأمر برفع أجور عمال النسيج في ١٦٢٩ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٧ ، وأمر قضاة الصلح بفرض رقابة أدق على الأسعار . وعين بلخانا لحماية مستوى الأجور ، والإشراف على إعانة الفقراء . وخلق لود لنفسه أعداء جددا ، بتجذيره أبواب العمل من « إذلال الفقراء واضطرارهم إلى لراقة ماء وجوههم » (٦٢) . ولكن في نفس الوقت منحت الحكومة الاحتكارات في الملح والصابون والنشا والبيرة والنييد والجلود ، وأفادت منها . واحتفظت لنفسها باحتكار الفحم . فكانت تشتريه بأحد عشر شلنا للعبوة ، وتبيعه بسبعة عشر في الصيف وتسعة عشر في الشتاء (٦٣) . وتلك أيضا احتكارات أرهقت الفقراء إلى أبعد حد ، وهاجر إلى إنجلترا الجديدة أكثر من ٢٠ ألفا من البيوريتانيين .

ودفع شارل بأنه كان لا بد له من إيجاد وسيلة لتغطية نفقات الحكومة . وفي

١٦٣٤ حاول محاولة مشثومة : فرض ضريبة جديدة . ذلك أن السوابق جرت من قديم على مطالبة المدن الساحلية بأن تمد الأسطول بالسفن اللازمة له زمن الحرب ، مقابل حمايته لها ، أو أن تدفع ، بدلا من ذلك ، « مال السفن » للحكومة انتفق منه على الأسطول . ولكن شارل الآن ، ونحن في ١٦٣٥ ، فرض « ضريبة السفن » هذه ، وبغير سابقة ، على كل انجلترا بأسرها في زمن السلم ، متدرعا (وهذا حق تماما) بالحاجة إلى إعادة بناء البحرية الخربة ، استعدادا للطوارئ ، ولتتولى حماية التجارة البريطانية ضد قراصنة القنال الإنجليزي . وعارض البكثيرون هذه الضريبة الجديدة ، ورفض جون هامدن دفعها ، اختبارا لمشروعيتها ، فأودع السجن ثم أطلق سراحه . وكان بيوريتانياً موسراً من بكنجهامشير . قال عنه أحد أنصار الملكية — كلارندن ، إنه ليس من مثيرى الثمن بل إنه رجل هادىء « يتميز برزانة ودقة غير عاديتين (٦٤) » . أخفى صلابته في كياسته وبجائته ، وأخفى زعامته في تواضعه .

وتأخرت محاكمة هامدن طويلا ، ولكن أخيراً بدىء بنظر القضية في نوفمبر ١٦٣٧ ، وأورد محامو التاج سوابق «ضريبة السفن» وقالوا بأن للملك في ساعة الخطر الحق في أن يطلب المعونة المالية دون انتظار لانعقاد البرلمان . فأجاب محامو هامدن بأنه لم يكن ثمة ضرورة ماسة تقتضى العجلة ، وحالة طوارئ . وأنه كانت هناك فسحة من الوقت لدعوة البرلمان ، ثم أن فرض الضريبة انتهك ملامس الحقوق الذى قبله الملك . وصدر الحكم لمصلحة التاج بأغلبية سبعة ضد خمسة من القضاة ، ولكن الرأى العام ساند هامدن ، وارتاب في نزاهة القضاة الذين هم عرضة لانتقام الملك . وسرعان ما أطلق سراح هامدن . واستمر شارل حتى ١٦٣٩ يجمع ضريبة السفن . واستخدم الجزء الأكبر منها في بناء البحرية التى قاتلت الهولنديين وانتصرت عليهم في ١٦٥٢ .

وفي الوقت نفسه تجاوزت أخطاء الملك الجسام انجلترا إلى اسكتلنده ، فإنه أزعج المشيخين الاسكتلنديين زواجه من كاثوليكية ، ومدته سلطان الأساقفة على

كنائسهم . وروع نصف الأشراف « بقانون الإلغاء » (١٦٢٥) الذى يقضى بالغاء كل ما منح من أراضى التاج أو الكنيسة منذ ارتقاء ماري ستيوارت إلى العرش . وعين خمسة من الأساقفة ورئيساً للأساقفة أعضاء فى المجلس المخصوص فى اسكتلنده ، ثم عين هذا الأخير وهو جون سبوتيزود Spottiswoode قاضياً للقضاة — وهو أول رجل من رجال الكنيسة يعين فى هذا المنصب منذ عهد الإصلاح الدينى . ثم إنه لما قدم ، بعد إبطاء أو تمهل مثير ، إلى اسكتلنده ليتزوج عليها (١٦٣٣) ، سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التى تكاد تكون فى معظمها مراسم كاثوليكية فى الكنيسة الأنجليكانية — الملابس والشموع والمذبح والصليب . ولما كان الأسقف الإسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات ، فانهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التى صارت تعرف — باسم ” قوانين لود “ ، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاماة فى الفصل فى قضايا الكنيسة ، وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك ، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يحيزهم الأسقف ، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضى هذه النوانين (٦٥) . وأقر شارل هذه القوانين وأمر باعلانها فى كل كائس اسكتلنده . واتج القساسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الدينى بهذه الطريقة قد نسب ، وذكروا من أن شارل يمهّد لإضباع بريطانيا ارومه . وثارت ثائرة الجمهور فى كنيسة سانت جيل فى إدنبرة عند محاولة إقامة الشائر على الشكل الحديد ، وقذف بالعصى والحجارة الكاهن الذى تولى إقامة الشائر ، وطوحت جنى جلدز Jenny Geddes بكرسيها فى رأسه صارخة ” أيها اللص اقلد ، هل أنت الذى ستتلو القداس ؟ (٦٦) “ وانهارت الظلامات والالتماسات على شارل من كل الطبقات تطالب بالغاء ” القوانين الكنسية “ السابق ذكرها . فكان جوابه أنه دمع هذه الملتمسات بالخيانة . وبدأت إسكتلنده الثورة ضد الملك .

وفى ٢٨ فبراير ١٦٣٨ وقع ممثلو الكنيسة الإسكتلندية وسواد الناس فى إدنبرة ” الميثاق الوطنى “ يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها ، ويرفضون القوانين الجديدة ، وينلدرون أنفسهم للدفاع عن التاج وعن ” العقيدة الصحيحة “ .

وبتحريرض من القساوسة أيدت إسكتلنده كلها تقريباً هذا الميثاق . وهرب سبوتزود وكل الأساقفة فيما عدا أربعة ، إلى إنجلترا . وطردت الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية في جلاسجو كل الأساقفة ، وأعلنت استقلالها عن الحكومة . وأرسل الملك أوامره بفض الاجتماع ، وإلا وجهت إلى المشتركين فيه تهمة الخيانة . ولكنهم واصلوا عقد جلساتهم . وحشد الملك جيشاً قوامه ٢١ ألف جندي تعوزهم الحماسة ، ساربه إلى إسكتلنده ، على حين جمع ” الميثاقيرن “ قوة من ٢٦ ألف رجل ألهمهم الحماس الديني والغيرة الوطنية . وعندما تلاقي الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان إسكتلندي حرجية غير مقيدة من الكنيسة الإسكتلندية ، و وقعت الهدنة في بروك Berwick في ١٨ يونية ١٦٣٩ وبذلك انتهت « حرب الأساقفة الأولى » دون إراقة دماء . ولكن الجمعية الجديدة انعقدت في إدنبره في ١٢ أغسطس ١٦٣٩ ، وأكدت القرارات ” الخائنة “ التي اتخذت في مؤتمر جلاسجو ، وصدق البرلمان الإسكتلندي على قرارات الجمعية . واستعد الطرفان ” لحرب الأساقفة الثانية “ .

ودعا الملك للوقوف إلى جانبه ، في هذه الأزمة ، رجلا ثابت الزم كامل المزايا (وكانت هذه الكلمة شعاره) بقدر ما كان الملك متردداً عاجزاً . وكان توماس ونتورث Wentworth قد وصل إلى مقاعد البرلمان وهو في سن الحادية والعشرين (١٦١٤) ، وكان غالباً ما يصوت ضد الملك . وكسبه شارل إلى جانبه بتعيينه رئيساً « لمجلس الشمال » ، وكافأه على نشاطه في تنفيذ سياسة الملك بضمه إلى مجلس شورى الملك وبعث به نائباً للملك في إيرلنده (١٦٣٢) حيث أخذت الثورة هناك سياسته ” البارعة “ التي ارتكزت على كفاية مجردة من الرحمة ، وأقامت سلاماً مشوباً بالغضب . وفي ١٦٣٩ عين ارل سترافورد ورئيساً لمستشاري شارل . ونصح الملك بحشد جيش كبير ، لقمع ” الميثاقين “ ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها . ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان . فدعا ، على كره منه ، برلمانه الرابع ، فلما اجتمع هذا ” البرلمان القصير “ (١٣ أبريل ١٦٤٠) عرض عليه الملك رسالة ضببطت ، التمس فيها الميثاقيون نجدة لويس الثالث عشر (٦٧) . واحتج الملك بأن له الحق ، إزاء مثل هذه الخيانة ؛

فى أن يحشد جيشا ، واتصل جون بيم سرا بالميثاقين ، وقرر أن مشكلتهم مماثلة لقضية البرلمان ضد الملك ، وحرص البرلمان على منع المعونات المالية عن الملك ، وعلى التحالف مع الاسكتلنديين . فحل شارل البرلمان القصير بتهمة الخيانة (٥ مايو ١٦٤٠) . واندلعت الفتنة فى لندن ، وهاجم الرعاع قصر رئيس الأساقفة لود ، فلما لم يجدوه قتلوا كاثوليكييا رفض الصلاة البروتستانتية (٦٨) .

وسار شارل إلى الشمال بجيش جمع ارتجالا ، وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الانجليز (٢٠ أغسطس ١٦٤٠) واستولوا على شمال إنجلترا . ووافق الملك البائس على دفع ٨٥٠ جنيا يوميا حتى يتم التوصل إلى معاهدة مرضية ، ولكنه عجز عن الدفع ، وبقى الجيش الاسكتلندى حول نيوكاسل ، بوصفه حليفا حاسما للبرلمان الانجليزى فى حربه ضد الملك . فدعا شارل ، وقد تولاه اليأس والذهول والحيرة ، مجلسا من النبلاء للاجتماع به فى يورك . فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار ، وأنه لا بد له من تسوية مع أعدائه . وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان ، وهو أطول البرلمانات وأشدّها حسما وأكثرها شؤما فى تاريخ إنجلترا .

٨ - البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان فى وستمنستر فى ٣ نوفمبر ١٦٤٠ . وكان مجلس العموم يضم نحو ٥٠٠ عضوا « زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين مجلس ارسقراطى لاشعبى » (٦٩) ، يمثلون ثروة إنجلترا أكثر مما يمثلون شعبها ، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضى . وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير ، متحفزين للانتقام . وتبوأ سلدن وهامدن وبيم أماكنهم من جديد . وكان كرومول رجلا مرموقا ، ولو أنه لم يرق إلى الزعامة بعد .

ولأنه ليتعذر ، على بعد الشقة ، أن تصور كرومول تصورا موضوعيا . فان المؤرخين منذ ظهر حتى اليوم ، يصفونه بأنه منافق طموح (٧٠) ، أو قديس سياسى (٧١) لأنه شخصية متناقضة ، ربما جمع - وربما وفق فى بعض

الآحيان — في خلقه بين الصفات المتعارضة التى أدت إلى اختلاف الناس في تقديرهم له . وهذا هو مفتاح سيرة كرومويل .

كان كرومويل من ملاك الأرض من غير ذوى الحسب والنسب . الذين لم يتمتعوا بريق الوظائف الحكومية ، ولو أنه أسهم عن غير طيب نفس في الانفاق عليها . مع ذلك فانه كان له أسلافه . فكان والده روبرت كرومويل يملك ضيعة متواضعة في هنتنجدون تدر ٣٠٠ جنيه في العام . وكان جده الأكبر ريتشارد وليامز ابن أخى توماس كرومويل أحد قساوسة هنرى الثامن ، فغير اسمه إلى كرومويل ، وحصل بوصفه كاهنا ، أو من الملك ، على شيء من الضياع والموارد المصادرة من الكنيسة الكاثوليكية (٧٢) ، وكان أوليفر واحداً من بين عشرة أطفال ، وهو الوحيد الذى عمر ، على حين مات الباقيون في سن الطفولة . وكان معلمه في المدرسة الثانوية واعظاً متحمساً ، كتب رسالة يثبت فيها أن البابا عدو المسيح ، وأخرى يعدد فيها العقوبات الالهية للخطائين المعروفين بسوء السمعة . والتحق أوليفر (١٦١٦) بكلية سدنى سسكس في كبردج ، وكان ناظرها صمويل وارد الذى مات في السجن (١٦٤٣) لاتخاذ موقفاً بيوريتانياً عنيدا ضد بدع لود و « إعلان الألعاب » الذى أصدره شارل . والظاهر أن أوليفر ترك كبردج قبل التخرج . وأخيراً في ١٦٣٨ اتهم نفسه بمقارفة شيء من طيش الشباب ونزقه :

تعلمون أية حياة كنت أعيشها . آه لقد عشت في طلام محب إلى نفسي ، وكرهت النور . كنت زعياً ، ولكن زعيم الخطائين الآثمين . إن هذا حق : كان التقى بغيبض إلى قلبي ، ولكن الله حباني رحمته ، آه بركات رحمته سبحانه ، احمدوه واشكروه وأثنوا عليه من أجلى — وتوجهوا إليه من أجلى بالدعاء ، لعل من أسدى هذا الصنيع الجليل أن يتمه يوم المسيح ، أو يوم الحساب (٧٣) .

ومارس كرومويل كل ضروب الندم ، وانتابه هذيان الموت وكل مظاهر القلق العقلى ، مما بقى معه مكتئباً باستمرار ، وتحدث بقية حياته بأسلوب الورع البيوريتانى .

ثم استقر وتزوج وأنجب تسعة أطفال ، وأصبح مواطناً نموذجياً ، إلى حد أنه في ١٦٢٨ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، انتخب ليمثل هنتنجدون في البرلمان . وباع ممتلكاته في هنتنجدون بمبلغ ١٨٠٠ جنيه (١٦٣١) وانتقل إلى سانت إيف St. Ives ، ثم بعدها إلى Ely . وعندما أعادته كمبردج إلى البرلمان (١٦٤٠) وصفه عضو آخر بقوله : ” يرتدى بشكل عادى جداً حلة من قماش بسيط ولم تكن ملابسه الداخلية نظيفة كل النظافة . . . تلتطخ ياقته الصغيرة بقعة أو بقعتان من الدم “ . . . وكان وجهه منتفخاً يميل إلى الحمرة ، وصوته حاداً مجرداً من التناغم — وكان طبعه منتقداً إلى حد بعيد ، ولكن مع القدرة على ضبط النفس (٧٤) ، — وكان يتحين الفرصة الملائمة ، ويخاطب الرب . وكان له قوة عشر رجال . ومهما يكن من أمر ، فإن الله حتى هذه اللحظة ، اصطفى أدوات أخرى .

إن جون بيم هو الذى كشف عن الغضب الذى ساد البرلمان باتهامه سترافورد بأنه يناصر البابوية سرّاً ، وأنه يدبر قدوم جيش من إيرلنده للإطاحة بالبرلمان ، و « تغيير القانون والديانة » (٧٥) . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اتهم مجلس العموم لارل سترافورد ، حيث لم يغفر له المجلس قط تخليه عن الملك — بالخيانة وأمر بإيداعه السجن . وفي ١٦ ديسمبر ، وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الإنجليكانية الجديدة باطلة قانوناً ، اتهم رئيس الأساقفة لود « بالكثلكة » والخيانة ، وأمر بإيداعه السجن كذلك ، واعترف سلدن فيما بعد بقوله : « إننا نعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة من هذا القبيل » (٧٦) . أما شارل فقد أصابه الدهول والحيرة لإزاء هذه الخطوات العنيدة القاسية ، إلى حد أنه لم يتخذ أى إجراء لحماية معاونيه . وبرزت الملكة مخاوف البرلمان حين طأبت إلى كاهن الاعتراف الخاص بها أن يلتمس العون من البابا (٧٧) .

وعادت موجة التأثير والانفعال لدى الفريقين كليهما . وظهر بين المتطرفين في لندن حزب Roota nd Branch (استئصال الأصل والفرع) — وكان يضم ملتون — وتقدم إلى البرلمان بملتمس يطلب فيه إلغاء الحكومة الأسقفية ، واستعادة حكومة الكنيسة إلى الشعب ، ويستنكر فيه ما يقول به بعض الأساقفة من « أن البابا ليس

عدو المسيح ، وأن الخلاص يمكن تحقيقه في العقيدة الكاثوليكية (٧٨) . ورفض المجلس هذا الملتمس . ولكنه أقر تحريم ممارسة الأعمال التشريعية والقضائية على رجال الكنيسة . ووافق اللوردات شريطة احتفاظ الأساقفة بمقاعدهم في مجلس اللوردات . وهذا ، على أية حال ، هو ما كان يريده بالضبط أعضاء مجلس العموم ، لأنهم توقعوا أن الأساقفة في مجلس اللوردات سوف يصوتون دائماً إلى جانب الملك . وزاد النار اشتعالاً ، تلك النشرات التي انهارت ، دفاعاً عن حكومة الأساقفة أو هجوماً عليها . ذهب الأسقف جوزيف هول إلى أن لحكومة الأساقفة حقاً إلهياً ، على أن الرسل ، أو المسيح ، هم الذين أسسوها . فرد عليه خمسة من المعلقين المشيخيين ، في نشرة مشهورة مmhورة باسم مستعار Smectymnuus مكون من الأحرف الأولى لأسمائهم ، وأعقبها خمس هجمات عنيفة شنها ملتون . وفي ١٧ مايو ١٦٤١ عاد كرومويل فاقترح إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاماً . وأقر مجلس العموم المشروع ورفضه مجلس اللوردات . وفي أول سبتمبر قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية كل " الصور الخلية " وأن يمنع في " يوم الرب " (يوم الأحد) الرقص والألعاب الأخرى . واجتاحت إنجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسبيجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الملون ، ومزقت الصور لإرباً (٧٩) . وعاد مجلس العموم فأقر مشروعاً بإقصاء الأساقفة في ٢٣ أكتوبر . فأهاب الملك باللوردات ، معلناً أنه قرر الاستشهاد في سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الأنجليكانية ونظامها ، وقد كان . . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع . ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان . ووقع اثنا عشر منهم احتجاجاً أعلنوا فيه أن أى تشريع يقر في غيبتهم يعتبر باطلاً عقياً . فأدانهم البرلمان وأودعهم في السجن . وأخيراً أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة (٥ فبراير ١٦٤٢) . ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم في البرلمان .

وتابع مجلس العموم تدعيم سلطانه ، فاقترض من مدينة لندن المال اللازم لتغطية نفقاته . وأقر مشروعات قوانين تنص على أن تكون مدة البرلمان ثلاث

سنوات ، وتحرم حل أى برلمان قبل مضي خمسين يوماً من بدء اجتماعه ، وحل البرلمان الحالى دون موافقته . وأصلح نظام الضرائب والقضاء . وألغى محكمة قاعة النجم ومحكمة اللجنة العليا . وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن . وألغى الحكم الصادر ضد هامدن : ومنع الملك حق جمع رسوم الصادات والواردات ، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده . ووافق شارل على هذه الإجراءات ، ولكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة .

وفى مارس ١٦٤١ قدم المجلس ارل سترافورد إلى المحاكمة ، وأدانته بتهمة الخيانة ، وأرسل الحكم إلى الملك لتوقيعه . وخلافاً لما نصيح به لود ، شخص شارل إلى مجلس اللوردات ، وأعلن أنه على الرغم من استعدادة لعزل سترافورد من منصبه ، فإنه لن يوافق قط على إدانته بالخيانة . فأعان أعضاء مجلس العموم أن فى حضور الملك انتهاكاً لحرمة البرلمان وإهداراً لحرية وفى اليوم التالى تجمعت « حشود ضخمة حول مجلس اللوردات وقصر الملك وهى تهتف « العدالة ، العدالة » : وتطالب بإعدام سترافورد . وتوسل مجلس الشورى الذى تولاه الجزع ، إلى الملك أن يدعن ، فأبى . وضم رئيس أساقفة يورك رجاءه لى رجائهم فى أن يوقع الملك على الحكم ، وأنلده النبلاء بأن حياته وحياة المدكة وحياة أطفالهما فى خطر ، ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً أرسل إليه نفس الرجل المحكوم عليه بالإعدام رسالة ينصحه فيها بالتوقيع ، الذى هو البديل الوحيد « لعنف الرعاع (٨٠) » . فوقع شارل ، ولكنه لم يغتفر لنفسه هذا العمل قط . وفى ١٢ مايو ١٦٤١ سيق سترافورد إلى ساحة الإعدام ، ومد لود يديه بين قضبان الزنزانة ليباركه أثناء مروره . ومات « الرجل الكامل » دون أنين أو تشنج ، أمام أعين جمهور معاد .

ووسع لإعدام سترافورد هوة الخلاف فى المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بمحزبي الأحرار والمحافظين - أولئك الذين أيدوا ، والذين عارضوا انتقال سلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد . إن رجالات مثل لوسيووس كارى (فىكونت

فولكلند) وادوارد هايد (ارل كلارندون فيما بعد) وكان كلاهما يساندان البرلمان - نقول إن هؤلاء الرجال تساءلوا : أولا يكون الملك ، بعد تأديبه وتهذيبه بمثل هذه القسوة ، حصنا مرغوبا فيه ضد حكم الرعاع في لندن ، وضد تحكم البيوريتانيين في الدين ، وضد برلمان جامع يمكن أن يقوض أركان الكنيسة ، ويهدد الملكية الخاصة ، ويعرض للخطر الكيان الطبقي في الحياة الانجليزية بأسره ؟ . وربما سلم بيم وهامدن وكرومويل بهذه الأخطار ، ولكن كان ثمة خطر آخر كان يعتلج في نفوسهم ، ألا وهو خوفهم على حياتهم هم أنفسهم إذا استعاد الملك قوته وسلطانه . إن الملك قد يأتي في أية لحظة بجيش نصف كاثوليكي من إيرلنده ، كما اقترح سترافورد من قبل . وقرر البرلمان ، من أجل سلامته وحمايته ، الاحتفاظ بالجيش الاسكتلندي الموالي له في شمال إنجلترا ، وأرسل إلى الاسكتلنديين منحة مبدئية قدرها ٣٠٠ ألف جنيه ، ووعد بدفع إعانة شهرية قدرها ٢٥ ألفا من الجنيهات (٨١) .

وازدادت مخاوف البرلمان باندلاع ثورة عنيفة فجأة في إيرلنده (أكتوبر ١٦٤١) . ودعا فليم أولنل وروري أومور الثالث ، وغيرهما من الزعماء ، إلى حرب التحرير - تحرير ألستر من مستعمرها الانجليز ، وتحرير الكاثوليك من ربة الظلم ، وتحرير إيرلنده من نير إنجلترا . وألهبت الثوار ذكريات الاضطهادات الفظيعة ، وانتزاع الملكية وطرد الأهالي بصورة أليمة ، فقاتلوا قتالا عنيفا وحشيا . أما الانجليز في إيرلنده - دفاعا عما بدا لهم آنذاك أنه ممتلكات شرعية لهم ، وعن حياتهم - فانهم قابلوا الضراوة بأشد منها ، وغدا كل انتصار بمثابة مذبحة . واشتبه البرلمان الانجليزي خطأ في أن الملك أذكى نار الثورة لاستعادة الكاثاكة إلى إيرلنده ، ثم بعد ذلك إلى إنجلترا ، فرفض طالب الملك مالا لحشد جيش لانقاذ الانجليز في شرق إيرلنده ، خشية أن يوجه مثل هذا الجيش ضد البرلمان ذاته . واستمرت ثورة إيرلنده في عمرة ثورة إنجلترا .

واشتدت الثورة حين رفع شارل إلى مرتبة أعلى ، اثنين من الأساقفة المبعدين الذين حوكموا ، فاقترح النواب الناقمون « الاحتجاج الأعظم » ياخصمون فيه قضيتهم

ضد الملك ويعلنون عنها ، ويمكن أن يرغم الملك على منح البرلمان حق الاعتراض على التعيينات في الوظائف الكبرى . وأحسن كثير من المحافظين أن مثل هذا الإجراء سوف ينقل السلطة التنفيذية إلى البرلمان ويشل يد الملك . وازداد الانقسام الحزبي حدة ، والمناقشات عنفا ، واستل الأعضاء سيوفهم ليؤكدوا وجهات نظرهم . وصرح كرومويل فيما بعد بأنه لو كان هذا الاقتراح رفض لركب البحر إلى أمريكا (٨٢) . ولكنه أقر بأغلبية ١١ صوتا . وفي أول ديسمبر ١٦٤١ قدم إلى الملك . وبدأ « الاحتجاج الأعظم » بتوكيد ولاء البرلمان للتاج ، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان ، والأضرار التي ألحقها بالبلاد ، واستعرض العيوب التي عالجتها الإصلاحات البرلمانية ، واتهم « الكاثوليك . . . والأساقفة ، والقسم الفاسد من رجال الدين » والمستشارين ورجال الحاشية الأثانيين ، بالتآمر على « إل انجلترا إلى الكاثوليكية . وأشار إلى تكرار خرق « ملتقى الحقوق » وتكرار حل البرلمانات المنتخبة حلا تعسفيا استبداديا . وطالب الملك بالدعوة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لاعادة المذهب الأنجليكاني إلى ما كان عليه قبل قوانين لود ، واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان ، وأن يستخدم فقط منذ الآن . « مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبررا للوثوق بهم . وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا لجلالته الامدادات اللازمة له ، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار ، كما أراد جلالته (٨٣) » .

وتحمل شارل في الرد على هذا الانذار النهائي . فتخطاه البرلمان إلى الشعب ، وأمر بنشر « الاحتجاج الأعظم » ثم رد شارل فوافق على دعوة مجمع كنسي ليقمع كل « غزوات كاثوليكية » ، ورفض حرمان الأساقفة من حق التصويت في البرلمان ، وأصر على حقه في أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح . ثم طلب مرة أخرى اعتمادات مالية . ولكن البرلمان بدلا من هذا ، اقترح « قانون الميليشيا » الذي يخوله حق السيطرة على الجيش .

ولكن شارل"، في غمرة الحيرة والتردد ، كما هو شأنه دائما ، عمد إلى توجيه ضربة جريئة إلى البرلمان الذى شجبها على أنها عمل من أعمال الحرب . ذلك أنه في ٣ يناير ١٦٤٢ اتهم النائب العام ، باسم الملك ، أمام اللوردات ، خمسة أعضاء من مجلس العموم - بيم ، هامدن ، هوللز ، هسلريج ، ستروود - اتهمهم بالخيانة لعملهم على أن يشق الجيش عصا الطاعة على الملك ، وتشجيعهم " دولة أجنبية " (اسكتلنده) على غزو إنجلترا وشن الحرب على الملك . وفى اليوم الثانى دخل شارل ، تظاهره قوة من ثلثمائة جندي تركهم عند الباب ، إلى مجلس العموم للقبض على الرجال الخمسة ، فلم يجدهم هناك . فقال الملك الحائر المرتبك ، وقد صار فى مأمن ، " أرى أن كل الجبناء قد هربوا " ، وشيعته وهو فى طريقه إلى الخروج صيحات الاستنكار والتوبيخ " الحصانة " . لأن مثل هذا الغزو الملئ بالسلح للبرلمان كان غير مشروع بشكل واضح صريح . وخشية الاعتقال بالحملة ، انتقل النواب إلى دار البلدية " جلد هول " تحت حماية المواطنين . وعندما غادر شارل لندن إلى هامبتون كورت ، عاد النواب ، بما فيهم الخمسة المتهمون إلى وستمنستر . وهربت الملكة هنريتا سرا إلى فرنسا ومعها مجوهرات التاج لتشتري بها العون للملك . وسافر شارل إلى الشمال ومعه أختامه . وحاول أن يدخل هل لتأمين المؤن العسكرية هناك ، ولكن المدينة أبت عليه ذلك . فغادرها إلى يورك . وأصدر البرلمان أوامره إلى جميع القوات المسلحة ألا تتمثل إلا للبرلمان وحده (٥ مارس ١٦٤٢) . وانسحب من البرلمان خمسة وثلاثون من اللوردات وخمسة وستون من النواب ، وانضموا إلى الملك فى يورك . وأصبح إدوارد هايد آنذاك كبير مستشارى الملك .

وفى الثانى من يونية نقل البرلمان إلى شارل تسعة عشر مقترحا رأى أن قبولها ضرورى للصالح . منها أن عليه أن يخول للبرلمان سلطة الاشراف على الجيش وجميع المواقع المحصنة . وأن يكون له حق تعديل الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة ، وتعيين وعزل وزراء التاج وحراس أبناء الملك ، وأن يكون له سلطة إقصاء الاشراف الذين يعينون فيما بعد ذلك ، عن مجلس اللوردات ، ورفض شارل هذه

المقترحات ، على أنها ، عمليا ، تفويض للملكية . وعين البرلمان - وكأنما كان يتدرب على دور الثورة الفرنسية - لجنة " الأمن العام " ، وأمر بأن " يحشد جيش على الفور ، (١٢ يولييه) " وسافر كرومويل وآخرون إلى مواطنهم لجمع المتطوعين وتنظيمهم . وفي نداء إلى الأمة (٢ أغسطس) أسس البرلمان ثورته ، لاعلى رغبته في السيادة البرلمانية ، بل على تفاقم الكاثوليكية في إنجلترا ، وحذر البلاد من أن انتصار الملك لا بد أن يعقبه مذبحة عامة للقضاء على البروتستانت (٨٤) . أوفى ١٧ أغسطس استولى وكلاء البرلمان على المخازن العسكرية في هل . وفي ٢٧ غسطس ١٦٤٢ نشر شارل رايته فوق نوتنجهام ، وبدأت الحرب الأهلية الأولى.

٩ - الحرب الأهلية الأولى : ١٦٤٢ - ١٦٤٦ :

انشقت إنجلترا الآن - بصورة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل في تاريخها المعروف ، وانحاز إلى صف البرلمان لندن والثغور والمدن الصناعية ، وبصفة عامة الجنوب والشرق ، ومعظم الطبقة الوسطى ، وجزء من الطبقة العليا ، وعمليا كل البيوريتانيين . وانضم إلى جانب الملك اكسفورد وكمبريدج والغرب والشمال ، ومعظم الارستقراطيين والمزارعين ، وكل الكاثوليك والانجليكانيين الأسقفيين تقريبا . وكان مجلس العموم منقسما على نفسه ، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو ، على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا . وبلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ ، انجاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم في بداية الأمر ، ورجحت كفة الثورة ضد الملك . وكان في لندن نصف ثروة الأمة ، وقدمت للثورة القروض بسخاء عظيم ، على حين عجز الملك عن الاقتراض من أى مكان . وكان الأسطول يناصبه العداء ، فسد المنافذ على كل معونة أجنبية . ولم يكن أمام الملك إلا أن يعتمد على الهبات والمنح وعلى رجال من الضياع الكبيرة التى أحس أصحابها أن مصلحتهم في تلك الأرض تتحقق بانتصاره ، وانبعثت من جديد في الأسرات القديمة بعض فضائل الفروسية ومشاعرها ، وقدموا المال للملك بلا قيد أو شرط ، وقاتلوا وسقطوا في الميدان كما يسقط كرام الرجال . واندفع الفرسان المفعمون فتوة وحيوية ، بشعورهم المعقوفة ونحيابهم المطهمة بأبهى السروج إلى نحر حرب بطولية ، ومعهم كل الشعراء

إلا ملتون . ولكن الثروة كانت إلى جانب البرلمان .

والتقى الجمعان لأول مرة في ادجهل Edgehill (٢٣ أكتوبر ١٦٤٢) ، وكان كل جيش يتألف من ١٤ ألف رجل . . . وكان الملاكيون تحت قيادة الأمير روبرت Rupert ابن اليزابث أميرة بوهيميا أخت شارل ، وكان في الثانية والعشرين من عمره . أما ” ذوو الرؤوس المستديرة “ أو البرلمانيون فكان يقودهم روبرت دافريه ارل اسكس الثالث . ولم تكن المعركة فاصلة . ولكن اسكس سحب قواته ، وتقدم الملك إلى اكسفورد ليتخذها مقراً لقيادته . ولكن نحميا والنجتون — وهو ييوريثاني متحمس أو سياسي ، أسماها فوزامينا للبرلمان وللرب ، فهو يقول :

هنا ندرك رحمة الله الواسعة . . . لأن جملة القتلى من الجانبين ، كما سمعت ، كان ٣٥١٧ ، ولكن قتل من الأعداء عشرة مقابل كل واحد فقدناه منا . ولكن انظر إلى حسن صنيع الله ، فان الذين قتلوا منا كان معظمهم من الذين ولوا الأدبار . أما الذين صمدوا واستبسوا فقد كتبت لهم النجاة كم أود أن أوتي القدرة على أن أرى كيف أن يد العناية الإلهية صوبت بشكل رائع مدافعنا وقذائفنا لتدمير العدو . . . يا للعجب ، كيف وجه الله قذائفهم . . . إن بعضها سقط أمامهم (من جانبنا) وبعضها مر مروراً عابراً ، وبعضها عبر فوق رؤوسهم ، وأخرى سقطت إلى جانبهم . . . يا لله ، ما كان أقل من مس بأذى برصاص الأعداء ممن وقفوا في وجوههم وقاوموهم ببسالة . . . هذا صنع الله ، وما أروعه في نظري (٨٥) .

على أن الأمور تأزمت في صفوف البرلمانيين في الربيع التالي . فان الملكة هنريتا تسلمت إلى انجلترا ، حاملة معها بعض الأسلحة والذخيرة ولحقت بالملك في اكسفورد .

وضييع إسكس الوقت سدى ، على حين كان الحرب والمرضى ينخران فى جيشه ، وأصيب هامدن يجرى مميت فى بعض المناوشات عند شالجراف فيلد . وهزمت قوة برلمانية فى أدوالتون مور (٣٠ يونيه ١٦٤٣) ، ودمرت قوة أخرى فى راوندواى داون (١٣ يوليه) . وسقطت برستول فى يد الملك . ولما ساءت أقدار البرلمان إلى هذا الحضيض ، ولى وجهه شطر اسكتلنده طلباً للعون . وفى ٢٢ سبتمبر وقع مندوبو اسكتلنده « تحالفاً وميثاقاً مقدسين » ، تعهد الاسكتلنديون بمقتضاه بإرسال جيش لمساعدة البرلمان مقابل ٣٠ ألف جنيه شهرياً ، شريطة أن يقيم البرلمان فى إنجلترا وإيرلنده مذهب البروتستانتية المشيخية — أى حكومة المشايخ فى الكنيسة ، دون سيطرة الأساقفة ، وفى نفس الشهر عقد شارل صلحاً مع المتمردىن الإيرلنديين ، المتقدم بعضهم للقتال فى صفوفه فى إنجلترا . وابتهج الكاثوليك الإنجليز لهذا . وتزايد عدد البروتستانت الذين انقلبوا على الملك . وفى يناير ١٦٤٤ هزم الغزاة الإيرلنديون فى نانتوتش . وتقدم الجيش الاسكتلندى نحو إنجلترا . والآن كانت الحرب الأهلية تضم ثلاث أمم وأربعة مذاهب .

وفى يولية ١٦٤٣ . انعقدت « جمعية وستمنستر » — ١٢١ من رجال الدين الانجليز ، ٣٠ من العلمانيين الانجليز ، وثمانية مندوبين اسكتلنديين (انضموا فيما بعد) — لتحديد البروتستانتية المشيخية الجديدة فى إنجلترا . ولقد عوقت السيطرة البرلمانية أعمال هذه اللجنة حتى باتت تجرأ أذيالها فى مؤتمرات تعقدتها لمدة ست سنوات . وانسحب نقر قليل من الأعضاء كانوا يظاهرون الحكومة الأسقفية . وطالبت فئة قليلة من البيوريتانيين المستقلين ألا يشهد الاجتماع مشيخيون ولا أساقفة . أما الأغلبية — وفاء بتعهد البرلمان ونزولاً على إرادته ، فلأنها أيدت أن يتولى الأمور الدينية فى إنجلترا أو إيرلنده وإسكتلنده شيوخ الكنيسة ومجلسهم والجامع الإقليمية والجمعيات العامة . وألقى البرلمان الحكومة الأسقفية الإنجليكانية (١٦٤٣) ، وأقر التنظيم المشيخى والمذهب المشيخى ، ووضع لها القوانين (١٦٤٦) ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على أية قرارات كنسية . وفى ١٦٤٧ أصدرت الجمعية « اعتراف وستمنستر بالعقيدة والتعاليم الكبرى والتعاليم الصغرى » وكلها تثبت

مذهب كلفن في القضاء والقدر ، والاصطفاء ، والرفض (أى الإخراج من زمرة الإبرار(*)) وأهملت الكنيسة الاتجليكانية وعودة الملكية إلى أسرة ستيورت ، جمعية وستمنستر ، ولكن « الاعتراف والتعاليم » بقيت معمولاً بها نظرياً في الكنائس المشيخية في البلاد الناطقة بالانجليزية .

واتفقت الجمعية والبرلمان على رفض ما تقدمت به الفرق الصغيرة من إلتماس التسامح الديني . واتمست مدينة لندن المتحدة من البرلمان القضاء على كل الهرطقات . وفي ١٦٤٨ قدم أعضاء مجلس العموم مشروعات تقضى بعقوبة السجن مدى الحياة على خصوم تعميم الأطفال ، وبالعقوبة الإعدام على من ينكرون الثالوث الأقدس أو المتجسد أو نزول الكتاب المقدس بوحى من عند الله ، أو خلود الروح (٨٧) . وأعدم عدد من الجزويت فيما بين عامي ١٦٤٢ و ١٦٥٠ . وفي يناير ١٦٤٥ ، اقتيد رئيس الأساقفة لود ، وهو في الثانية والسبعين ، من السجن إلى ساحة الإعدام ، ولكن البرلمان أحس أنه مشغول بالحرب إلى أقصى حد ، وأنه ليس ثمة مجال للفرق والمجاملة . ومهما يكن من أمر فإن كرومول ناضل في سبيل شيء من التسامح . وفي ١٦٤٣ شكل في كمبردج فرقة أطلق عليها « ذوو الدروع الحديدية Ironsides » وهو اسم أطلقه في الأصل الأمير روبرت على كرومويل نفسه ، ورحب بكل الأفراد الذين ينضمون إلى الفرقة من كل الملل والنحل — باستثناء الكاثوليك وأنصار حكومة الأساقفة — « ممن لا تفارق خشية الله نفوسهم » ، ومن يتدبرون

(*) مقتطفة من « اعتراف » وستمنستر ، فقرة ٣ « بأمر الله ، وإظهاراً لمجده وعظمته ، قدر على بعض الناس والملائكة الحياة الخالدة ، وقضى على آخرين بالموت الأبدى . أما الذين كتب عليهم الحياة الخالدة من البشر ، فإن الله — قبل وضع أساس العالم ووفقاً لمشيئته الخالدة الثابتة التي لا تتغير ، وما اقتضت إرادته الخفية — قد اختارهم في المسيح لمجد خالد ، منه ونعمة وحياً ، دون تنبؤ بالعقيدة أو صالح الأعمال ، أو الماثرة على أى منهما ... وكل هذا وفق مشيئته الخالصة سبحانه . أما بقية البشر فعند اقتضت إرادته التي لا مرد لها ، أن يبسط إليهم رحمته ، أو يقبضها عنهم كما يشاء ، لأنه المهيمن على كل خلقه فيتغاضى عنهم ، أو يوقعهم في الخزي ويسلط عليهم العذاب جزاء بما كسبت أيديهم إقراراً للعدالة الإلهية (٨٦) .

ما صنعت أيديهم^(٨٨) . وعندما أراد ضابط مشيخي أن يطرد — من الفرقة ضابطا برتبة مقدم من أنصار تجديد التعميد (إعادة تعميد البالغين ورفض تعميد الأطفال) ، اعترض عليه كرومويل قائلا . « سيدى ، إن الدولة حين تختار موظفيها لا تلتقى بالا إلى آرائهم ، طالما أنهم جادون فى خدمتها بإخلاص ، وهذا يكنى^(٨٩) » . وفى ١٦٤٤ طلب إلى البرلمان « أن يلتمس وسيلة ما للتسامح ، وفقا لما جاء فى الكتاب المندس ، مع ذوى النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون فى كل الأحوال أن يخضعوا لحكم الكنيسة^(٩٠) » . وتجاهل البرلمان هذه الطلب ، ولكن كرومويل ظل يمارس تسامحا نسبيا فى فرقته ، وطوال سيطرته على إنجلترا .

وكان ارتقاء كرومويل إلى مرتبة القيادة مفاجأة من مفاجآت الحرب . إنه شارك لورد فرديناندو فيرفاكس أمجاد النصر فى ونسي (١١ أكتوبر ١٦٤٣) . ولقد هزم فيرفاكس فى مارستون مور (٢ يوليى ١٦٤٤) ولكن رجال كرومويل « الحديديون » أنقذوا الموقف . إن قوادا برلمانين آخرين ، مثل إرل اسكس وإرل مانشستر ، تراجعوا أو عجزوا عن متابعة انتصارهم وأقر مانشستر صراحة بعدم رغبته فى الاطاحة بالملك . وبغية التخلص من هؤلاء القادة ذوى الألقاب ، اقترح كرومويل « قرار انكار الذات » (٩ ديسمبر ١٦٤٤) ، يعتزل كل أعضاء البرلمان بمقتضاه قيادتهم . وهزم الاقتراح ، ولكن عرض من جديد وأقر (٣ أبريل ١٦٤٥) . واعتزل اسكس ومانشستر ، وعين توماس فيرفاكس — ابن فرديناندو — قائدا أعلى — وسرعان ما عين كرومويل قائدا للفرسان ، وأمر البرلمان بتكوين جيش « على طراز جديد » ، من ٢٢ ألف جندى ، وأخذ كرومويل على عاتقه مهمة تدريبه .

ولم يكن لدى كرومويل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب . ولكن قوة شخصيته وخلقه ، وثبات أروته وصموده لتحقيق الهدف ، وبراعته فى التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس ، كل أولئك هيا له القدرة على تشكيل قواته على نظام فذ وولاء فريد : فكان المذهب البيوريتانى يضارع الخلق الاسبرطى فى صنع جنود لا يقهرون ، انهم لم « يؤدوا القسم مثل الفرسان » ، بل على النقيض من ذلك

لم يسمع حلف الأيمان في معسكراتهم قط ، بل لأنها كانت تدوى بالعظات والصلوات .
انهم لم يسلبوا ولم يذهبوا ، ولكنهم اقتحموا الكنائس ليجردوها من الصرر الدينية ،
ويخلصوها من الأسقفين أو البابويين (٩١) . وكانوا يهتفون فرحين أو غاضبين
حين يلاقون العدو . ولم تنزل بهم الهزيمة قط . . . وعند ما كان الملكيون يطاردون
مشاة سير توماس فيرفاكس في ناسبي (١٤ يونية ١٦٤٥) ، حول كرومول بفرسانه
الجدد الهزيمة إلى نصر مبين ، إلى حد أن الملك فقد كل مشاته ومدفعيته ونصف
خيالته ، ونسخا من مراسلاته التي نشرت لتكشف عن خطته في استقدام مزيد من
القوات الايرلندية إلى إنجلترا ، وإلغاء القوانين المناهضة للكاثوليكية .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أحوال الملك تزداد سوءا وبسرعة . فإن مركيز مونروز ،
قائده البطل في اسكتلنده ، بعد عدة انتصارات ، هزم في فيلبوه وهرب إلى
النارة . وفي ٣٠ يولييه ١٦٤٥ استولى جيش البرلمان على باث ، وفي ٢٣ أغسطس
تخلى روبرت عن برستول إلى فيرفاكس ، واتمس الملك ، دون جدوى ، العون
من كل الجهات . وأحس جنوده بأن قضيتهم خاسرة ، فتذرعوا بمختلف المعاذير
وتخلفوا عنه وانضموا إلى العدو . وحاول بالمفاوضات الملتوية مع كل فريق على
حدة أن يوقع الانقسام في صفوف أعدائه — فيفرق بين المستقلين والبرلمان ، وبين
البرلمان والاسكتلنديين ، ولكنه أخفق في ذلك . وكان لتوه قد أرسل زوجته الحامل ،
عبر أراضن معادية ، لتبحر إلى فرنسا ، وأمر الآن الأمير شارل بالفرار من إنجلترا
بأية وسيلة ممكنة . وتنكر هو ، مع اثنين من المرافقين ، وشق طريقه إلى الشمال
حيث استسلم للاسكتلنديين (٥ مايو ١٦٤٦) . ووضعت الحرب الأهلية الأولى ،
بالفعل أوزارها .

١٠ — المتطرفون : ١٦٤٦ — ١٦٤٨

وراود شارل الأمل في أن يعامله الاسكتلنديون ، وكأنه لا يزال ملكا عليهم ،
ولكنهم آثروا أن يعتبروه سجيناً لديهم . وعرضوا عليه أن يعاونوه على استرداد
عرشه ، إذا قبل التوقيع على « التحالف والميثاق المقدسين » وبمقتضى ذلك . يكون
مذهب المسيحية المشيخية إجباريا في كل الجزر البريطانية ، ولكنه أبى عليهم ذلك . وبعث

البرلمان الانجليزى بمندوبيه إلى الاسكتلنديين فى نيوكاسل يعرض عليهم ارتضاء شارل ملكا ، شريطة أن يقبل الميثاق ، ويوافق على إقصاء زعماء الملكيين ، ويسمح بسيطرة البرلمان على كل القوات المسلحة ، وتعيين كبار موظفى الدولة ، ولكن الملك رفض . وعرض البرلمان على الاسكتلنديين مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه لتسديد متأخراتهم ونفقاتهم ، إذا عادوا إلى اسكتلنده وسلموا الملك إلى المندوبين الانجليز . ووافق برلمان اسكتلنده ، وقبل المسال ، لا على أنه ثمن الملك ، بل على أنه تعويض عن نفقات الحرب . وأحس شارل ، على أية حال ، بأنهم قايسوا عليه بالذهب . ونقل إلى هولبى هاوس فى نورثمبتونشير (يناير ١٦٤٧) على أنه سجين البرلمان البريطانى .

واستعرض الجيش الانجليزى المعسكر آنذاك فى سافرون والدين ، على بعد أربعين ميلا من لندن ، استعرض انتصاراته ، وطالب بمكافآت متساوية . ان الاحتفاظ بجيش يبلغ ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، اضطر البرلمان إلى رفع الضرائب إلى ضعف أعلى معدل لها أيام شارل ، ومع هذا تأخر للجند رواتب ما بين أربعة إلى عشرة شهور . وفوق ذلك فإن البوريتانيين الذين انهزموا فى البرلمان ، كانت لهم اليد الطولى فى الجيش ، وحامت الشبهات حول زعيمهم كرومويل فى أن له أطماعا لا تتفق مع سيادة البرلمان . وأسوأ من هذا كله ، أنه كان فى فرقته « أنصار المساواة Levelers » الذين يرفضون أى تمييز بين المراتب فى الدولة وفى الكنيسة ، والذين نادوا بحق الاقتراع للبالغين وبالحرية الدينية . وكان نفر قليل منهم شيوعيين فوضويين . وأعلن ولیم والوين أن كل شىء يجب أن يكون مشاعا مشتركا ، ومن ثم لن تعود هناك حاجة لقيام حكومة ، لأنه لن يكون هناك حينذاك لصوص ولا مجرمون (١٦٢)» وكان جون للبورن Lilburne أعظم دعاة أنصار المساواة يزداد ، بعد كل اعتقال وعقاب ، شعبية فى لندن (١٦٤٦) (١٦٣) . وهوجم كرومويل على أنه من « أنصار المساواة » ولكنه برزهم تعاطفه معهم ، كان يعارض آراءهم ، احساسا منه بأن انجلترا آنذاك لا بد أن تزدى فيها الديمقراطية إلى الفوضى .

واستاء البرلمان ؛ وهو آنذاك « مشيخي » . لما ينطوى عليه من خطر ، وجود جيش عرمرم مزعج ، في مكان قريب ، وهو جيش مستل ذو قوة . فأقر مشروعا بـ تسريح نصفه ، وتسجيل الباقي متطوعين للخدمة في أيرلنده . فطالب الجنود بمتأخر رواتبهم ، فأقر البرلمان صرف جزء منها نقدا والباقي وعودا . ورفض الجنود أن يتفرقوا إلا إذا دفعت استحقاقاتهم ورواتبهم كاملة . وجدد البرلمان المفاوضات مع الملك ، وكاد أن يصل معه إلى اتفاق على إعادته إلى العرش ، شريطة قبوله « الميثاق » لمدة ثلاثة أعوام . وحذر الملك من قبول هذا العرض ، ولكن جماعة من الفرسان هاجمت هولمى هاوس وأسرت الملك ، واقتادته إلى نيوماركت (٣ - ٥ يونيه ١٦٤٧) ، وأسرع كرومويل إلى نيوماركت ، وجعل من نفسه رئيسا « لمجلس من الجيش » ، وفي ١٠ يناير بدأ الجيش مسيرة غدير متعجلة إلى لندن . . وفي الطريق أرسل إلى البرلمان إعلانا صاغه أساسا صهر كرومويل القدير ، هنرى أيرتون Ireton ، ندد فيه باستبداد البرلمان الذي لم يكن خيرا من استبداد الملك ، وطالب بانتخاب برلمان جديد مع توسع في حق الانتخاب . ووقع البرلمان بين نارين ، فإن التجار والصناع وأهل لندن كانوا يخشون احتلال الجيش للمدينة ، وطالبوا ، في صخب شديد بعودة الملك ، وفق أية شروط كانت ، تقريبا . وفي ٢٦ يوليه اقتحمت الجموع البرلمان وأرغموه على دعوة الملك إلى لندن ، ووضع المديشيا تحت قيادة المشيخيين . وترك سبعة وستون من « المستقلين » البرلمان إلى الجيش .

ودحلت القوات لندن في ٦ أغسطس ، وأتوا بالملك معهم ، وأعيد « المستقلون » السبعة والستون إلى أماكنهم في البرلمان ، الذي سيطر عليه الجيش منذ تلك اللحظة إلى أن قبض كرومويل على زمام الأمور . ولم تشب تصرفات الجيش شائبة من الفوضى أو التشويش ، ولم تكن مجردة من المبادئ ، بل حافظ على النظام في المدينة ، وفي القوات المسلحة نفسها ؛ بل إن الأجيال التالية أجازت مطالبه التي يحتمل أنها كانت غير عملية في أوانها . وفي نشرة بعنوان « قضية الجيش مدونة بصدق وأمانة » (٩ أكتوبر ١٦٤٧) طالب بحرية التجارة وإلغاء الاحنكارات ، وإعادة الأراضي العامة إلى الفقراء ، وألح على ألا يرغم إنسان على الشهادة ضد نفسه

في المحكمة (٩١). وفي « اتفاقية الشعب » (٣٠ أكتوبر) أعلن « أن كل السلطة أصلاً وأساساً في مجموع الشعب بأسره » ، وأن الحكومة العادلة الوحيدة هي التي تكون عن طريق ممثلين ينتخبون انتخاباً حراً يتوفر فيه حق الاقتراع للبالغين ، وأنه بناء على هذا ، فإن الملوك واللوردات ، إذا سمح لهم بالبقاء فيجب أن يكونوا خاضعين لمجلس العموم ، وأنه لا يجوز إعفاء أحد من سلطة القانون ، وأنه يجب تمتع الجميع بالحرية الدينية الكاملة (٩٥). قال الكولونيل رينزورو « إن كل من ولد في إنجلترا ، الفقير أو أحمق الناس في المملكة ، يجب أن يكون له صوت في اختيار أولئك الذين يضعون قوانين البلاد ، تلك القوانين التي يعيش ويموت في ظلها. (٩٦) . »

وخفف كروموويل من حدة المناقشة بدعوة زعمائها إلى الصلاة . واتهمه « أنصار المساواة » بالنفاق والتفاوض سراً لإعادة الملك ، واعترف بأنه لا يزال يؤمن بالملكية ، وأوضح لهم أن معارضة مقترحاتهم ستكون شديدة إلى حد لا يمكن معه التغلب عليها ، « بقوة العضلات » وحدها . وبعد نقاش طويل أقنع الزعماء بأن يخففوا من مطالبهم بالاقتراع العام إلى طلب التوسع في حق الانتخاب . ورفض بعض الجنود هذا الحل الوسط ، وعلقوا « اتفاقية الشعب » في قبعاتهم ، وتجاهلوا أمر كروموويل بالانصراف . وقبض على ثلاثة من زعماء الفتنة ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية قضت بإعدامهم . فأمرهم كروموويل بإجراء القرعة على حياتهم ، ومن يخسر يعدم . وعاد النظام سيرته .

وفي الوقت نفسه تمكن الملك من الهرب من سجنائه العسكريين ، واتخذ طريقه إلى الشاطئ وإلى جزيرة وايت حيث وجد مأوى أميناً في قلعة كارسبروك (١٤ نوفمبر ١٦٤٨) . وشدد من عزمته ما تراهي إليه من أنباء ثورة الملكيين ضد البرلمان في الريف وفي الأسطول ، وعرض عليه المندوبون الإسكتلنديون في لندن سراً ، أن يمدوه بجيش يعيده إلى عرشه إذ قبل إقامة النصرانية المشيخية وإبطال ما تدّعيها من المذاهب المسيحية . وارتضى الملك هذا « الارتباط » ولكنه حدده

بثلاث سنوات . وذاكر المندوبون لندن ليحشدوا جيشاً . واعتمد البرلمان الإسكتلندي خططهم لغزو إنجلترا ، وأصدر في ٣ مايو ١٦٤٨ بياناً يطالب كل الانجليز بالالتزام « بالميثاق » ، ويحظر كل الأشكال الدينية فيما عدا المشيخية ، ويأمر بحل جيش « المستقلين » ورأى البرلمان الانجليزي أن تنفيذ هذه المقترحات لا يعنى شيئاً إلا التضاء عليه وإخضاع إنجلترا للإسكتلندية . وأصرح بمصالحة كرومويل ، وأقنعه بأن يقود قواته ضد الإسكتلنديين . ولا ريب أن البرلمان سر لإبعاد كرومويل ، والإلقاء به إلى التهلكة ، وبعد ثلاثة أيام من الأخذ والرد أقنع الجيش بأن يتبعه إلى ميدان المعركة . وتبعه الجيش على كره منه ، وأقسم بعض الزعماء أنهم إذا قدر لهم إنقاذ إنجلترا فلسوف يكون من « واجبههم أن يستدعوا رجل الدم ، شارل ستوارت ، ايقدم حساباً عن الدماء التي سفكها » (١٧) .

١١ — وأسدل الستار : ١٦٤٨ — ١٦٤٩

استطاع كرومويل بفضل ما أوتي من طاقة أن يقصر من أمد الحرب الأهلية الثانية . فعلى حين أحمد فيرفاكس ثورات الملكيين في كنت ، اتجه أوليفر غرباً واستولى على معقل ملكي في ويلز . وعبر الاسكتلنديون نهر تويد في ٨ يولييه ، وتقدموا في سرعة مذهلة حتى صاروا على بعد نحو ٤٠ ميلاً من ليفربول . وفي برستون ، في لنكشير ، التقى جيش كرومويل المكون من تسعة آلاف جندي ، مرتين ، بهذا الجتمع من الاسكتلنديين والخياله الملكيين وأوقع بهم هزيمة منكرة (١٧ أغسطس) .

وبينما كان كرومويل وجنوده يعملون على إنقاذ البرلمان ، دبر البرلمان أن يحمي نفسه منهم ، بفتح باب المفاوضات من جديد ، لإعادة الملك . ولكنه أصر على أن يوقع الملك « الميثاق » وأن يضعه موضع التنفيذ ، فرفض الملك . وعرض الجيش العائد أن يؤيد عودته إلى العرش مع الحد من حقوقه الملكية إلى أضيق الحدود ، فأبى (١٧ نوفمبر) . وبغية أن يقطع الجيش الطريق على البرلمان ليعيد الملك إلى العرش ، قبض عليه ثانية وأودعه قلعة هيرست المواجهة لجزيرة وايت ، وشجب البرلمان هذا التصرف ، واقترح على قبول شروط الملك أساساً لتسوية النزاع — فأعلن قادة الجيش الذين

كانوا يتوقعون الموت ، إذا عاد شارل ، أنه لن يسمح بالدخول إلى مجلس العموم إلا لمن ظلوا على « ولائهم وإخلاصهم للمصلحة العامة » . وفي بواكير يوم ٦ ديسمبر أحاطت قوة من الجند تحت قيادة كولونيل توماس برايد ، بمجلس العموم ، واقتحمته ، ومنعت أو طردت ١٤٠ من الأعضاء الملكيين والمشيخين ، وأودعت السجن أربعين عضوا أبدوا شيئا من المقاومة (٩٨) . واستحسن كرومويل هذا الاجراء . واشترك في الاقتراع على سرعة محاكمة الملك وإعدامه .

لم يبق الآن من الأعضاء الخمسائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين . وأقر هذا « البرلمان الأثارة » (الذى لم يبق فيه إلا نفر قليل) ، بأغلبية ستة أصوات ، قانونا ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم ، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) ، قرر النواب أن الشعب « بعد الله مصدر كل سلطة عادلة » وأن النواب ، وهم يمثلون الشعب ، « أصحاب السلطة العليا في هذه الأمة » ، وأنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون ، دون موافقة اللوردات أو الملك . وفي ٦ يناير عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء - وهو ألجرون سدن - كرومويل بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ، ليحاكموا ملكا . ففقد كرومويل صوابه وصاح في وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج (٩٩) » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك . فعرضوا تبرئة شارل إذا وافق على بيع أراضي الأساقفة ، وتنازل عن حقه في الاعتراض برفض قرارات البرلمان . ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة إنجلترا . وليس ثمة من ينازع في شجاعته ،

وبدأت المحاكمة في ١٩ يناير ١٦٤٩ . وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة في طرف من قاعة وستمنستر ، واصطف الجند في الطرف الآخر ، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين ، وأجلس شارل وحده وسط القاعة . وتلا جون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام ، وطلب إلى الملك أن

يجيب ، فأنكر شارل سلطة المحكمة في محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب إنجلترا ، وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليه الجيش ، هي أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو قط ، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المناير باستتكار المحاكمة وشجبها . وخشى برادشو على حياته في الشوارع ، وأرسل الأمير شارل من هولنده صحيفة لا تحمل إلا توقيع ، ووعد القضاة بالموافقة على أية شروط يدونونها فوق اسمه ، إذا هم أبقوا على حياة والده (١٠٠) . وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فداء للملك (١٠١) ، فرفض عرضهم . ووقع تسعة وخمسون من القضاة ، من بينهم كرومويل ، الحكم بالاعدام . وفي ٣٠ يناير سار الملك في هدوء إلى الموت ، أمام جمهور غفير تملكه الرعب . وبضربة واحدة من بلطة الجلاد قطع رأسه . وكتب شاهد عيان « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم ، بشكل لم أعهد قط من قبل ، وأرجو ألا أسمعه من بعد » (١٠٢) .

وهل كان الاعدام عملا مشروعا ؟ إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك . فإنه طبقا للقانون المعمول به ، يكون البرلمان شيئا فشيئا ، ويشكل قاس ، قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التي أقرتها السوابق لمائة عام . فالثورة على التحديد أمر غير مشروع ، ولبس أمامها من طريق لتدفع بالحديد إلى الأمام إلا هدم القديم . وكان شارل مخلصا في الدفاع عن السلطات التي ورثها عن إليزابث وچيمس ، لقد أثموا ضده قدر ما أثم هو ، وكانت غلظته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الحديد للثروة ، اقتضى ، من أجل الاستقرار الاجتماعي ، توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان الاعدام عدلا ؟ إذا نحى القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضروري لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كرومويل وأيرتون وفيرفاكس وكثيرين غيرهم ، وربما مع مختلف ألوان التنكيل والعداب التي يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الاعدام عملا حكيما ؟ من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح أ

أن كرومويل اعتقد بأن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز المليكين الى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذي لا يمكن الوصول إليه في فرنسا أو هولنده ، والذي لم تلوئه أخطاء والده ، والذي لا بد أن تكلل هامته وشيكا بأعجاد البطولة . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به في الشعور الوطني الذي استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوحى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة فإنه عندما وقع جيمس الثاني ، ابن شارل ، بالمثل ، في الخطأ الجسيم ، تدبرت ثورة ١٦٨٨ الجلييلة الأمر ، في دهاء ارسقراطي ، وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة دائمة . ومهما يكن من أمر ، فإن الثورة السابقة هي التي مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

إن الثورة الكبرى تماثل ثورات الهيجونوت في فريسا القرن السادس عشر ، كما تماثل ، برغم الفوارق الكثيرة ، الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — فهناك في الحالة الأولى العصيان المسلح للكفنية البسيطة العابسة التي شدت من أزرها الثورة التجارية ، ضد الكنيسة الشديدة التمسك بالشعائر والطقوس وضد الحكومة الاستبدادية المطلقة . وهناك في الحالة الثانية ثورة الجمعية الوطنية التي تمثل سلطان المال وقوة الطبقة الوسطى ، ضد ارسقراطية تمتلك الأرض يتزعمها ملك حسن النية ولكنه متخبط مرتبك . وما وافى عام ١٧٨٦ حتى كان الانجليز قد استوعبوا ثورتهم ، وكان في مقدورهم أن ينظروا بعين الفزع القلق ، عن اقتناع ، إلى ثورة خضبت بالدم ، مثل ثورتهم ، أرض دولة وقتلت ملكا ، لأن الماضي حاول أن يقف جامدا لا يريم .

المراجع NOTES

CHAPTER I

1. Froude, *Reign of Elizabeth*, I, 11.
2. Neale, *Queen Elizabeth*, 26.
3. *Ibid.*, 37.
4. Froude, I, *Introd.*, vii.
5. Read, G., *Mr. Secretary Cecil and Queen Elizabeth*, 31.
6. *Ibid.*, 119.
7. Hughes, P., *The Reformation in England*, III, 46.
8. Froude, *Elizabeth*, III, 306.
9. Froude, I, 448.
10. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 105.
11. Hallam, *Constitutional History of England*, I, 145.
12. Lingard, J., *History of England*, VI, 314.
13. Christopher Hatton in *Shakespeare's England*, I, 80.
14. Neale, 61.
15. *Ibid.*, 75-6.
16. *Shakespeare's England*, I, 5.
17. Neale, 186.
18. Froude, I, 110.
19. *Cambridge Modern History*, III, 189.
20. Froude, IV, 61.
21. Thornton, *Table Talk from Ben Jonson* to Leigh Hunt, 9.
22. Hallam, I, 133.
23. Neale, 80.
24. Read, 161.
25. Froude, II, 84.
26. *Camb. Mod. History*, II, 581.
27. Froude, I, 300.
28. *Ibid.*, 101.
29. *Ibid.*, 491.
30. Creighton, *Queen Elizabeth*, 154.
31. Church, R. W., *Spenser*, 116.
32. Lingard, VI, 121.
33. Aubrey, *Brief Lives*, 104.
34. Chute, *Shakespeare of London*, 145.
35. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, 869, *Apophthegm* 45.
36. Froude, V, 306.
37. Sir John Hayward in Munt, K., *Elizabethan and Jacobean Prose*, 1.
38. Chute, *Ben Jonson*, 164.
39. Froude, I, 8, 14.
40. *Ibid.* and 145, II, 218. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 199-200.
41. Ascham, *The Schoolmaster*, 81.
42. Froude, III, 2.
43. Lamb, *English Literature*, 160.
44. Smith, Prentiss, *The Age of the Reformation*, 634.
45. Robertson, J. M., *Short History of Free-thought*, II, 5, 6.
46. Bradbrook, *The School of Night*, 7; Boas, *Marlowe and His Circle*, 90; and the ed. of *Love's Labour's Lost* by A. T. Quiller Couch and J. Dover Wilson, London, 1923.
47. Bradbrook, 39.
48. *Ibid.*, 12.
49. Robertson, *Free-thought*, II, 10.
50. Green, J. R., *Short History of the English People*, ch. vii, sect. 3.
51. Froude, I, 183; IV, 65; V, 228.
52. *Ibid.*, IV, 385-6.
53. *Camb. Mod. History*, II, 562.
54. Chute, *Ben Jonson*, 70.
55. Roeder, *Catherine de' Medici*, 492.
56. Froude, IV, 119; Neale, 215.
57. Payne, E. A., *The Anabaptists of the 16th Century*, 19; Lingard, VI, 170.
58. Pastor, *History of the Popes*, XVII, 250.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 150.
60. Froude, I, 329.
61. *Ibid.*, II, 345; Hughes, III, 159.
62. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, I, 6; *Camb. Mod. History*, III, 349.
63. Lingard, VI, 122.
64. Hughes, III, 189.
65. Pastor, XIX, 441-2.
66. *Ibid.*
67. McCabe, *Candid History*, 148.
68. *Ibid.*, 150.
69. Froude, IV, 284.
70. *Ibid.*, 204-5.
71. Lingard, VI, 165; Froude, IV, 197.
72. Pastor, XIX, 458.
73. Hughes, III, 315-6.
74. Neale, 265.
75. Hughes, III, 363; Williams, F. B., *Elizabethan England*, 10.
76. Froude, V, 238.
77. Hughes, III, 380; Neale, 299.
78. Hallam, I, 169; Lingard, VI, 157.
79. Hughes, III, 191-6.
80. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 216-7, Hallam, I, 190.
81. Hallam, I, 198.
82. Hughes, III, 408.
83. Lea, H. C., *Studies in Church History*, 508.
84. Neale, 178.
85. Hallam, I, 105.
86. *Camb. Mod. History*, III, 245.
87. Walton, Isaac, *Life of Richard Hooker*,

- in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 556.
188. Hooker, Richard, *Works: Laws of Ecclesiastical Polity*, I, x, 4, 8.
89. *Ibid.*, VIII, vi, 11.
90. *Ibid.*, I, i, 1.
91. Froude, IV, 237.
92. *Ibid.*, 191.
93. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, III, 199.
94. Froude, IV, 233, 236.
95. *Ibid.*, 233.
96. Froude, II, 466.
97. *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., XV, 778b.
98. Froude, II, 211.
99. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 122; Froude, II, 468.
100. Barnes, *Economic History*, 265.
101. Acton, J. E., *Lectures on Modern History*, 152; Davies, E. Trevor, *The Golden Age of Spain*, 212; Froude, III, 309; V, 37.
102. Froude, V, 344.
103. *Ibid.*, 400.
104. Michelet, Jules, *Histoire de France*, IV, 4.
105. Froude, V, 413.
106. *Ibid.*, 430-1.
107. Spedding, J., *Life and Times of Francis Bacon*, I, 56.
108. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 173.
109. In Eddy, Sherwood, *The Challenge of Europe*, 205n.
110. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 6.
111. Clarendon, Robert Devereux and George Villiers, in Clark, *Great Short Biographies*, 603.
112. Spedding, I, 21.
113. *Ibid.*, 179.
114. *Ibid.*, 56.
115. Strachey, 65.
116. Spedding, I, 231.
117. Spedding, note to Rawley's *Life of Bacon*, in Bacon, *Philosophical Works*, 3.
118. Strachey, 172; Spedding, *Life of Bacon*, I, 227; Creighton, *Queen Elizabeth*, 279.
119. Holzknicht, *Backgrounds of Shakespeare's Plays*, 301; Chambers, E. K., *William Shakespeare*, I, 354; Strachey, 241.
120. Spedding, I, 343-8.
121. Strachey, 264-5.
122. Creighton, 295.
123. Strachey, 279.
124. In Muir, *Elizabethan and Jacobean Prose*, 39.
125. *Ibid.*, 40.
126. *Hamlet*, III, iii, 15-23.
127. Bacon, *Advancement of Learning*, Preface to the King.
128. Henry VIII, V, v, 18.

CHAPTER II

1. A phrase of unknown origin, as old as 1300.—Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 143.
2. Bernal, *Science in History*, 284; Wolf, A., *History of Science in the Eighteenth Century*, 630.
3. Trevelyan, *English Social History*, 191.
4. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 38; Traill, *Social England*, III, 365; Froude, *Henry VIII*, I, 19; Lipson, *Growth of English Society*, 157f..
5. *Shakespeare's England*, I, 320.
6. Rogers, *Economic Interpretation*, 37; Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 84, 88, 100.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 94; *Shakespeare's England*, I, 331.
8. Creighton in Traill, III, 373.
9. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, II, 515n.
10. Smith, P., *Age of the Reformation*, 476.
11. Beard, Chas., *Toward Civilization*, 227.
12. Trevelyan, *Social History*, 160-1.
13. Wolf, *History of Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 614.
14. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 497.
15. Sée, H., *Modern Capitalism*, 55.
16. Trevelyan, *Social History*, 120.
17. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, IIIa, 324.
18. Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 26.
19. Froude, *Elizabeth*, II, 88.
20. Chute, *Shakespeare of London*, 63.
21. Ascham, *Schoolmaster*, 71-8 and end.
22. Einstein, Lewis, *Italian Renaissance in England*, 160.
23. Hughes, III, 137.
24. Goethe, *Faust*, Part II, lines 616-18, quoted in Haydn, II., *The Counter-Renaissance*, 362.
25. *Camb. Mod. History*, III, 363.
26. Chute, *Ben Jonson*, 41.
27. Trend, J. B., *Civilization of Spain*, 110.
28. Hughes, III, 144.
29. *Shakespeare's England*, I, 416.
30. Froude, *Elizabeth*, V, 461.
31. Trevelyan, *Social History*, 140.
32. Lingard, VI, 323.
33. *King Lear*, IV, vi.
34. Lingard, VI, 323.
35. Hallam, I, 35.

36. *Shakespeare's England*, I, 398.
37. Froude, *Elizabeth*, IV, 122-3; *Shakespeare's England*, I, 400.
38. Hallam, I, 234; Spenser, E., *Poetical Works*, Introd., xxiii.
39. Browne, Sir Thos., *Religio Medici*, Introd., x.
40. Garrison, *History of Medicine*, 819.
41. Bacon, Essay "Of Gardens," in *Philosophical Works*, 791.
42. *Merchant of Venice*, I, ii.
43. *Asch About Nothing*, III, iv.
44. Holzknacht, 44.
45. Philip Stubbs in James, B. B., *Women of England*, 250.
46. Wright, Thomas, *Womankind in Western Europe*, 334.
47. *Merchant of Venice*, III, ii, 89.
48. *Shakespeare's England*, II, 94.
49. Wright, Thomas, *History of Domestic Manners and Sentiments in England*, 456.
50. James I., *A Counterblast to Tobacco* (1604), in Muir, 89.
51. McKinney and Anderson, *Music in History*, 278.
52. *Oxford History of Music*, II, 221.
53. *Ibid.*, 208.
54. Haydn, H., *The Portable Elizabethan Reader*, 666.
55. Burney, C., *General History of Music*, II, 306.
56. In the National Portrait Gallery, London.
57. Blomfield, R., *Short History of Renaissance Architecture in England*, 37.
58. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 34; Blomfield, 86.
59. *Ibid.*
60. Haydn, *Counter-Renaissance*, 13.

CHAPTER III

1. Burton, Robert, *Anatomy of Melancholy*, 7.
2. *Shakespeare's England*, II, 183.
3. Putham, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 258.
4. *Shakespeare's England*, II, 217.
5. *Cambridge History of English Literature*, III, 369.
6. Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 68.
7. Camb. *History of English Literature*, III, 372.
8. Ascham, *Schoolmaster*, 17-23.
9. Haydn, *Portable Elizabethan Reader*, 183.
10. Lyly, *Euphues: The Anatomy of Wit*, 3.
11. Greene, Robert, *A Groats-worth of*

- Wit Bought with a Million of Repentance*, in Taine, *English Literature*, 168.
12. In Muir, 28.
13. Symonds, J. A., *Shakespeare's Predecessors*, 435.
14. Saintsbury, *History of Elizabethan Literature*, 233.
15. Bourne, Sir Philip Sidney, 75.
16. Aubrey's *Brief Lives*, 278.
17. Bourne, 115.
18. *Ibid.*, 27-30.
19. *Ibid.*, 277.
20. Sidney, Philip, *Works: Defense of Poetry*, 9.
21. Sidney, *Works*, III, 14.
22. *Ibid.*, I, 7.
23. *Ibid.*, I, 16.
24. *Defense of Poetry*, 41.
25. Sidney, Sonnet xxxi.
26. Bourne, 326.
27. In Haydn, *Elizabethan Reader*, 394.
28. Bourne, 349.
29. Spenser, *Poetical Works*, 559.
30. Prefatory Letter to Raleigh, in *Poetical Works*, 407.
31. *Faerie Queene*, II, xii, 78.
32. Thornton, *Table Talk*, 1.
33. Van Doren, *Anthology of World Poetry*, 1026.
34. Aristotle, *Poetics*, 1449-50.
35. *Defense of Poetry*, 38.
36. Mantzius, *History of Theatrical Art*, III, 11.
37. *Shakespeare's England*, II, 241.
38. Chambers, E. K., *The Elizabethan Stage*, I, 255.
39. Holzknacht, 110.
40. Chambers, *Elizabethan Stage*, I, 258.
41. Shakespeare, *Twelfth Night*, II, iii.
42. *Pericles*, IV, ii.
43. Chambers, *Elizabethan Stage*, IV, 273-5.
44. *Henry V*, I, i, 13.
45. *Hamlet*, III, ii, 10.
46. Holzknacht, 153.
47. *Shakespeare's England*, II, 277.
48. *Hamlet*, II, ii, 354.
49. Mantzius, III, 228.
50. Marlowe, *Works*, Appendix, 428-30.
51. Bakeless, John, *Tragicall History of Christopher Marlowe*, 112.
52. Symonds, *Shakespeare's Predecessors*, 437.
53. Bakeless, 113.
54. Marlowe, *Tamburlane*, Part I, Act II, vii.
55. France, A., *The Gods Are Thirsty*, 57.
56. *Ecclesiastes*, i, 18.
57. Marlowe, *Faustus*, I, i.
58. *The Jew of Malta*, II, iii.

59. Ibid., I, i.
60. Ibid., II, i.
61. *Tamburlane*, Part I, Act I, i.
62. Bakeless, 156; *Esquire Magazine*, December 1954.

CHAPTER IV

1. Chambers, *William Shakespeare*, II, 264.
2. Ibid., 257.
3. Lee, Sidney, *Life of William Shakespeare*, 22.
4. Chambers, *Shakespeare*, II, 188.
5. Ibid., 189.
6. Ibid., 259, 265.
7. Shakespeare, Sonnet xxix.
8. Sonnet cx.
9. Chute, *Shakespeare*, 269.
10. Sonnet clxii.
11. Lee, 68.
12. Raleigh, W., *Shakespeare*, 150.
13. Chambers, *Shakespeare*, I, 434.
14. *As You Like It*, II, vii.
15. *King Lear*, IV, vi, 120.
16. *Timon of Athens*, IV, i, 35.
17. Ibid., IV, iii, 54.
18. Ibid., IV, iii, 151f.
19. *Troilus and Cressida*, II, ii, 166.
20. *Coriolanus*, I, iv, 57.
21. Thornton, *Table Talk*, 5.
22. *Encycl. Brit.*, III, 781b.
23. *Two Gentlemen of Verona*, I, i, 71.
24. *The Tempest*, I, ii, 129.
25. *Midsummer Night's Dream*, II, iii, 61.
26. *Hamlet*, II, ii, 310.
27. *Romeo and Juliet*, I, ii, 139.
28. *Julius Caesar*, I, ii, 139.
29. *Tempest*, II, i, 47.
30. Hauser, A., *Social History of Art*, I, 422.
31. *Love's Labour's Lost*, I, i, 166.
32. *Richard III*, I, i, 1.
33. Ibid., I, i, 24.
34. *2 Henry IV*, IV, iv.
35. *1 Henry IV*, III, i.
36. *Much Ado about Nothing*, II, iii.
37. *2 Henry IV*, III, i.
38. *King John*, IV, ii.
39. *Troilus and Cressida*, III, iii.
40. *Midsummer Night's Dream*, I, iii.
41. *Merchant of Venice*, I, iii.
42. *Twelfth Night*, III, iv.
43. *Mid. Night's Dream*, I, i.
44. *Othello*, I, i.
45. *King Lear*, IV, vi.
46. *Hamlet*, I, iv.
47. Ibid., II, ii.
48. *Mid. Night's Dream*, II, i.
49. *Two Gentlemen of Verona*, IV, ii.
50. *Cymbeline*, II, iii.
51. *Measure for Measure*, IV, ii.
52. *Mid. Night's Dream*, V, i, 7.
53. Examples in Chambers, *Shakespeare*, 228-30.
54. *Comedy of Errors*, III, i, 76.
55. *Tempest*, IV, i, 199.
56. *As You Like It*, III, ii.
57. Shaw, Bernard, *Alan and Superman*, Preface, xxviii.
58. *Hamlet*, I, v.
59. *Much Ado about Nothing*, V, i.
60. *Hamlet*, III, iv, 88.
61. Ibid., II, ii.
62. *Coriolanus*, IV, vii.
63. *Hamlet*, I, iv, 15.
64. *Richard III*, V, iii.
65. *Richard II*, III, iii.
66. *1 Henry IV*, III, i; cf. Haydn, *Counter-Renaissance*, 601f.
67. *Troilus and Cressida*, I, iii.
68. *King Lear*, V, ii, 9.
69. *Twelfth Night*, II, iii.
70. *King Lear*, IV, vi, 112f.
71. *Pericles*, II, i.
72. *Tempest*, II, i, 147-64.
73. *Hamlet*, IV, iv, 35.
74. Raleigh, *Shakespeare*, 61.
75. *King John*, III, i.
76. *Henry VIII*, II, ii; *Romeo and Juliet*, IV, ii.
77. *King Lear*, IV, i, 36.
78. Ibid., V, iii, 169.
79. V, ii, 10.
80. *King John*, III, iv, 108.
81. *Hamlet*, I, iii, 126-28.
82. *Macbeth*, V, v, 23.
83. *Merchant of Venice*, V, i.
84. *Measure for Measure*, III, i, 118.
85. *Hamlet*, I, iv, 67.
86. Chambers, *Shakespeare*, II, 194.
87. In Lee, *Shakespeare*, 179.
88. Jonson, *Timber*, in Chute, *Ben Jonson*, 340.
89. Lee, 177.
90. Ibid., 178.
91. Aubrey, 275.
92. Jonson, *Timber*, in Lee, 277.
93. Chambers, *Shakespeare*, I, 84.
94. Lee, 203.
95. Aubrey, 275.
96. Ibid., 85.
97. *Tempest*, I, ii, 5.
98. Ibid., IV, i, 148.
99. V, i, 48.
100. V, i, 181.
101. Chambers, *Shakespeare*, I, 89.
102. Holzknecht, 380-1.
103. Voltaire, Letter of July 19, 1776, in Denoïsterres, G., *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, VIII, 108.

104. In Croce, B., *Ariosto, Shakespeare, and Corneille*, 284.
105. Voltaire, article on Dramatic Art, in Holzschnecht, 387.
106. Goethe, *Wilhelm Meister*, Book II, chs. xiii-xvi.

CHAPTER V

1. Brantôme, *Book of the Ladies*, 92.
2. *Ibid.*, 124.
3. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 6.
4. Pastor, XVI, 283.
5. Lingard, VI, 12.
6. *Book of Discipline*, Heads I and III, in Knox, *History of the Reformation in Scotland*, II, 281-3.
7. Knox, *History*, II, 321-2.
8. In National Portrait Gallery, London, and in Uffizi Gallery, Florence.
9. Lang, Andrew, *Mystery of Mary Stuart*, 13, 61.
10. Knox, *History*, II, 10; Froude, *Elizabeth*, I, 155.
11. Knox, II, 8.
12. *Ibid.*, 12.
13. *Ibid.*, 13f.
14. Lang, *History of Scotland*, II, 107.
15. *Ibid.*
16. Muir, Edwin, *John Knox*, 240.
17. Knox, *History*, II, 29.
18. Lang, *History*, II, 110.
19. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xxix.
20. Knox, *History*, II, 44-6.
21. Lang, *History*, II, 126.
22. Knox, II, 71-7; Lang, II, 127; Muir, *Knox*, 253.
23. Knox, II, 81.
24. *Ibid.*, 83.
25. *Ibid.*, 93.
26. Zweig, *Mary Queen of Scots*, 108.
27. Neale, *Queen Elizabeth*, 141.
28. Lang, *History*, II, 160.
29. *Ibid.*; Froude, *Elizabeth*, II, 50.
30. Lang, II, 162.
31. *Camb. Mod. History*, III, 272.
32. Lang, *Mystery*, 75.
33. *Ibid.*, 108-11.
34. *Camb. Mod. History*, III, 273.
35. Lang, *History*, II, 171; Lingard, VI, 67.
36. Lang, II, 170-2.
37. *Ibid.*; Knox, *History*, lxxiii.
38. Zweig, 158.
39. Lang, *Mystery*, 236.
40. Acton, *Lectures*, 150-2; Lang, *Mystery*, 295, 353, 362.
41. *Ibid.*, 133.
42. Lang, *History*, II, 188.
43. Neale, 161.
44. Lang, *Mystery*, 194.

45. Froude, *Elizabeth*, II, 307, 310.
46. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 112.
47. Hallam, I, 167.
48. Froude, *Elizabeth*, II, 407.
49. *Ibid.*, 404; Lang, II, 200.
50. Lang, II, 203.
51. Lang, *Mystery*, 286.
52. Lingard, VI, 97.
53. Froude, III, 110.
54. Muir, *Knox*, 282.
55. Knox, *History*, I, vii.
56. Lingard, VI, 126.
57. *Ibid.*, 128; Hughes, III, 278.
58. Roeder, *Catherine de' Medici*, 491.
59. Neale, 263.
60. Pastor, XIX, 450-2.
61. Lingard, VI, 187.
62. *Ibid.*, 205-6; Pastor, XXI, 7-19.
63. *Ibid.*, 25; Froude, V, 259-61.
64. Williams, Chas., *James I*, 76, 80-3; Froude, V, 294.
65. Zweig, 291.

CHAPTER VI

1. Fontenoy in Froude, V, 74.
2. Lang, *History*, 276, 294-6, 305, 395; Lingard, VI, 183.
3. Lea, *Studies in Church History*, 502-8.
4. *Ibid.*, 500.
5. Lang, *History*, II, 243.
6. James I, *Basilikon Doron*, in Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century*, 41.
7. Lang, *History*, II, 278.
8. *History Today*, March 1956, 159.
9. Buckle, *History of Civilization*, IIa, 199.
10. Williams, *James I*, 132.
11. *Encycl. Brit.*, IV, 310.
12. Allen, J. W., *History of Political Thought*, 339-40; cf. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory*, 332f; Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 167-72.
13. Allen, op. cit., 342.
14. Quoted by Oliver Dick in Introduction to Aubrey's *Brief Lives*, xxx.
15. In Chute, *Ben Jonson*, 249.
16. *Ibid.*, 268.
17. *Ibid.*, 217.
18. Bowen, C. D., *The Lion and the Throne*, 315.
19. Aubrey, 67.
20. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 349; Allen, 254; Dunning, W. A., *History of Political Theories*, II, 217.
21. Allen, J. W., *English Political Thought*, 26.
22. *Ibid.*, 124.

23. Lingard, VII, 17.
24. Allen, *English Political Thought*, 223.
25. Williams, *James I*, 192-3.
26. Lingard, VII, 19-22.
27. Ibid., 29.
28. Ibid., 40-3.
29. Ibid., 46-8.
30. Ibid., 50, 96.
31. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 198.
32. Lang, *History*, II, 508.
33. Aubrey, 21.
34. Hallam, H., *Literature of Europe*, III, 324.
35. Webster, *The White Devil*, in Webster and Ford, *Plays*, p. 91.
36. Webster, *Duchess of Malfy*, in Webster and Ford, p. 145.
37. Ibid., IV, ii.
38. Thornton, *Table Talk*, 15.
39. Thomas Fuller in Chute, *Ben Jonson*, 37.
40. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
41. Thornton, 7.
42. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
43. Thornton, 8.
44. Chute, *Ben Jonson*, 161.
45. Jonson, *The Alchemist*, II, i.
46. Baskerville, Read, etc., *Elizabethan and Stuart Plays*, 1077.
47. Herrick, *Poems*, 241.
48. Chute, *Ben Jonson*, 310.
49. Williams, *James I*, 189.
50. Introduction to Burton, *Anatomy of Melancholy*, p. x.
51. Ibid.
52. Burton, *Anatomy of Melancholy*, 8.
53. Ibid., 3.
54. Ibid., 79-80.
55. Donne, *Poems*, 83.
56. Ibid., 26.
57. Elegy XIII; Elegy II.
58. *Poems*, 182.
59. Ibid., 180.
60. Thornton, 4.
61. *Poems*, 253.
62. In Peterson, *Treasury of the World's Great Speeches*, 91.
63. Ibid., 92.
64. Walton, *Life of Dr. Donne*, in Peterson, 95.
65. Hallam, *Constitutional History*, I, 347; *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b; Lingard, VII, 7.
66. Text in Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 82-4.
67. Raleigh, Sir Walter, *Selections*, 61.
68. Ibid., 117.
69. Lingard, VII, 101.

70. Spedding, *Life of Fr. Bacon*, II, 288-9; Wallace, *Sir Walter Raleigh*, 261f.
71. Lingard, VII, 102.
72. *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b.
73. Wallace, *Raleigh*, 315.
74. Raleigh, *Selections*, Introduction, 28.
75. Lingard, VII, 117.
76. Williams, *James I*, 258.
77. Hallam, *Constitutional History*, 109.
78. Ibid., 122.
79. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 117.

CHAPTER VII

1. Browne, Sir Thomas, *Pseudodoxia Epidemica*, in *Works*, Vols. II and III.
2. Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, VI, 548-9.
3. Lecky, *Rationalism in Europe*, I, 18n; Williams, *James I*, 106-10.
4. Lang, *History*, II, 434.
5. Hughes, *Reformation*, II, 286n.
6. Ibid., 285.
7. Thorndike, VI, 550; Chute, *Ben Jonson*, 229.
8. Trevelyan, *English Social History*, 132.
9. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 97.
10. Ibid., 95.
11. Robertson, *History of Freethought*, II, 13.
12. Huntington Library Bulletin, April 1934, p. 99.
13. Wolf, *History of Science*, I, 192.
14. Ibid., 426.
15. John, Evan, *King Charles I*, 153; Kellogg, *The New Dietetics*, 847.
16. Garrison, *History of Medicine*, 248.
17. Sigerist, *The Great Doctors*, 141.
18. Harvey, *Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis*, in Hammerman, *Great Books*, 273.
19. Walsh, J. J., *The Popes and Science*, 396.
20. Aubrey, 131.
21. Prinzmetal, *Heart Attack*, 121-2.
22. Aubrey, 128.
23. Ibid., 130.
24. Ibid., 11.
25. Gardiner, S. R., in Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 12.
26. Spedding, *Life of Bacon*, I, 542.
27. Aubrey, 9.
28. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 316-8.
29. Bowen, *The Lion and the Throne*, 418; *Camb. Mod. History*, III, 571.
30. Spedding, *Life*, II, 463.
31. Ibid., 633.
32. Ibid., I, 563.
33. Ibid., 569.

34. Bacon, *Philosophical Works*, 241.
35. *Ibid.*, ~
36. *Ibid.*, 244.
37. *Ibid.*, 247.
38. Aubrey, 130.
39. Bacon, *Phil. Works*, 167.
40. *Ibid.*, 76, 78; *De Augmentis scientiarum*, Preface.
41. *Philosophical Works*, 76.
42. *Advancement of Learning*, ch. 8.
43. Bacon, *Works*, ed. Spedding and Ellis, VII, 241.
44. *Novum organum*, i, 97.
45. *Ibid.*, i, 82; and "Plan of the Work" in *Philosophical Works*, 250.
46. *Novum organum*, ii, 13, 17.
47. *Philosophical Works*, 144.
48. *Ibid.*, 77.
49. *Ibid.*, 50.
50. Spedding, *Life*, I, 111.
51. *Novum organum*, ii, 2.
52. *Ibid.*, ii, 8.
53. *Ibid.*
54. *De Augmentis*, iv, 3.
55. *Novum organum*, i, 66.
56. *De Augmentis*, end.
57. Essay "Of Atheism."
58. *Ibid.*; *Advancement of Learning*, in *Philosophical Works*, 45; *De Augmentis*, iii, 2.
59. Essay "Of Atheism."
60. *Valerius Terminus*, ch. i, in *Philosophical Works*, 186.
61. Rawley's *Life*, in *Phil. Works*, 9.
62. *De Augmentis*, iv, 1.
63. Essay "Of Goodness."
64. *Ibid.*
65. "Of Marriage and Single Life."
66. Essays "Of Empire" and "Of the True Greatness of Kingdoms."
67. *De Augmentis*, viii, 3, in *Phil. Works*, 610-11.
68. "Of Vicissitude of Things."
69. "Of Seditions and Troubles."
70. *Phil. Works*, 717.
71. *History of Henry VII*, in *Works*, VI, 238-45.
72. In Nichol, J., *Fr. Bacon*, II, 4.
73. Pope's *Essay on Man*, line 282.
74. *Thema coeli*, in *Phil. Works*, 705; *Description globi intellectualis*, *ibid.*, 685.
75. In Friedell, *Cultural History of the Modern Age*, I, 335.
76. *The Advancement of Learning*, in *Phil. Works*, 167.
77. Wolf, *Science in the Sixteenth Century*, 630; Bernal, *Science in History*, 305.
78. Hallam, *Literature of Europe*, III, 72.
79. Nichol, J., II, 235.
80. *Novum organum*, i, 49.
81. *Ibid.*, i, 26, 95.

CHAPTER VIII

1. Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 103.
2. *Ibid.*, table at p. 73.
3. John, Charles I, 167.
4. French, Allen, *Charles I and the Puritan Upheaval*, 100-2.
5. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 24.
6. *Ibid.*, 77.
7. *Ibid.*, 76.
8. *Ibid.*
9. Aubrey, 135.
10. Belloc, H., *Richelieu*, 49.
11. McCabe, *Candid History*, 202.
12. Toynbee, A., *Study of History*, IX, 178.
13. Allen, *English Political Thought*, 237.
14. *Ibid.*, 242.
15. *Ibid.*
16. Taine, *English Literature*, 259-62.
17. Hume, D., *History of England*, IV, 183.
18. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 302.
19. French, *Charles I*, 281.
20. Lingard, VII, 181; Taine, *English Literature*, 265.
21. *Camb. Mod. History*, IV, 279.
22. Allen, *English Thought*, 194.
23. Carlyle, T., *Oliver Cromwell*, I, 93.
24. French, 306.
25. Schaff, *History of the Christian Church: The German Reformation*, I, 79.
26. Allen, *English Thought*, 283.
27. French, 281.
28. Markun, L., *Mrs. Grundy*, 114.
29. Weber, Max, *The Protestant Ethic*, 177.
30. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 387.
31. Allen, *English Thought*, 279f; Lingard, VIII, 190.
32. *Ibid.*, 191n.
33. Thornton, *Table Talk*, 72, 106.
34. Browne, *Religio Medici*, 77.
35. Browne, *Works*, II, 226.
36. *Religio Medici*, 70, 34.
37. Singer, *Studies in the History of Science*, 222.
38. *Religio Medici*, 82.
39. *Ibid.*, 1.
40. *Ibid.*, 18.
41. *Ibid.*, 25.
42. *Ibid.*, 10.
43. *Ibid.*, 179.
44. *Ibid.*, 60.
45. *Ibid.*, 92.
46. Herrick, *Poems*, 181.
47. *Ibid.*, 178.
48. *Ibid.*, 198.
49. Aubrey, 287.
50. *Ibid.*, 289.
51. *Ibid.*, 192.

52. Lovelace, *Poems*, 78.
53. Ibid., 18.
54. MacLaurin, *Mere Mortals*, 143-4; John, *Charles I*, 4; French, 16.
55. Bishop, *Renaissance Architecture*, 25.
56. John, *Charles I*, 65.
57. Ibid., 66.
58. Ibid., 133; Lingard, VII, 164.
59. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 1.
60. Ibid., 41-3.
61. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 173.
62. Ibid., 174; Allen, *English Thought*, 360.
63. Rickard, *Man and Metals*, II, 799.
64. Clarendon, *History of the Rebellion*, I, 323.
65. Ibid., 188f.
66. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 94.
67. Lang, *History of Scotland*, III, 71.
68. John, *Charles I*, 207.
69. Morley, *Oliver Cromwell*, 72.
70. Clarendon, *passim*; Hume, D., *History of England*, IV, 174, 401.
71. Carlyle, *Oliver Cromwell*; Firth, *Oliver Cromwell*; Buchan, *Oliver Cromwell*.
72. Morley, *Cromwell*, 9.
73. Carlyle, *Cromwell*, I, 98.
74. Ibid., 108.
75. Clarendon, I, 300; Gardiner, *History of England*, IX, 230.
76. Thornton, *Table Talk*, 108.
77. Gardiner, IX, 251-2.
78. Allen, *English Thought*, 346f.
79. Morley, *Cromwell*, 91; Hallam, *Constitutional History*, II, 119; Allen, 354.
80. Clarendon, I, 452.
81. Ibid., 466.
82. Firth, *Cromwell*, 61.
83. Clarendon, II, 49 f.
84. Allen, *English Thought*, 313, 403-4.
85. Robinson, J. H., *Readings*, 356.
86. Schaff, *History of the Christian Church: The Swiss Reformation*, II, 565.
87. Firth, 149; Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 86; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 76.
88. *Contemp. Mod. History*, IV, 312.
89. Firth, 147.
90. Ibid.
91. Macaulay, *History of England*, I, 100.
92. Goöch, *English Democratic Ideas*, 119, 179.
93. Ibid., 124.
94. Ibid., 128.
95. *Contemp. Mod. History*, IV, 345.
96. Firth, 175.
97. Morley, *Cromwell*, 240.
98. Lingard, VIII, 110.
99. Morley, 267.
100. John, *Charles I*, 294.
101. Hume, *History*, IV, 485.
102. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, II, 223.
103. Robinson, *Readings*, 359.